سِبَستين بْرُك

سُوزان هارفي

غْلِن بَوَرسُك





# قديسات وملكات

## من المشرق السرياني وجزيرة العرب



ميون الحجيري

إهداء

قداسة البطريرك مار اغناطيوس زكا الأول عيواص

الرئيس الأعلى للكنيسة السريانية الارثوذكسية في العالم

م. فريده بولص

١٤/٩/٢٠٠١

# قديسات وملكات

## من المشرق السرياني وجزيرة العرب

الكتاب: قديسات وملكات من المشرق السرياني وجزيرة العرب
تأليف: سِبَستيَن بِرُك وسوزان هارفي
ترجمة: فريدة بولص
(بمنحة من مجلس كنائس الشرق الأوسط «MECC»
واللجنة المركزية للمانونايت «.M.C.C»).
راجعه وقدم له: مار غريغوريوس يوحنا إبراهيم (متروبوليت حلب للسريان الأرثوذكس)
ثيودورا: الملكة المؤمنة، من تأليف: سوزان هارفي
ماوية: ملكة العرب، من تأليف: غْلِنّ بَوَرْسُك
ترجمة الملحقين: ميسون الحجيري
صورة الغلاف: ثيودورا القيصرة السريانية.
تصميم الغلاف: نبيل المالح
الإخراج: مؤسسة سندباد
الطبعة الأولى: 2000 م

**قَدْمُس** للنشر والتوزيع - دمشق و **دار ماردين** - حلب
سورية - دمشق - ص.ب: 6177
دار المهندسين (0905) - الفردوس
هاتف: 36 98 222 (11-963+)
فاكس: 7226 224 / 7393 442 (11-963+)
بريد إلكتروني: cadmus@net.sy

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها على صفحتي الشبكة التالية:
< http://www.lhbooks.com > - < www.alfurat.com >

تأشيرة الرقابة: 47620 - تا 2000/5/16

سِبَستيَن بُرُك و سوزان هارفي
غْلِن بَوَرسُك

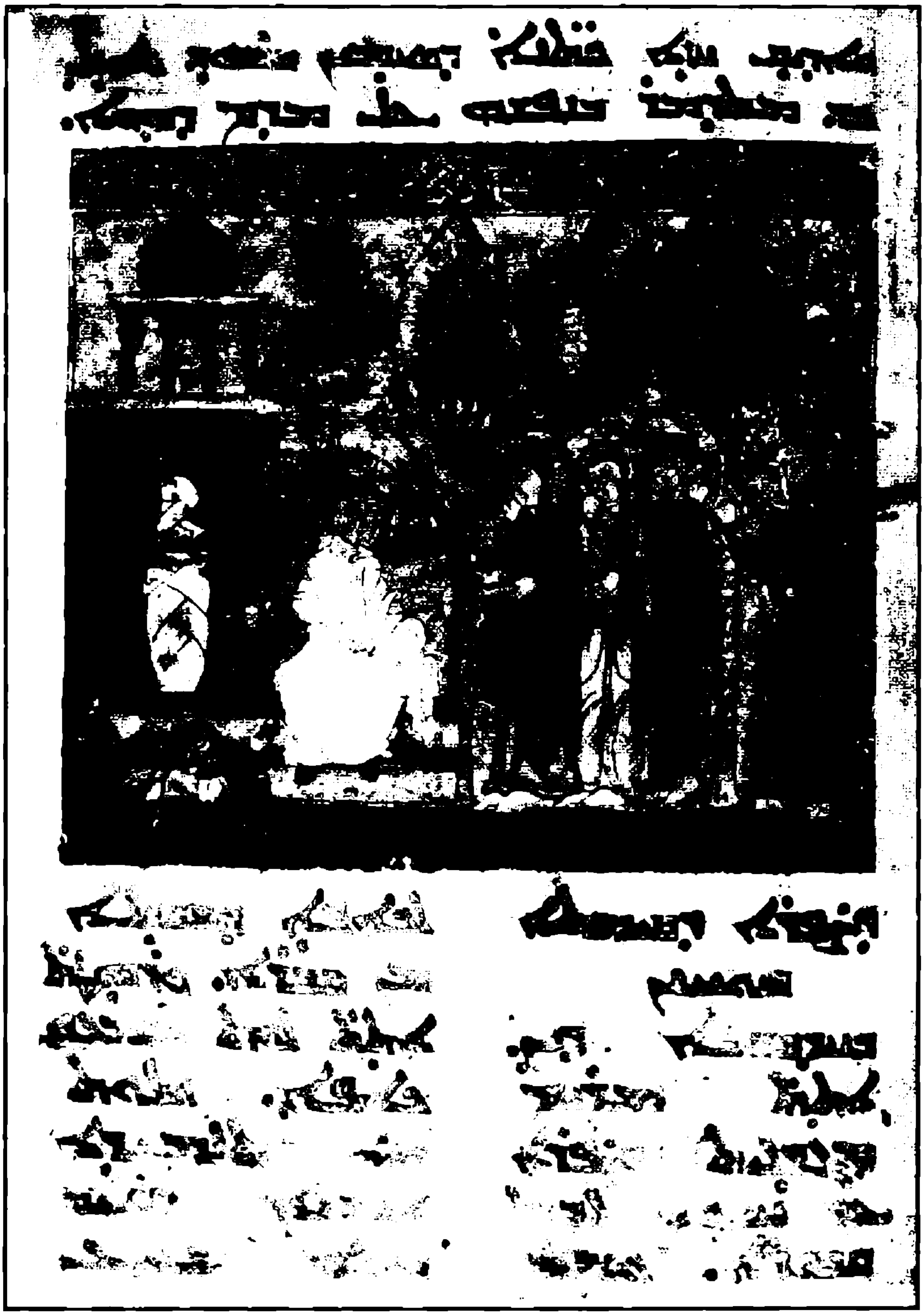
# قديسات وملكات

## من المشرق السرياني وجزيرة العرب

ترجمة

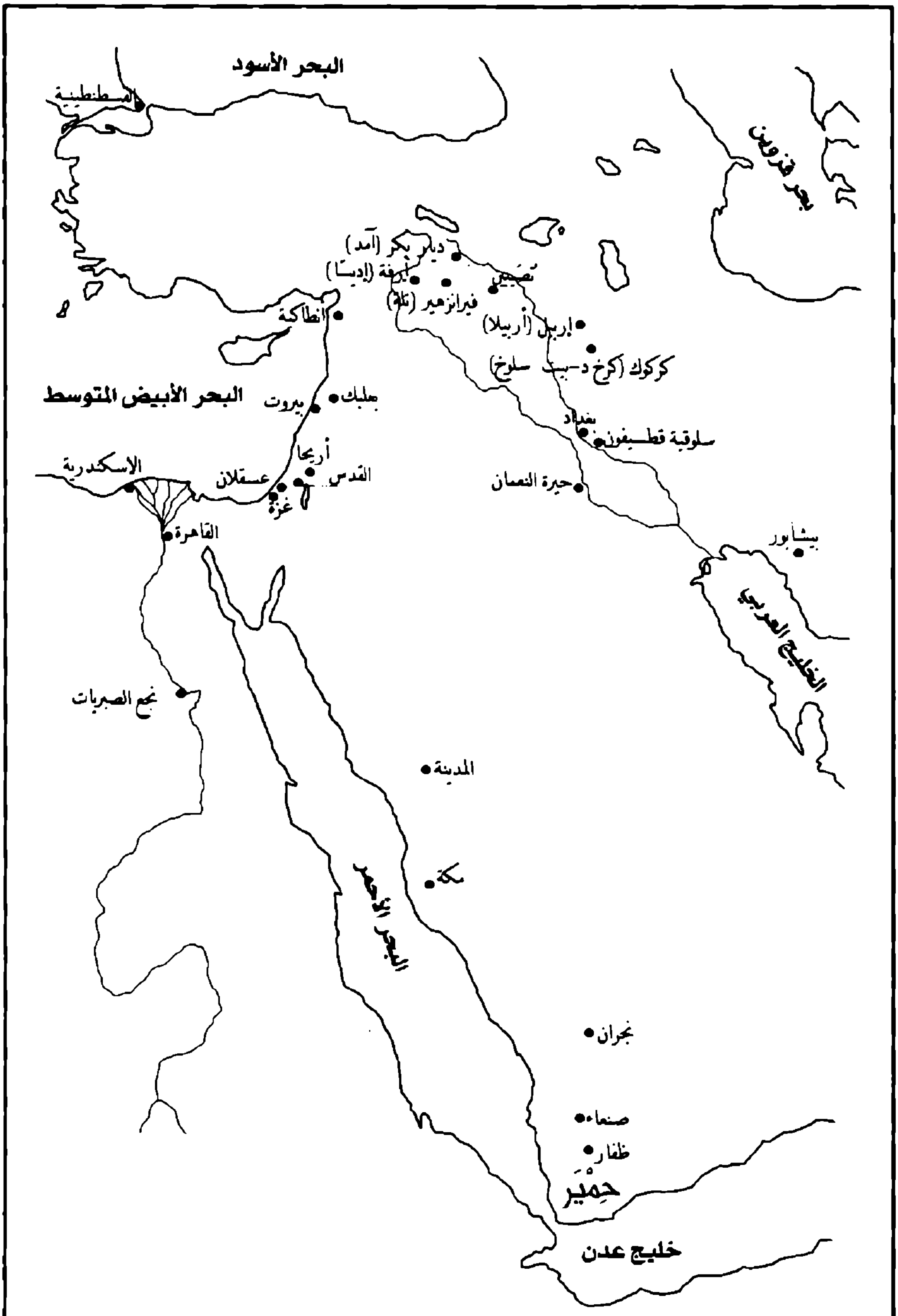
فريـدة بـولص و ميسون الحجيري

راجعه وقدم له، مار غريغوريوس يوحنـا إبـراهيـم
متروبوليت حلب للسريان الأرثوذكس



صعود السيد المسيح كما ظهر للقديسات (متى 9:28) - لوحة من مخطوطة سريانية تعود إلى القرن 13 للميلاد. تنشر بإذن من المكتبة البريطانية رقم (98E02033p) حصلت عليه السيدة فريدة بولص.

# فهرس المحتويات




المشرق السرياني

إلى هيلين وجيم...

# مقدمة الطبعة الإنجليزية الثانية

مضى عشر سنوات منذ ظهور كتاب: **قديسات من الشرق السرياني.**(*) وحين ذاك حدث الكثير من التغيرات في دراسة المسيحية في العصور الأولى، وفي الدراسة عن المرأة في التاريخ المسيحي. لقد ساهمت هذه النصوص المجمعة في هذا الكتاب في هذه التغيرات وما تزال تتحدى الباحثين والدارسين ليعيدوا النظر في النماذج المألوفة والمسائل العامة. ثمة اهتمامان دفعاني للتعهد بهذا الكتاب: الأول هو القلة النسبية للمواد المتوافرة في متناول اليد عن السريان، والثاني ندرة المصادر عن المرأة في التاريخ المسيحي في العصور الأولى. تبقى النصوص في هذا الكتاب مفيدة ليس فقط لتصحيح عدم التوازن الذي دعا إلى جهودنا بل لتقف شهود عيان قوية لعصرها ومكانتها. وأي جهد لترجمة أو فهم المسيحية في العصور الأولى ومساهمة المرأة فيها يجب أن تقاس بما تخبرنا به هذه النصوص.

ومن وجهة نظر التقليد السرياني فقد ساهمت هذه النصوص في محاولة أن نرى أن عبارات المسيحية في العصور القديمة أوسع مما يسمح لنا به الأدبان اللاتيني واليوناني للإمبراطورية الرومانية. لقد أكد الباحثون بشكل متزايد فهم الإمبراطورية الرومانية كمجتمع متعدد الجنسيات حيث ازدهرت فيه ثقافات متنوعة وتفاعلت. فالنصوص المجمعة هنا تجعلنا ننظر

(*) هذا هو العنوان الأصلي للكتاب بالإنجليزية، وقد أضفنا إليه الملحقين وغيّرنا عنوانه بعد أخذ موافقة الأطراف ذات العلاقة (الناشر).

إلى المسيحية كظاهرة منذ بدايتها لم يكن لها حدود واحدة مع الإمبراطورية الرومانية. فعندما يفكر الإنسان بنماذج من الاستمرار والتباين ماثلة في النصوص المسيحية فيما وراء الحدود الرومانية يجدها مقترنة بالتقاليد اللاتينية واليونانية. وتتضّح الصورة كثيراً عن كيفية تطور هذه الديانة، ليس فقط الاتساع المدهش للرقعة الجغرافية بل الغنى الصريح للمثابرة والتنوع في الأدب المسيحي والممارسات والروحانيات. وفي هذا المفهوم الواسع للتاريخ المسيحي فإن التقليد السرياني أحد القدرات في عصور المسيحية عريقة الطاقات يوفر لنا (الصورة الأشمل).

وأيضاً علمتنا (الصورة الأشمل) أموراً كثيرة عن السريان المسيحيين. فثمة نزعة عامة في الدراسات عن التقليد السرياني كدراسة منفصلة عن الثقافة اليونانية التي هيمنت على بداية العصر المسيحي (نزعة أُشير إليها في المقدمة). ولكن بدأ الباحثون يدركون بشكل متزايد أن عالم الشرق الأوسطي كان حقاً عالماً مسكونياً، وأكثر بكثير من التفاعل الثقافي مما أدركناه وأكثر دقة ونعومة. فالنصوص في هذه المجموعة إذاً لا تمثل فقط أخلاقية السريان المميزة بل تمثل أيضاً الصيغ الأدبية والأمثلة الخطابية المتأثرة بالتقاليد الأدبية (الكلاسيكية)، والمدارس اليونانية الفلسفية والرومانية. ولا يقلل هذا الإدراك من أهمية هذه النصوص كملامح للسريان المسيحي بل يؤكد مرونة الحدود الثقافية في العصور القديمة ونوعية التفاعل العميق في الأزمنة المتأخرة للعالم القديم.

ثمة موضوع أكثر عمومية للاهتمام به ألا وهو استعمال سير القديسين لتاريخ المرأة. فقد ظهرت في السنوات الأخيرة مجموعة من ترجمات أو دراسات عن سير القديسات بأسماء تدل على اهتمامات موازية للنصوص المجمعة هنا. ولكن، كما حدث أن المؤرخين قدروا أهمية سير الشهداء والقديسين كمصدر يتحدث عن المرأة فقد حدث أن عرفنا، بوضوح أكثر، ملابساتها كمادة تاريخية. وهذا هو أهم إنجاز في عشر السنوات السابقة:

التحول من الاهتمام بالحقيقة التاريخية إلى الاهتمام بلغة الخطابة المنحقّة. فإن كانت معرفتنا بسير النساء لذلك العصر قد نمت كثيراً، هكذا أيضاً زاد وعينا بمكانة المرأة في (الحديث الشامل) في الأزمنة الأخيرة من العصر القديم (الدرجة التي استخدمت فيها الخطابة لصوغ تعريف خاص بالمرأة وممارسات المرأة، ولتعميم هذه الصيغ ضمن برنامج أوسع من التعبير الثقافي (المصوغ) حسب الهيكلية السياسية والاجتماعية التقليدية للعصر).

ليس لدينا ثمة نص معروف ألفته امرأة من بداية اللغة في القرون الأولى حتى بعد زمن بعيد من تاريخ النصوص في هذه المجموعة. فسيرة حياة فبرونيا التي تثير الفضول بشكل خاص، كما أشرنا في المقدمة، يدّعى أنها مكتوبة بقلم امرأة: الراهبة تومار. ولكن النص ذاته يجعل من الصعب قبول مثل هذا التأليف؛ فالقصة نوع من أنواع الملحمة (الرومانسية) تتطلب رواية بسبب المضمون (وما كان باستطاعة رجل أن يشهد على صحة الأحداث). حتى الصورة الإيجابية للحياة في دير الراهبات لا يمكن أن تدل أو تشير إلى جنس المؤلف. فلدينا عدد كبير من الرجال الذين كتبوا بإيجابية عن حياة أديرة الراهبات في ذلك العصر. وأهم من ذلك، أن سلطة الرئاسة لدير فبرونيا تتبع عادات من التقاليد الفلسفية اللاتينية واليونانية للصداقة النموذجية في أديرة الرجال وهي: الحياة المشتركة المكرسة لتتبع الحقيقة حيث يشارك الأعضاء في جميع الأمور بشكل عام وجميعهم قلب واحد وفكر واحد. تتبع الرواية خطاً يشارك عدداً من العناصر الهامة مع الرومانسية الهلنستية. أحقاً يمكن أن نقول هناك شيء مميز في هذه السيرة التي تجعلها قصة (امرأة)؟ لقد اقترحنا في المقدمة جواباً إيجابياً، ولكن المشكلة ما تزال موضوعاً تحت البحث.

لدى غياب النصوص المؤلفة بقلم السيدات فالقصة التي يقدمها شاهد عيان مثل مار تيريوس (سهدونا) عن الطوباوية شيرين هو أثمن دليل. ذكريات ذاتية يتذكرها شخص منذ طفولته. هذه القصة ما هي إلا ذكرى

تذكرنا بإلحاح بما فقدناه. كانت شيرين تعيش وحيدة في قرية، وكانت بمنزلة معلمة ومرشدة روحية لسيدات القرية وأولادهن (وضمنهن أم سهدونا وهو ذاته طفل من أطفال القرية). وكانت أيضاً قوة روحية للرهبان والأديرة في المنطقة. وكانت الأديرة تهتم بها للاستشارة والبركة. فمنهجية الحياة التي تنسب إليها تنسجم مع ما هو مألوف في منهجية حياة الناسكات في التقليد السرياني. فمنهجية حياتها تتضمن ملامح شبيهة جداً بممارسات والتزامات بنات العهد (المكرسات) مع أن شيرين لم تعرف كمكرسة. فأهمية وجودها في الحياة اليومية لمنطقتها ثابتة تماماً. أما مشكلتنا فهي أننا تُركنا مع أنموذج بقي كمثل لنا، إنها حقاً أنموذج قوي ولكن كلماتها وحكمتها وتعاليمها مفقودة ولم تصل إلينا.

لقد أوضحنا نقطة هامة في المقدمة ألا وهي: إن السير في هذا الكتاب تغطي طيفاً ماراً من القصص الأسطورية إلى القصص المشاهدة مع كل التباين المتأصل في هذا المجال. فمنذ نشر هذا الكتاب علا الوعي البحثي الواسع لوجود المرأة ومشاركتها في النشاطات المسيحية أثناء الأزمنة المتأخرة في العصور القديمة، وكذلك علا وعينا أيضاً بأن موضوع الصحة التاريخية قد تضاءل أمام المشكلة الأكبر ألا وهي لغة الخطابة. إلى أي مدى تعكس هذه النصوص المكتوبة بقلم الرجال سير وتعاليم هذه القديسات؟ وإلى أي مدى يستخدمون شخصيات هذه النساء للتحدث إلى برامج أخرى؟ ما الخطاب الذي قرر؟ وما العصور البيانية الثقافية التي تقدمها الصور الأدبية الخاصة، مع ما تغيرها برامج الرقابة الاجتماعية والثقافية؟

أدب سير القديسين ـ كأدب الرواية اليونانية الذي سبقه ـ منح الرؤية الرفيعة للإنسان ـ وبذلك منح المرأة دوراً هاماً بما يمليه العقل أو الضمير من الشكل والوظيفة. تستدعي الأسباب إلى التغيير، التنقل ـ الفكري في تصوير الحياة الدينية المناسبة في المجالين العائلي والمدني، وأيضاً الاهتمام بالرقابة الاجتماعية أثناء فترة الثورة السياسية والدينية. لا الاهتمام المتطور بالمرأة

واضح ولا مكانتها الاجتماعية، بل الواضح هو الضغط الاجتماعي العالي (وهو العنصر الذي أكدناه في المقدمة).

إن هذه النصوص التي تدعي بأنها تمدح المرأة هي نصوص تحجبها عن ناظرنا.

إذاً يبقى السؤال مطروحاً: كيف لنا أن نحدد وجود المرأة وصوتها ضمن هذه النصوص؟ ومثلها مثل النصوص الأبوكريفية حيث طرحت أسئلة موازية،فإن سير القديسات تُمثّل الخطاب الشفهي والمكتوب معاً. ولدت القصص من المجتمع المسيحي بكامله وضمنه، قصت النساء والرجال هذه القصص وسمعوها. فلن نشعر بالدهشة إن وجدنا الأدلة ضمن نصوصنا: إن النساء فهمن هذه القصص بشكل مغاير لما فهمه الرجال. ربما وجد أيضاً صوت مختلف، صوت مقاوم: صوت المرأة ذات الخبرات التي تدعي هذا القصص وتكتمه. ربما ليس ثمة مصادر سريانية مكتوبة بقلم امرأة، علينا أن ننتبه إلى ذاك التباين النصي أو الحرفي.

**سوزان أشبروك هارفي**

تشرين الأول 1997

# تقريظ المؤلفين الترجمة العربية للكتاب

نحن المؤلفين نعبر عن عميق امتناننا لرؤية صدور هذه الطبعة العربية من كتابنا. إننا نقدر حق تقدير جهود كلّ من عمل جاهداً لتحقيق ذلك: للدكتور زياد منى من **قَدْمُس للنشر والتوزيع** الذي أشرف بصبر ودون كلل على نقله من الأصل الإنجليزي الصادر عن جامعة كاليفورنيا في الولايات المتحدة إلى الطبعة العربية الحالية، وإلى نيافة الحبر الجليل مار غريغوريوس يوحنا إبراهيم الجزيل الاحترام الذي ساعد دعمه ورغبته المتقدة في توسيع دائرة المعارف بتاريخ المسيحية السريانية في إنجاز هذه النسخة، وإلى السيدة فريدة بولص والآنسة ميسون الحجيري اللتين كوفئتا على عملهما الدؤوب والقيم كمترجمتين بصدور هذه الطبعة. إننا نعبر عن عميق امتناننا لهم جميعاً ونأمل أن يسهم عملنا هذا في الوصول إلى فهم أشمل لتاريخ الشرق الأوسط.

**عنهم: سوزان هارفي**

برُفِدَنس في 11 آذار 2000

# مقدمة الطبعة العربية

## المساواة بين المرأة والرجل

تنطلق الديانات السماوية في نظرتها إلى المرأة من عملية الخلق. فالله تعالى خلق الإنسان على صورته ذكراً وأنثى خلقهم. ولكن المرأة مرت في عصور وظروف تباينت فيها نظرة المجتمع إليها، وفي أغلب الأحيان تحكم الرجل بالمرأة. ونما هذا التحكم إلى حد الاستبداد والتعسف. فتنادت أوساط أخرى لتغيير أوضاع المرأة في مختلف مجالات الحياة. وأدت هذه المناداة إلى الدعوة لتحرر المرأة. وتبنى هذا الفكر الرجل والمرأة على السواء، خاصة في المنظمات العالمية والمؤسسات الدولية. وحصلت قناعة بأن إنماء المجتمع لا يتحقق إلا بمساواة المرأة بالرجل في الكرامة والعيش اللائق والحرية والعمل. وقد دافعت المرأة عن رؤيتها وشاركت من أجل حضورها الكامل روحياً وثقافياً واقتصادياً وحضارياً، وحتى سياسياً.

هذا الكتاب: **قديسات وملكات من المشرق السرياني وجزيرة العرب**، تأليف سِبَستيَن برُك وسوزان هارفي، ترجمة فريدة بولص وميسون الحجيري، ينفي فكرة تسلط واستبداد الرجل على المرأة في مجتمع معيّن. القديسات من نوعين؛ الأول: شهيدات أثبتن حبّهن للسيد المسيح مؤسس الكنيسة. فالاستشهاد الذي يعني اصطلاحياً القتل في سبيل الله باب من أبواب إعلان المحبة الحقيقية للانتماء، يختاره الإنسان بإرادته. والمعنى الاشتقاقي الفقهي يدل على اشتقاق الكلمة من الشهادة. فاستشهد بمعنى سئل للشهادة أو طلباً للشهادة؛ والشهادة هنا هي للإيمان الذي يدين به الإنسان ويذود عنه. ففي مجتمع الكنيسة الأول المكون من الرجل والمرأة،

كان من المفترض أن تنتهج المرأة نهج الرجل في الجهر بالإيمان، وإعلانه بقوة وجرأة، تثبت مساواة الرجل بالمرأة في قضايا إيمانية تؤدي في بعض الأحيان إلى الشهادة. وفي قراءتنا لقصص الشهيدات في هذا الكتاب نرى أن مواجهة التحديات لن تميز بين موقف المرأة وموقف الرجل؛ فنحن أمام قضية عنوانها الحق. هل إعلان الحقيقة مرتبط بالرجل فقط؟ أم على المرأة أن تشهد له أيضاً؟ لو كانت المرأة منزوية في هذا المجتمع، وليس لها من حقوق تتساوى فيه مع الرجل لبقيت بعيدة عن تقديم شهادة حق وهي في مواجهة هذا التحدي الكبير. وكما ورد في مقدمة هذا الكتاب، فإن سِيَر المئة والثمانية والخمسين من تاريخ أعلام النساء في القرن السابع الميلادي، هي شهادة كافية لإبراز دور المرأة في حياة المجتمع، حتى في الظروف الصعبة. وفي موضوع الشهادة والاستشهاد إبراز لدور الروحانية في حياة المرأة. فالحياة النسكية التي ليست بسهلة لم تكن حصراً على الرجال لأن في تاريخ السريان عدداً كبيراً من النساء اللواتي فضّلن الاتحاد بالله تعالى عن طريق العزلة على الزواج والاختلاط بالمجتمع.

وحتى عمليات التعذيب التي اتسمت بالعنف، لم تؤثر في تخفيف دور المرأة في الإجهار بالإيمان. فمن الشهادة إلى النسك فالقداسة كلها محطات تؤكد مساواة المرأة بالرجل تجاه الله وتجاه المجتمع. ما هو القاسم المشترك بين الأبعاد الثلاثة التي كونت شخصية المرأة في رسالتها للمجتمع؟ ربما تكون الفضيلة. فإذا ما تحلّت المرأة بالفضيلة فاق ثمنها اللآلئ، على حد قول الكتاب: تنطق حقويها بالقوة وتشد ذراعيها... تبسط كفيها للفقير وتمد يديها إلى المسكين... تفتح فمها بالحكمة. ففي سير الشهيدات والناسكات والقديسات في أزمنة مختلفة وأماكن جغرافية متعددة (لكن...) المرأة، مثل الرجل، تريد أن تتقي الرب لكي تُمدَح (سفر أمثال 31: 30).

أما الملاحق فلها بُعد آخر لأنها تجمع بين الفضيلة والسلطة. فهذه ماوية العرب تباري النساء الذائعات الصيت مثل سميراميس وأرتنيزيا وكليوبترا

وزنوبيا، والذي اختلفت فيه ماوية عنهن أنها لم تحظ كالأخريات بذرية تخلفها. ولكن رغم ذلك فإن مواقفها المعروفة ومآثرها الجريئة كانت يوماً الموضوع الذي تداولته قصائد شعراء عرب الجاهلية. وقد بقيت سيرتها ملحمة تفصّل قوة المرأة وجبروتها وسلطتها المقرونة بالحكمة، وقد تفوقت في ذلك حتى على الرجال. وعندما ننتقل إلى ثيودورا، يقف التاريخ بأسره وقفة دهشة وتعجب، ليس من جمالها الفائق وصفه وطلعتها البهية التي كانت سبباً من أسباب دخولها قصر الأباطرة، وإنما إيمانها بتعاليم الكنيسة ومواقفها من الانشقاق المرير الذي أدّى إلى تفتت جسم الكنيسة. فتجلت شخصية ثيودورا بانغماسها في معركة الانفتاح أو ما يعرف في أيامنا بالمسكونية، وضربت مثلاً في كيفية الجمع بين الإيمان والعطاء في شخصية المرأة التي تتبوأ منصباً بارزاً في السلطة.

فريدة بولص التي نقلت بأمانة هذا الكتاب من الإنكليزية إلى العربية أجادت في انتقاء التعابير التي جسّدت واقع حياة الشهيدات، والناسكات، والقديسات، والملكات، ليس لأنها حازت على إجازة في الأدب الإنكليزي عام (1974 م) أو لأنها تعمل منذ عام (1976 م) في تدريس اللغة الإنكليزية لطلاب المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية، ولكن لأنها اختارت لها طريقاً في الخدمة تميزت فيها عن كثيرات من مثيلاتها. فمنذ عام (1976 م) تبسط كفيها للفقير وتمد يديها إلى المسكين من خلال عملها في الجمعية الخيرية. ثم تدرب نفسها على مطالعة الكتب الروحية والدينية من خلال عملها في مكتبة مطرانية السريان الأرثوذكس بحلب، وخدمتها في مركز التربية الدينية. وتنمي معلوماتها بعلاقاتها مع المجموعات الوافدة من أوروبا لزيارة القطر، ثم تمثيلها الكنيسة في مؤتمرات محلية وإقليمية وعالمية. فلقد شاركت في لقاءات في كل من قبرص، والأردن، وكريت، وجنيف، وتنزانيا، ومثلت المرأة في الجمعية العمومية الثامنة في هراري - زيمبابوي، خاصة في الاحتفال بنهاية عقد التضامن مع المرأة. ولها محاضرات

وأحاديث عن المرأة وشؤونها في أماكن مختلفة. ومنذ عامين تقوم بإلقاء المحاضرات الدورية لعدد كبير من الرجال والنساء في الكتاب المقدس. كل هذه الخبرات في حياة فريدة بولص، مترجمة هذا الكتاب إلى العربية، أهّلتها لكي تعطي نكهة مميزة لكل كلمة في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب. إننا نرى فائدة جزيلة من قراءة هذا الكتاب ليس فقط من القارئات إنما من القرّاء أيضاً.

**المطران مار غريغوريوس يوحنا إبراهيم**
**(متروبوليت حلب للسريان الأرثوذكس)**
حلب في 2000/6/29 م
(عيد الشهيدين مار بطرس ومار بولس)

# مقدمة النسخة الإنكليزية[1]

## (1)

ثمة هدفان أساسيان كانا الحافز على ترجمة سير القديسات، أولهما: جعل تراث الكنائس السريانية في متناول القارئ بيسر، وثانيهما: توفير المصادر الضرورية عن وضع المرأة في هذه الكنائس.

غير أن الاهتمام في هذه السير قد تركز على سير النساء في الكنائس الشرقية، لأن المؤرخين من قبل أكّدوا على الأغلب في بحوثهم، الخلفيات اليونانية واللاتينية لمسيحيي الغرب فحسب دون الالتفات إلى الإسهامات الأخرى. وغالباً ما كانوا يقدّمون كنيسة (التيار الرئيسي) وكأن المسيحية في قرونها الأولى أبدت تجانساً تاماً مع الاتجاه السائد دون أن يكون لكل من التيارات الأخرى ذلك التميز الخاص به. لا شك أن وحدة الإيمان والمعتقد كانت ماثلة في المسيحية الأولى، لكن في إطار بعض الفوارق في الممارسات الدينية والشعورية والتعبيرية على الدوام. ففي القرون الأولى، كما هي الحال في الحاضر، كان انتشار الكنيسة مقترناً بالثقافة الخاضعة لتفاعل ثقافات العالم المسيحي كله وتمازجها.

وكانت الثقافة السريانية إحدى تلك الثقافات الكبرى التي أسهمت في رفد التيار المسيحي الرئيسي، وقد انتشرت على امتداد شرقي البحر الأبيض المتوسط، ومنه إلى الداخل العميق: بلاد الفرس. وكان لهذه الثقافة السريانية تأثيرها العميق على الثقافة الدينية للعالم المسيحي القديم. ونحن لا نتحدث

هنا عن تراث ضاع منذ زمن بعيد، فالكنائس التي تمارس طقوسها بالسريانية هي جزء لا يتجزأ من عالمنا المعاصر، وتراثها تراث حي. ففي الشرق الأوسط وجنوبي الهند، وفي أوربا الآن، ومنها بريطانيا العظمى، وفي أمريكا الشمالية، مازالت الكنائس السريانية ماثلة حقّاً، ومنها: السريانية الأرثوذكسية، والسريانية المارونية، والسريانية الملانكارية (المعروفة في الهند بكنيسة مار توما أحياناً). ونحن اليوم نؤكد أنّ مجتمعنا مجتمع تعددي، فإن التاريخ يدعونا إلى الاعتراف بأن تراثنا وحاضرنا هما وليدا قوى مختلفة ومتعددة.

ما الداعي لتدوين سير القديسات؟ إن تدوين تلك السير أمر تفرضه الضرورة لإقامة لون من التوازن والإنصاف بين الرجل والمرأة بعد اختلاله، ذلك أنه عبر التاريخ المنصرم انصرف اهتمام الطبقة المثقفة المسيطرة إلى التركيز على شريحة خاصة من شرائح المجتمع وهم الرجال، بحكم أنها كانت منهم، فانصرف تدوين السيرة عن الاهتمام بالمرأة، ولاسيما النساء من الطبقات الأقل شأناً كطبقة الفلاحين أو سواها من الأقليات، وغَض مدوّنوها الطرف عن خبرات وإسهامات متميزة للنساء في مروياتهم المسجلة. وقد تنامى الوعي في السنوات الأخيرة حيال ذلك التغاضي، فكتبت دراسات متألقة في تاريخ المرأة، وما زال هناك كثير مما يجدر كشفه، إلا أن السير التي كتبت في الماضي ركزت اهتمامها بشكل رئيسي على المرأة في العالم الإغريقي اللاتيني فحسب. ونحن إذ نترجم هذه المجموعة من السير إنما نرمي منها إلى توسيع آفاق التدوين قليلاً، ونغني القليل النادر من معرفتنا عن النساء اللواتي وردت سيرهن في هذه المجموعة حتى لدى الباحثين، على الرغم من أن بعضهن لهن شخصيات هامة أو ذوات شهرة عظيمة بين قدّيسي مرحلة ما قبل العصور الوسطى. وسواء اتسم بعض تلك السير بسمة أسطورية أم تاريخية فإن إسهام المرأة البارز والمتنوع يتجلى في كلتا الحالتين في الحياة الدينية لمجتمعها خاصة، والعالم المسيحي عامة.

تتضمن مجموعة السير هذه خمسة عشر نصاً مستمداً من تاريخ أعلام النساء في القرن السابع الميلادي، وهي تمثل درجات متنوعة من القيم التاريخية. إن بعض هذه التراجم كسير مريم وأفاميا وسوزان التي دونها يوحنا الأفسسي (5) وسيرة شيرين (مرتيريوس) (8) هي سير مباشرة وذكريات ذاتية كتبها مؤلفوها وضمنوها معلومات سمعوها من تلك النساء أو من معارفهن، أما السير المتعلقة بشهيدات نجران (4) فتعتمد مباشرة على روايات شهود عيان، وكذلك سير الشهيدات الفارسيات (3) وإن لم تكن مباشرة كالأولى، إذ تم تدوينها في زمن لاحق بعيد قليلاً عن زمن الوقائع المسرودة، ويُظهر عرضها نمطاً أسلوبياً تطبيقياً متقدماً. وفي نهاية المطاف التاريخي لدينا سيرة مريم ابنة أخي إبراهيم القيدوني (1) وسيرة بلاجيا[2] التائبة (2) وأناستاسيا (6) وكذلك سيرة فبرونيا (7). وتعكس كل سيرة مرحلة زمنية معينة غير أنها تتجلّى بقالب أسطوري (رومانسي).

إن ذلك التنوع التاريخي لا يقلّل من شان تلك النصوص من حيث أنها وثائق اجتماعية عن العصر الذي ألفت فيه. وعلى صعيد الاعتبارات الشخصية تقدم لنا رؤية قيّمة للسير الذاتية، للشخصيات والعادات ومنهج الحياة، وتعنى بتفكير العصر ونمط الحياة اليومية للشعب وطريقة عمله ورؤيته للأمور. فهذه السير تبرز لنا بالإضافة إلى صور الشخصيات التي تتناولها شيئاً عن العالم الذي عاشت وتنقّلت فيه. إن الذكريات القريبة أو البعيدة للممارسة الاستشهادية في نجران وفارس، لا تقدم لنا صورة عن الأحداث التي جرت فحسب بل أيضاً ردود فعل أولئك الذين عايشوا ذكرى تلك الأحداث وأفكارهم. وإن الفاصل الزمني بين واقعة الاستشهاد وتسجيلها من قبل الآخرين يفرض علينا أن نقرأ تلك السير بحذر آخذين بعين الاعتبار دقة تفاصيلها. غير أن ذلك الفاصل الزمني بين الوقائع وتدوينها يهيئ لنا فرصة معرفة رؤية كتاب هذه السير، وردود فعلهم تجاهها، وكيفية معالجة المجتمع لها بعد وقوعها، ويُلاحَظ أن هؤلاء الكتاب يظهرون أحياناً مواقف

أكثر صلابة مما تمليه واقعة الاستشهاد ضد الطرف الآخر فيصورون المسؤولين المضطهِدين بصورة الأشرار، ومثل تلك التطّورات للمواقف الاجتماعية هامة جداً لأنها تعدّ نوعاً من الأدلة التاريخية عن أسلوب تفهم فئة معينة لتاريخها الخاص.

فسيرتا بلاجيا أو فَبْرُونْيَا (الرومانسيتان) لا يمكن رفضهما كقصتين لا قيمة لهما تاريخياً، إذ ربما نستطيع أولاً أن نتعرف هوية الأشخاص والأحداث الحقيقية وراء مثل تلك القصص، ذلك أن تلك القصص نفسها هي جزء من التاريخ. ولكي يكون لها مغزى بالنسبة إلى المجتمع الذي كتبت من أجله، لابد أن تشاطر افتراضات ذلك المجتمع وقيمه، ولابدّ أن تتسم بالصدق. ومن هذا المنطلق تقدم تلك السير حصاداً غنياً من العمق التاريخي.

إن كلّ نص من نصوص هذه التراجم مزود بمقدمة تتناول ظروفه وتطلعاته الخاصة، وقد حرصنا علي الاقتصاد في الملاحظات والتعليقات مراعاة لجمهور القراء الأوسع، وبدلاً من ذلك أضفنا لها ملاحق تتضمن ثبتاً بالمراجع والمصادر سيجد فيها ضالته من يرغب في دراسة الموضوع والتعمق فيه. أما عن المدخل فثمة بضع ملاحظات عن السريان الشرقيين في العصور القديمة وطبيعة أدبيات القديسين ومشكلات تتعلق بالأدبيات الخاصة بالمرأة، وهي ملاحظات قد تساعد القارئ في تعرف زمان هذه السير ووسطها المكاني بشكل أفضل.

## (2)

تطورت اللغة السريانية وخاصة في ظل المسيحية بعد أن نشأت في منطقة الرها: (أورفة الحديثة، في الجنوب الشرقي من تركيا). كلهجة من اللهجات الآرامية وكلغة لفلسطين في القرن الأول الميلادي. وفي القرنين الأول والثاني للميلاد انتشرت السريانية في شرقي البحر الأبيض المتوسط

لغةً للمسيحيين، ويقصد بالشرق السرياني تلك المناطق التي كانت فيها السريانية لغة أساسية في الكتابة أو المحادثة. وفي أواخر العصر الروماني (وهو العصر الذي تناولته تلك السير) كانت تلك المناطق تعرف بأقاليم ما بين النهرين أو أسرونه،[3] سورية وجيرانها الفرس، وعلى الأخص منطقة ما بين النهرين وأديابين (العراق الحديث).

وكان المشرق السرياني على الدوام منطقة مقسمة من الناحية السياسية. ففي أثناء القرنين الأول والثاني للميلاد امتدت سلطة الإمبراطورية الرومانية نحو الغرب والإمبراطورية الفارسية نحو الشرق (3) لكن المشرق السرياني كان يتمتع بدرجة من الاستقلال الثقافي والوحدة، ربما بسبب تنظيمه في ولايات شبه مستقلة (أو ممالك صغيرة). وسيطر الرومان منذ منتصف القرن الثالث سيطرة تامة على المنطقة حتى الحدود الفارسية خلف نهر الفرات، لكنها أصبحت حقلاً للمعارك لأن الإمبراطوريتين تنافستا لتوسيع مناطق نفوذهما باستمرار. وشهدت فارس في بداية القرن الثالث هزيمة الفرتيين على يد الساسانيين، وأما في الغرب فقد أوشكت الإمبراطورية الرومانية أن تتحول إلى المسيحية في القرن الرابع، وعرفت فيما بعد باسم الإمبراطورية البيزنطية، وتلك التحولات والتغييرات جعلت الشرق السرياني في حالة دائمة من عدم الاستقرار.

وسواء أكان الحكم فارسياً أم رومانياً فإن السريان كانوا يشكلون أقلية (كانت لغة الحاكم تهيمن على لغتهم). وكان السريان الشرقيون أقلية دينية في إمبراطورية الفرس التي يدين أغلب سكانها بالزرادشتية. أما السريان الغربيون فكانوا أقلية من نوع آخر، فهم يشاركون الرومان في المعتقد الديني فحسب وليس في الثقافة، وفي خضم المناقشات اللاهوتية الساخنة حول طبيعة السيد المسيح (التي دارت في القرن الخامس للميلاد). وجد السريان الغربيون أن معتقدهم غريب عن معتقد حكامهم، ولذلك كان صراعهم مع هؤلاء أشد مرارة، وكان المسيحيون داخل الإمبراطورية منقسمين أيضاً.

وتفاقم الانقسام إثر مجمع خلقيدونية المنعقد في عام (451 م) الذي ناقش قانون الإيمان والعلاقة بين الطبيعة البشرية والطبيعة الإلهية للسيد المسيح. ودارت المناقشات حول ماهية تلك العلاقة التي أثرت في الكيان المسيحي وهزته، في فترة زمنية سبقت انعقاده، وبعد سنوات تلت قراراته المتخذة. وتكمن المشكلة في الحفاظ على التكامل التام بين التجسد والصلب والقيامة حيث لا تؤدي تلك العلاقة إلى التقليل أو الإضعاف من قيمة ألوهية السيد المسيح ولا من إنسانيته، وقد بدا التعريف الخلقيدوني غير مقبول لأغلب المسيحيين السريان. وإلى يومنا هذا ما تزال الكنائس السريانية على غير وفاق مع كنائس التقليد الأرثوذكسي الخلقيدوني، رغم الحوار الأرثوذكسي والأرثوذكسي الجاري: (الخلقيدونية واللاخلقيدونية، الأرثوذكس والأرثوذكس المشرقيون) رغم أن هذا الحوار الآن يسجل نجاحاً أكبر منه في أي عصر سابق. وقد دفعت المجادلات والمنازعات الدينية في القرن الخامس للميلاد إلى هجرة بعض السريان إلى بلاد الفرس (وهم الذين أسهموا في ظهور الكنيسة الشرقية). أما في القرن السادس فقد سببت تلك المنازعات اضطهاد الدولة الرومانية المسيحيين الذين يتكلمون السريانية (وهم الذين يشكلون كنيسة السريان الأرثوذكس أو كنيسة اليعاقبة).

وفي القرن ذاته تجددت المعارك بين بيزنطة وفارس في المنطقة، وما أعقبها من معاناة شديدة أنذرت بصعوبات مقبلة. فقد استولى الفرس أولاً ثم العرب من بعد على الشرق السرياني في أوائل القرن السابع للميلاد، ثم استعادت الإمبراطورية البيزنطية جزءاً من غرب المشرق السرياني خلال القرن العاشر، كما احتلّ الصليبيون جزءاً من المنطقة الغربية في أوائل القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر. وفي فترة هذين الاحتلالين تم احتلال الأتراك المسلمين للمنطقة، وكلما تبدلت السيادة تدهور الشعب، ودمّرت أراضيه.

لم يعرف المشرق السرياني فترات من السلام إلا نادراً، فقد عاشت الكنائس الشرقية كأقلية معرضة للخطر. وبسبب الاختلافات الدينية خاصة كان المسلمون يبدون أحياناً لوناً من التساهل الديني أكثر من المسيحيين (البيزنطيين الأرثوذكس أو الصليبيين الكاثوليك) وهو درس واقعي محزن في طبيعة الخلاف الديني، غير أن أمن الكنائس السريانية ما كان له أن يستمر فترة طويلة في أي عصر من العصور، وكما يشهد التاريخ المعاصر بمأساوية عميقة، فقد استمر الشرق السرياني يتلقى الضربات المتكررة من القوات السياسية التي تعاديه.

ولأن هذه المجموعة من السير تهتم خاصة بسير قديسات (واستشهادات مقدّسة) فالنشاطات الدينية للسريان وثيقة الصلة بهذه السير وإن معرفتها ضرورية لفهمها، ذلك أن ثمة خصائص معينة للروحانية السريانية القديمة تؤيد معنوياً تلك السير، وإليها نتوجّه الآن.

نشأت المسيحية أولاً بين الجماعات اليهودية في الشرق السرياني، وكانت مستقلة تماماً عن الكنائس اليونانية واللاتينية الممتدة نحو الغرب، وبروحانية قوية ولدت من التقليد السامي وليس من التقليد الاتباعي لروما أو اليونان. ولاشك أن السريان شاركوا العالم المسيحي إيمانه، ولم يكن الخلاف بين الطوائف خلافاً في الإيمان الديني الراسخ بل في منهجية التفكير التي تتجلى في جوهر الروحانية وطابعها. وقد تطورت تلك المنهجية استجابة للرسالة المسيحية. ومن الجذور السابقة ورث السريان التقليد الكتابي مباشرة من الديانة اليهودية، بمعنى أنه بينما كان فكر الكنائس اليونانية واللاتينية يتفاعل مع اليهودية المسكونية المتأثرة بالفكر والثقافة ولاسيما الفلسفة الهيلنية فإن جذور الروحانية السريانية ترسخت في أرضية كتابية كانت ثمرة الحوار مع اليهودية العبرية أكثر منها ثمرة تفاعل مع الوثنية الخارجية.

وكما هي الحال في أماكن أخرى في بداية انتشار المسيحية فقد ازدهرت أنماط متباينة من المسيحيين في المشرق السرياني وأصبحت المنطقة مثيرة للقلق بمفكريها الذين شجعوا جماعة البدع الغنوصية، كالمرقيايين(4) بشكل خاص، والفالنتيين(5) والمساليين(6) التلفيقيين والمانيين.(7) وتركت تلك البدع بصماتها العميقة على السريان، غير أن أبرز إسهام لتلك الجماعات وما صدر عنها هو المفهوم النسكي للإيمان. وقد ذهبت الجماعات المتطرفة إلى أن العالم عالمٌ مثنوي: العالم المادي الزائل، وهو أقل شأناً من العالم الروحاني، إن لم يكن السبيل الأساسي للشر، أما العالم الروحاني فهو الطريق الحقيقي الوحيد والصالح للقداسة.

ولكن مفهوم الحياة النسكية، لدى مسيحيي الشرق السرياني كان أساسياً منذ نشأته الأولى، حتى في نطاق الكنيسة السريانية التي ظهرت ككنيسة أرثوذكسية تنهج نهج المسيحيين عامة. فقد دعت الروحانية السريانية إلى نكران الذات وقهر اللذائذ، وقبل ذلك كله إلى التبتل ليس فقط للمفرزين لخدمة الدين فقط بل للمؤمنين فيها كافة، وهكذا تم الاحتفاظ بسري المعمودية وسر الأفخارستيا للمتبتّلين فقط في القرن الثالث (وربما الرابع أيضاً). إن حياة النسك أو مقاومة شهوات النفس تلك (ممارسة الزواج الروحي) مثلت الالتزام المسيحي الأساسي، واتّخِذت نماذجها التي تدعم هذه النظرة من الكتاب المقدس، كالأنبياء وخاصة أليشع وإيليا في العهد القديم، ويوحنا المعمدان، والسيد المسيح نفسه وتلاميذه بعد اختيارهم، وبولس الرسول أخيراً. كل هؤلاء: (المنذورون من الله) عاشوا حياة النسك ونكران اللذائذ ليتابعوا العمل في حقل الربّ بتفرّغ كلي وعقل غير مشتت. كانوا يعيشون في الأرياف، ويقدّمون خدماتهم للعامة بالتنقل والسفر دون أدنى اهتمام بالملبس والمأوى، وقد هجروا أسرهم وبيوتهم التي توفّر لهم الراحة والأمان نسبياً إلى حياة الشهادة لله. ومع أن العهد القديم قد أشعر أن التخلي عن اللذات وهجر الدنيا هما للمنذورين للرب فحسب

فإن العهد الجديد طالب بصراحة كل المؤمنين بتقليد السيد المسيح: «بع كلّ ما لك ووزع على الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني» (لوقا 18: 22) «إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني» (لوقا 9: 23). هذه الأقوال، وأقوال أخرى تماثلها ذكرها السيد المسيح، لم تترك خياراً معتدلاً للذين أرادوا أن يكونوا تلاميذ.

شاركت الروحانية السريانية الروحانية المسيحية في قرونها الأولى بتطبيق الرموز تطبيقاً حرفياً، فلم يكن ثمة فصل بين الرمز الروحي والنشاط المادي في عالم السلوك الديني، لكن الشرق السرياني مارس هذه النزعة أكثر مما مارسته الكنائس اللاتينية اليونانية الأخرى. فإذا كانت حياة نكران الذات هي المطلوبة وفق النماذج والوصايا الكتابية فلابد أن تكون هي الحياة التي يجب أن يسلكها كل المؤمنين، ولكن قد تظهر الفكرة بصورة أوضح بالتمثيل، فقد قُدِّم السيد المسيح بصورة العريس السماوي الذي تزفُّ إليه الكنيسة: (جماعة المؤمنين). فالعلاقة التي أثارها ذلك التمثيل هي نوع من أنواع التكريس المفترض والمطلق. فالعريس السماوي هو اللقب المفضل للسيد المسيح في الشرق السرياني، والتمثيل هنا أبعد من أن يكون صورة بيانية. وبموجب تلك العلاقة بين السيد المسيح والمؤمن فإن الزواج الأرضي ليس له بكل بساطة أي مكان في حياة المؤمن. وبالتالي فإن التبتل هو الفعل المحصّل من الآية، ليس بسبب أن الجسد شرّ أو أقل شأناً من الروح فحسب، بل لأن المؤمن مكرّس تماماً للسيد المسيح، ومنذور (مخطوب) له. فالصورة الدينية والفعل الجسدي لا ينفصلان بل يشهدان لتطبيق حرفية الرمز.

وقد أدى ذلك التطبيق الحرفي لذلك الرمز بصورة مفرطة إلى سلوك لافت للنظر في حياة المؤمن السرياني، فالمسيح هو آدم الثاني، وعمله الفدائي جعل الخلاص ممكناً للجنس البشري، وحقق وعد العودة إلى الفردوس، وحياة النقاء التي عاشها آدم وحواء قبل سقوطهما، وفي انتظار تلك العودة، ولتعجيل مجيئها، تبنى بعض المؤمنين بصورة مذهلة حياة

الابتعاد عن النزعة المادية بالتشرد في البراري، والعيش على النباتات البرية والماء، أو مشاركة الحيوانات البرية حياتها، وتعريض الجسد للعوامل الجوية أو التفرغ للصلاة دون انقطاع، وتكريس النفس للإله القدوس، كما فعل آدم وحواء. كانت أجسادهم هياكل للبعد الروحي لإيمانهم.

ولن يجد المرء في أي مكان آخر من العالم المسيحي أعمق من ذلك الحسّ، حيث يساير السلوك المعتقد الديني تماماً، وتُظهر حياة المؤمن جوهر إيمانه، ولذا كتب الأسقف والناسك الفارسي (أفراهاط) في بداية القرن الرابع للميلاد مقالة عن الإيمان ذكر فيها الممارسات والصفات الضرورية للحياة المسيحية: الصوم الحقيقي، الصلاة الخالصة، المحبة، الصدقة، الوداعة، البتولية، القداسة، الحكمة، كرم النفس، البساطة، الصبر، طول الأناة، الحزن، وأخيراً: النقاء. يتحدث أفراهاط عن دعوة المؤمنين كافة لتبني هذا الأسلوب في الحياة، إلا أن ذلك التبني كان محصوراً في أديرة الغرب المسيحي ثم اتّبعه فيما بعد نسّاك السريان. وحاول المؤمنون بموجبه أن ينهجوا نهج حياة السيد المسيح على الأرض وفق ما أورده أفراهاط من بنوده مكرّسين حيواتهم لله، واهبين إياه أجسادهم وعقولهم وقلوبهم خالصة، وبالضرورة فإن تلك الدعوة للتقشف ونكران الذات وتجنب اللذائذ ليست إلا حياة النسك بالذات.

وفي غضون القرن الرابع حققت المسيحية انتصارات عديدة أولها: الاعتراف رسمياً بها ديناً في الإمبراطورية الرومانية بموجب مرسوم عام (313 م) وثانيها: تثبيت قانون الإيمان بصيغته التي أقرها المجمع المسكوني الأول في نيقية في عام (325 م) وأخيراً تبنّي الإمبراطورية الرومانية المسيحية ديناً رسمياً لها بموجب إعلان قيصري (392 م) تلاه إعلان حظر الوثنية والهرطقة (395 م) وقد رافقت هذه الإجراءات حركة عظيمة لجعل المناطق المسيحية المختلفة منسجمة مع الكنيسة الأرثوذكسية السائدة: (الغالبية اليونانية) وفق قرارات المجمع النيقاوي. وفي الشرق السرياني كان التغيير يتم

بيطء، لكنه عميق التأثير، ومن مظاهره الهامة جداً والرامية إلى ذلك الانسجام في البنية النظر إلى النسك على أنه دعوة مستقلة داخل الكنيسة، لا صلة لها بحياة العلمانيين.

وبينما كانت تبذل تلك الجهود للحّد من فكرة النسك والزهد في حياة العلمانيين طرأ تبدل مستمر على الحياة النسكية ضمن النظام السرياني التقليدي، وتعكس هذه المجموعة من سير القديسات ذلك النظام المتميز ذاته، فقد استمر العلمانيون يمارسون حياة العفة والبساطة والصلاة دون النذر الرسمي كما يتجلى ذلك لنا من قراءة سير ماري (الحاجة) أو (مريم الرحالة) وشيرين. (8) وفوق ذلك فإن الفصل في الحياة النسكية بين العلمانيين والرهبان، ونمو المؤسسة الرهبانية وَسَم الحياة النسكية ببعض ملامح السريان المتميزة من النواحي الآتية:

1) كان الإيمان بأن حياة التنسك هي جزء متمم لعبادة المؤمن، فالناسك لا يمارس حياة العزلة الكاملة عن الناس، بل كان وثيق الصلة بالمؤمنين، ينصح ويشجع ويشفي، ويُخرج الشياطين، ويرشد المؤمنين، وتصف سِيَر مريم وأفاميا وسوزان وفبرونيا (7) مثل تلك الممارسات.

2) استمر الإعجاب بمحبيّ حياة التنسك، ويظهر ذلك جلياً في هذه السير، خاصة سيرتي مريم ابنة أخي إبراهيم (1) وبلاجيا التائبة. (2) كما كان النساك يقيمون في البراري بحثاً عن حياة مثالية، واتخذوا الرمزية طريقاً لعيشهم، كما يتضح من الممارسات المعروفة للحركة النسكية السريانية، كارتداء السلاسل الحديدية، والعيش في الأقفاص، أو فوق الأشجار والأعمدة السامقة، كما تثبت سير العموديين المعروفين.

والعموديون خير مثال لمفهوم التقليد السرياني من الترهب أو النسك.

فسمعان العمودي (389 ـ 459 م) وقف منتصباً أربعين عاماً على عموده الضيق المرتفع ستين قدماً، وكلّ من زاره، فلاحاً كان أم مطراناً، كان يلتمس منه التعليم أو الرأي أو الشفاء في أمور خاصة مدنية أو كنسية، وخلال ساعات طويلة كانوا يشاهدونه منتصباً بلا حراك، يصلي وذراعاه مشرعتان، ضارعاً إلى الله وهو بين الأرض والسماء، ورأى أولئك أيضاً فيه صليب المخلص الحيّ، وصورة السيد المسيح الحي. وبهذا حقق سمعان العمودي الدعوة للامتثال بالسيد المخلص بأسلوب رمزي، وكرّس نفسه كلياً، جسداً وروحاً لله.

ونلحظ أحياناً أن علماء العصر لا يشعرون بالارتياح إزاء طبيعة النسك لدى السريان في القرون الأولى، وإزاء ذلك الانتشار المدهش للتنسك السرياني، الذي قد يبدو اليوم غريباً عن مفاهيم مجتمعنا الحالي فيما يتعلق بالحياة الدينية ومضمونها، لكن ما يجب أن نتذكره هو تلك الروحانية السريانية المفعمة بالرمزية، والتي تسعى لتطبيق الصورة الكتابية، وكان التعبير الأدبي عن تلك الروحانية يكمّل مظاهر السلوك النسكي السرياني، فالأدب السرياني، ولا سيما الشعر هو مرآة للتنسك السرياني. ولاشك أن رقة ذلك الشعر السرياني في أواخر العصور القديمة قد خلّفت أثراً بالغاً في الترتيل الكنسي الأرثوذكسي، وأروعها ما قدمه القديس أفرام السرياني والقديس يعقوب السروجي. والشعر السرياني الشرقي هو مزيج من البراعة الدقيقة والتمحيص والاحتفاء بالرموز التي لابدّ من التسليم بروعتها. وفي هذا الجانب وحده من تنسيق الرموز والصور الكتابية نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام قلب المسيحية السريانية. فالكتّاب السريان لم يبرزوا بسبب دقة مناقشاتهم الفلسفية بل بفضل رهافة شاعريتهم الغنائية. وأهم من ذلك كله فإن الشعر والنسك السريانيين لهما مصدر واحد هو تمثل الرمزية الدينية وشمولها.

كان أعظم إسهام قدمه السريان الشرقيون للعالم المسيحي في العصور القديمة تراتيلهم الجميلة وشفافيتهم المثيرة لممارسة الحياة النسكية. إن

الكونتاكيون البيزنطي مدين لتراتيل مار أفرام. وكذلك عززت الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة سمعان العمودي نهجه في التنسك (فقد عاش آخر عمودي بعده في منتصف القرن التاسع عشر). بالشعر والتنسك عبّر أولئك المتعبدون عن الروحانية السريانية، فجعلوها نهجاً داخلياً وخارجياً. تلك الروحانية الرمزية التي طبقوها حرفياً في حياتهم وفهموها رمزياً.

ولا يجحد بالطبع أن السيطرة السياسية والثقافية للعالم اللاتيني تركت بصماتها من دون شك. فخلال المجمع النيقاوي، والفترة التي تلته، كان التوجه فيهما نحو الانسجام اللاهوتي والوحدة الكنسية وقد نشبت خلافات مسيحانية (كريستولوجية) في القرن الخامس، وأدت إلى انعقاد المجمع الخلقيدوني في عام (451 م) وقاوم المسيحيون بمرارة هذه المناقشات في المجمع، ووقع الانشقاق في آخر المطاف، وتبدل وضع إمبراطورية بيزنطة، ففي غمرة قمع تلك المناقشات بدأ النفوذ الهيلنستي يضغط على الشرق السرياني، ويؤثر فيه تأثيراً حقيقياً، وأظهر الكتاب السريان في أواخر القرن الخامس والسادس للميلاد رغبة في التوفيق بين المعتقدات بوضوح ولكن ذلك المسعى لم يدم طويلاً، وبالرغم من أن الأدب السرياني استمر ينجب كتاباً عظماء في العصور الوسطى، غير أن الصراع السياسي والديني حدّا من خصوصيته وأضعفا قوته، فلما أشرف القرن السابع للميلاد بدا أن (العصر الذهبي السرياني) قد وصل إلى نهايته.

## (3)

كانت سير القديسين والقديسات في أواخر العصور القديمة، بالنسبة إلى المسيحية، تتجاوز غالباً اختلاف اللغات، وتباين الثقافات والأزمان، فإن سيرتي مريم ابنة أخي إبراهيم (1) وبلاجيا التائبة (2) وسير القديسين السريان أو الأساطير التي لها أصول سريانية منتشرة في كل لغات العالم المسيحي في القرون الوسطى، وكثير منها يتمتع بمكانة في التقويم

(الليتورجي) الروماني والأرثوذكسي. لكن يجدر التساؤل عن الرابط المشترك الذي يؤلف بين سير تلك القديسات وسير القديسين الشهداء بشكل عام؟ وما الاهتمامات البارزة التي تؤلف بين تلك الأنماط المختلفة لسير القديسات التي تضمنتها مجموعتنا، والتي تشمل، بالإضافة إلى السير، وصف آلام الشهيدات الرومانسية الدينية والذكريات الشخصية؟

للإجابة عن ذلك نشير إلى أن أدب القديسين هو لون من التواصل (مهما كان وجيزاً) بين ما هو إلهي وإنساني، فكاتب السيرة يحاول أن يبرز القداسة في الحياة البشرية، ويستغل سير القديسين لهذا الغرض، والكاتب لا يرى في القديس ملاكاً أو شيطاناً، بل كائناً بشرياً يُظهر من خلال أعماله عمل الخالق في الحياة البشرية. فمن خلال القديس يعمل الله ويشارك، وهو ماثل في العالم، العالم الذي نعيش فيه. ومع أن سير القديسين تقدم انطباعاً بأن القديس ولد في حالة من الكمال، أو ولد ثم كتب له الكمال (كما في سيرة فبرونيا) إلا أن عدداً من السير تحدثنا عن أشخاص بلغوا الكمال بعد أن كانوا على نقيضه في بداية أمرهم، كانت بلاجيا على سبيل المثال غانية تحوّلت إلى تائبة، ومريم ابنة أخي إبراهيم ارتقت إلى حياة الزهد والتنسك من ظروف مهينة جداً. وتظهر لنا السيرة أن الإنسان مهما وصل إلى أبعد ما يمكن من الضعف الإنساني بمقدوره أن يتبدل ويتطهّر لينال القداسة، لأن عظمة نقاء القديس تكمن في هذه المقاومة بالذات، وأن كل من هو بشري يمكن أن يغدو قدوساً، فسير القديسين تعيد الوعد بالتجسد، وتؤكد أن البشرية تستطيع أن تكون أهلاً للألوهية، وتستطيع الألوهية، بل استطاعت، وما زالت تواجهنا من الداخل.

قلّما تكون سير القديسين والقديسات سيراً حياتية، فمهمة كاتب السيرة توحيد كل ما هو إلهي وإنساني في ممارسات القديس، أو إظهار الحقيقة الداخلية لتلك الممارسات للناس، وكاتب السيرة يعنى بتوضيح ما حدث وتحليله، إذ إن الوقائع المادية تكشف على الدوام عن مغزاها الحقيقي، وتلك

الوقائع تأتي في المرتبة الثانية في إطار دلالتها الشاملة، وقد أدرك كتاب السير أهدافهم منها جيداً، لذلك دونوا الفكرة التي تمنّوا أن تكون مفهومة للناس بدلاً من السرد التاريخي المباشر، كما أنهم كتبوا لتثقيف المؤمنين وسواهم وتحذيرهم.

غير أن سير القديسين والقديسات تحوي قيمة تاريخية مقبولة، لأنها، ببساطة موضوعها، تظل سيرة بشرية، وإن كان القصد من ورائها ما خلفته من أثر، فلنكن واثقين بأنه يعسر على المؤرخ أن يوفر للسيرة مستلزماتها وبعدها المحسوس إن لم يحرص على ضبطها، فالجانب الملموس في تعرّف القداسة هو كون القديس قادراً على تأدية أعمال خارقة يعجز الآخرون عن القيام بها أو بمثلها، فالقديس بمقدوره أن يشفي المرضى، ويعلّم الحكمة التي تُغني الحياة المتغيرة، ويُميل القلوب المتحجرة، كأن يجعل الإمبراطور يغيّر رأيه، وتلك الأعمال تنال تقدير الناس الذين لا سند لهم.

والنماذج لدى كاتب السيرة هي نماذج الإنجيل لأن الدعوة الأساسية للمسيحية تقوم على الاقتداء بالسيد المسيح. وكان الفكر السائد أن حياة المؤمن وموته لهما دلالتهما مقارنة بمثال الإنجيل. فسير القديسين في مختلف الظروف تماثل حياة السيد المسيح وموته، والوضع التاريخي المفروض يحدد أهمية السيرة. ففي أيام السلم كانت حياة القديس صورة عن عمل السيد المسيح على الأرض، حيث يعدّ النسك وسيلة لتلك المحاكاة. وفي أيام الاضطهاد يغدو استشهاد القديس هو الأمر الهام وتتركز آلامه حول حدث الشهادة وما نجم عنها. قد لا نعرف شيئاً عن حياة الشهيد قبل آلامه واستشهاده، ولكن في كلتا الحالين، فإن أعمال القديس التي وقعت فعلاً هي الحاسمة والخطيرة (والمقدسة في نظر كاتب السيرة). وهكذا فإن مادة القداسة أصبحت ملموسة حتى لو بدت غامضة.

وتوضح سيرة أفاميا (5 أ) بقلم يوحنا الأفسسي كيف أن كاتب السيرة

يستطيع أن يضيف إلى جوهر حياة صاحب السيرة حياة السيد المسيح. فأفاميا كانت سيدة معروفة لدى الأفسسيين، ولا نعرف مصادر أخرى عن سيرتها. والأفسسي يقدمها لنا على أنها قديسة لم تطوِّبها الكنيسة رسمياً، ولكن قناعته في قداستها لا تتزعزع، ويروي لنا دون زخارف أسطورية أو مبالغة في الإعجاب بها عن نذرها السري للعفة والفقر والزهد، وجهدها الدائب دون كلل أو ملل في خدمة الفقراء والجياع والمرضى والمشردين بديار بكر. كذلك عملها الخطر لخدمة اللاجئين المضطهدين دينياً، وتصميمها الجريء على القيام بأعمال ترى فيها عناية الخالق حتى أمام رفض الجماهير وانتقادها. وبعد ثلاثين عاماً من الجهد المضني ماتت أفاميا مستنزفة، موتاً يستحق إكليل الشهادة كما يخبرنا الأفسسي. وبفضل أسلوب وصف يوحنا الأفسسي نرى في حياة أفاميا تقليداً مثالياً لحياة السيد المسيح ومعاناته. لكن يوحنا لم يفرض ذلك التفسير على السيرة التي يرويها بقدر ما يستغل مثال السيد المسيح لنفهم فكر أفاميا وعملها. وفوق ذلك فإنه باستغلاله مثال السيد المسيح يهب أعماله قوة ودلالة خاصة. لقد كان عمل تلك المرأة من عمل الله.

ولكن، ولأن مسعى السيد المسيح يتجلى في خلاصه، فإن كاتب السيرة يمثل حياة الشهيدة بحياة المخلّص ليوفر رؤية واضحة عن كيفية توظيف مثال السيد المسيح لفهم معنى القداسة. إن أكثر من نصف سير هذه المجموعة تتناول الشهيدات، وهي تجمع بين الصور الموثقة الباعثة على الألم الشديد، والصور الأدبية متقنة الصنع كما في الروايات. ولدينا هنا ذكرى المسيحيين الذين قتلوا تعذيباً بيد الوثنيين الرومان (فبرونيا (7)) أو بيد الزرادشتيين (شهيدات فارسيات (3)) وأخيراً بيد اليهود (شهيدات نجران (4)).

ويقرّ المؤرخون نقطتين أساسيتين هما: أولاً: أن الأدب المسيحي رسم ممارسة الشهادة والاضطهاد بصورة مبالغ فيها أكثر مما كان في واقع الأمر. وليس ذلك بالأمر المدهش، لأن في ذلك استجابة للنزعة الرومانسية للدعوة

الدينية. غير أنه أمر لا يُنقِص من قيمة الشهادة على أي حال. ثانياً): أن المسيحيين لم يُقتلوا لأنهم شكلوا تهديداً صريحاً أو خطراً على مضطهديهم، بل على خلاف التصور الأدبي، لأن بعض فعاليات الحياة المسيحية برهنت أنها تتعارض بشدة مع الأخلاقيات الأساسية لمجتمعات مضطهديهم. فقد وُجهت إلى المسيحيين تهمة عدم التقوى والإلحاد: (رفض الاعتراف بآلهة سوى إلههم).

وهاتان النقطتان ترشدان إلى الموضوعات الرئيسة التي تميز الصورة الأدبية لآلام الشهيدات والشهداء. فهناك، وراء نصوص هذه السير، نص معتمد، يمكن تتبعه لمعرفة وجهة نظر الكاتب، وهو يقوم على النقاط التالية:

1) تستند التهمة الموجهة إلى المسيحي إلى فعل، إما لأنه رفض تقديم الذبائح لآلهة كل من الإمبراطوريتين (الفارسية والرومانية) كموقف مرتا الشهيدة الفارسية التي صرحت بحماسة أنها ستصلي لمصلحة الإمبراطورية وليس لإله الإمبراطور. أو لرفض الزواج لأن التبتل المسيحي كان له دويّ مؤثر على المجتمع، إذ هزّ ذلك التبتل بالفعل كيان الأسرة التي تشكل أهم مظاهر النظام الاقتصادي، وقد رفضت الشهيدات الزواج بكلمات مآلها الموت المحتم وغالباً ما كانت المضطهدات يبحثن عن وسيلة بديلة للموت بقبول الزواج: (بالنسبة إلى شهيدات فارس) أو: الهرب (كما هي حال فبرونيا) لكن دون جدوى.

إن التشابه بين الوقائع التاريخية والأحداث الأسطورية يثير موضوعات بالغة العمق، فمن الواضح من نصوص المرويات النجرانية ومن الخلفية المستمدة من صراع فَبْرُونْيَا أن المسيحيين استطاعوا أن يعيشوا في انسجام متناغم مع جيرانهم غير المسيحيين في الأغلب، غير أن روايات التعذيب جسدّت حالة من الصراع المطلق بين المسيحيين وسواهم (حيث بدا التعايش مستحيلاً). ومن أخبار شهيدات فارس كما وردت تلميح برمزية أسلوب

حياة المسيحيين الباعث على الألم الشديد، وتعزز تلك الأخبار عن الشهيدات القيم التي يتبنّاها نمط حياة النسك المسيحي، فالمسيحي يحيا وكأنه ميّت روحياً بالنسبة إلى العالم، يزهد بالمتع الدنيوية ولا يرغب في المشاركة بالتنظيمات التي تخلد المجتمع: كالأسرة (الزواج) أو الدولة (تقديم الذبائح لآلهة الحاكم) وقد أكدت الشهيدات عواقب ذلك الأسلوب من الحياة بالموت جسدياً ليس بتصفية الجسد، لكن بالتشدد في نمط من الحياة قد تكون نتائجه مميتة لا للفرد فحسب بل، للمجتمع أيضاً.

2) والتعذيب في سيرنا هذه يأتي عادةً بعد الاستجواب الذي يتسم بالعنف، ذلك العنف الذي ما زال يصعق أحاسيس القارئ لكنه محتوم بالنسبة إلى سير الشهيدات والشهداء.

وقد رأى فيه المؤرخون فيما روي من أخباره لوناً من المبالغة الأدبية، في حين أن خبراتنا المعاصرة من التعذيب إلى أقصى الحدود، الذي يمكن أن يعانيه أو يعاقب به إنسان القرن العشرين، علمتنا أن المبالغة في هذه السير قد لا تكون على الدوام بحجم ما نفترضه عنها، ففي سير الشهيدات يكمن الحافز الديني وراء ذلك الوصف الأدبي للعنف، فتصوير كاتب السيرة نمط استجواب الشهيدة وتعذيبها وموتها يمثل الوقائع المحسوسة مثلما يشمل معاني أكبر مما تدل عليه الواقعة الملموسة، فالمعركة بين الخير والشر تظل ماثلة، وعلى الصعيد الأدبي، ينقل العنف كل المشاركين فيه إلى ما هو خارج الطبيعة البشرية، فمن وجهة نظر تلك السير أن الإنسان لا يمكن أن يحتمل مثل تلك العذابات إلا إذا كان ممتلئاً بقوة إلهية، والشهيد يتجاوز الضعف البشري لأنه ممتلئ بها، ويتجلى ذلك واضحاً بصبره وشدة احتماله، أما المضطهِدون فقد هبطوا إلى دركٍ أدنى من الخطيئة الأصلية.

3) وخشية أن يشكك القارئ في أهمية تلك المعركة وكيفية حدوثها بين الخير والشر يرافق قتل الشهيدة في تلك السير وقوع معجزات ذاتية،

فالشائع حول آلام الشهيدات أن الشهيدة لا تموت إلا إذا قطع رأسها، وتعجز الوحوش والنيران عن وضع حد لحياتها، ولما كنا نعرف أن الشهداء المسيحيين تمت تصفيتهم بتلك الأساليب فإن هدف الكاتب من تبديل أسلوب القتل هو ما يلفت انتباهنا، وكما يبدو لدى كتاب هذه السير، فإن الاستشهاد يجب أن يتم بأيدٍ بشرية لتقع عليها المسؤولية كاملة، فالطبيعة، ذلك النظام الذي رتبه الخالق، ترفض المشاركة في القتل، لكن متى ثم تنفيذ القتل تكون ردود فعل الطبيعة مخالفة لقوانينها الخاصة، فمن دم شهيدات كرخ د ـ بيث سلوخ تنبت شجرة تين ذات قوة شفاء عجائبية، وتحلّق غيمة رهيبة من الزنابير تحمي جثة أناهيد المتروكة في العراء دون حرمة، وكما حدث ساعة موت السيد المسيح إذ أظلمت الشمس وشق الزلزال حجاب الهيكل(8) فإن جريمة قتل الشهداء هي انتهاك لنظام الكون، إن مؤرخ سير القديسين يهدف بوضوح وبصورة قاطعة إلى تصوير الصراع بين الخير والشر، وهي قضية البشر الخاصة.

وحين نرى الشهيدة تنهج نهج السيد المسيح يتضح لنا ما هدفت إليه هذه السير، فقد جاء الخلاص للبشرية من آلام الإله المتجسد وموته وقيامته، وبموت الشهيدات بالتعذيب والتنكيل تتحقق المحاكاة المثالية لموت المخلص، ويهدف كاتب السيرة أن يبين للقارئ كيف أن الشهيدات أصبحن طريقاً للخلاص يعملن من خلال نعمة اللّه بتقديم أنفسهن بنقاوة قلب مثالية. أما عن العناصر غير المتناسبة في هذه السير، كتصوير العنف الشديد المتطرف، سواء من المضطهِد أم المضطهَد، فإننا نذكّر القارئ بأن الحدث التاريخي لا يحكم عليه ببساطة كما توحي ظواهره، ذلك أن قتل إنسان بيد آخر قد يكون له أهمية خَلاصية أعظم مما قُصِدَ من تدوينه أو عُرِف من المعنيّين به.

غير أن تمجيد الشهادة ما زال يثير إشكالاً، ذلك أن مقدار عظمة الإنسان حتى لو كانت قابلة للتحقق بقوة التحمل التي منحها اللّه إنما يعتمد على جسامة الظلم البشري الذي يمارسه الآخر، فالمبدأ الأساسي لهذه السير

يجسد مفهوماً بسيطاً تذكرنا به واقعة شهيدات نجران، ألا وهو ذلك الدور المتبادل بين الظالم والمظلوم، إذ ترى يهوداً يذبحون المسيحيين، ثم تنقلب الآية فيتبادل الظالم والمظلوم دوريهما عبر التاريخ.

إن الخلاص الذي كان ثمرة عمل السيد المسيح جاء عن طريق الفداء، افتداء البشرية من حالة سقوطها، فالمعركة بالنسبة إلى مؤرخي هذه السير هي معركة بين الخير والشر، وفي آخر المطاف، يجب أن تقع داخل الإنسان نفسه، وسير القديسين والشهداء تشير إلى هذه الحقيقة، ففي نصوصها نجد داخل كل فرد قوى للخير أو الشر متصارعة وقدرة على الثبات البطولي في مواجهة الشر الهائل، إن المظاهر الخارجية للصراع هي تعبير عن معركة تدور في قلب كل إنسان منا.

وتدعونا تلك السير إلى قراءة نصوصها ليكون لنا دور في المشاركة، فلا نستطيع بعد قراءتها التخلص من شعور الانحياز للشر أو الدعوة للقداسة، حين ترفض أفاميا قبول حسنة من الآخرين لدعم عملها بين أفواج المرضى والمعوزين تصرخ بعنف أنها لن تحمل أوزار الآخرين لأن آثامها تكفيها سواداً. ربّما يهتز القارئ أمام ذلك الرفض العنيف النابع من أعماق قوتها الهائلة غير أن رفضها جاء مخالفاً لرضى الذات: فالجميع سيقدمون في النهاية كشفاً عن حيواتهم. ويخفف كاتب السيرة من فظاظة أفاميا فيعلمنا أن الجميع يستطيعون تحمل تلك المسؤولية كما فعل الشهداء، إن كانوا مستعدين لاقتبال نعمة اللّه.

إن الرابط الذي يجمع بين سير هذه المجموعة بوضعها الماثل هو حقيقة أن السير المقدسة والاستشهاد المقدس وجهان لموضوع واحد، وأن ما فيها من وقائع لا تبرهن على أن النسك قد يكون بديلاً للاستشهاد أو عكس ذلك، على النقيض، يشكل الاستشهاد والنسك الواقعة ذاتها: واقعة لقاء الإنسان بالإله.

## (4)

وأخيراً، ثمة موضوع واحد ينظم نصوص هذه السير وهو المرأة، فقد كتبت تلك النصوص بأقلام رجال ما عدا قصة فبرونيا، فعلى القارئ أن يكون حذراً ليلاحظ عين المؤلف وهي تصف القديسة المرأة وتجاربها، ففي مرويات تلك السير الأكثر أسطورية يقدم الكاتب للقارئ أكثر من: (قصة جيدة) يُقَدّم له التيارات الخفية القوية لما يريد المجتمع أو الكنيسة أن يقولاه عن المرأة، أو ما يفضّلان أن تكون عليه، أما في المرويات الأكثر تاريخية فنقع أحياناً على تباين بين ما يرويه الكاتب عن المرأة، وما يخبرنا به من الأعمال الفعلية التي تقوم بها، هكذا ينعت يوحنا الأفسسي سوزان المرأة التقية بالمرأة «الضعيفة الواهنة سهلة الانقياد» لكنه في الوقت ذاته يخبرنا عن عملها المذهل، الذي يجمع بين عمل الجسد والجهد الفعلي والجَلَد الذي يتحدى قوة أي إنسان، ذكراً كان أم أنثى.

لا شك أن صوت المرأة كان معدوماً بصورة شاملة في تاريخ الأدب حتى وقت قريب نسبياً، الأمر الذي يجعل سيرة فبرونيا التي كتبتها امرأة أكثر إثارة، إذ يدَّعي كاتبها أنها تومايس الراهبة أخت فبرونيا الروحية، والتي أصبحت رئيسة الدير بعد مقتل القديسة. فمن سمات سير القديسين أن يدّعي كتابها أنهم رافقوا القديس في مرحلة من حياته، سواء أقابلوه أم لم يقابلوه، أو عاشوا في عصره أم في غير عصره، أو حتى إن كانوا أشخاصاً لهم وجود تاريخي أم لم يكونوا، وعلى هذا يمكن أن يكون ادعاء كاتبة سيرة فَبْرُونْيَا مصاحبتها القديسة محض تقليد أدبي، غير أن طبيعة سيرة فَبْرُونْيَا تفرض أن تكون كاتبتها امرأة، إذا لا يمكن لأي رجل أن يوظف بشكل معقول كشاهد للأحداث التي سردت، وثمة ملامح أخرى للسيرة تفرض احتمال أن تكون بقلم امرأة: وصف حياة الدير وعمله الجسدي الشاق وتربيته الرفيعة، وتصوير طبيعة الصداقة بين النساء وما فيها من جدّ

ومودة، وتأمّل وفضول فكري، ووصف روابط الصداقة بين الراهبات والعلمانيات، والمتزوجات وغير المتزوجات، والاعتراف المتبادل بمشقات عيشهن، كل تلك الملامح تبدو غير مألوفة في كتابة سير النساء، إن نص تلك السيرة يبرز مدى الالتزام بالكرامة والمحبة المتبادلة بين نساء السيرة كلّهن.

ويمكن العودة إلى سيرتي مريم بنت أخي إبراهيم وبلاجيا التائبة كسيرتين أسطوريتين تبرزان صورة المرأة الأكثر توافقاً مع الكتابات المسيحية القديمة. وفيهما صُوّرت المرأة وكأنها ذات طبيعة ضعيفة، وشهوانية، ذات رغبات جنسية غامضة، تتخلص من وقوعها في دنس الخطيئة بنعمة حياة ورع وتقوى، وتنزل بنفسها أقسى العقوبات تعبيراً عن توبتها. فمريم التي ظلت مع مَن آلت حياته الآثمة إلى درك مهين جداً، انتهت بعد توبتها إلى حد اعتبرت فيه أن حياة الكفارة مناسبة جداً للنساء في الأدب الآبائي الكنسي. تمارس العيش في انعزال صامت، منفصلة عن العالم حولها، تبكي ندماً بلا توقف إلى يوم وفاتها. أما بلاجيا فإن سيرتها تمثل جانب الفساد، فعندما تخلت كزانية متكبرة عن حياة الخطيئة تركت وراءها، ليس معاصيها السابقة فحسب، بل أنوثتها أيضاً. عاشت بلاجيا حياتها كما يعيش الراهب المتبتل حياته في تعذيب نفسه، كناسك على جبل الزيتون، ولم تُكْتَشف هويتها إلا عند وفاتها، وتنتهي السيرة فيصاب قارئها بالذهول والدهشة أمام فكرة أن النساء بمقدورهن كالرجال أن يعشن نقيّات كأتقياء اللّه.

ومن المرويات التاريخية يُكْتَشف بعض معايير الحقيقة، وبخاصة من تلك السير ما يتعلق بالمعارف الشخصية، في مجموعتنا هذه أربع سير لشهيدات نجران (4) كتبها يوحنا الأفسسي (5) وذكريات مارتيروس (سهدونا) لمرشدة طفولته (شيرين) قد يكون العرض في هذه السير ثقيل الوطأة، يتخذ الكاتب فيه لغة فوقيةً في حديثه عن النساء، (ويمكن أن يكون ثقيل الوطأة بالفعل) إلا أن فيها شيئاً ما عن النساء يفجّر ذاته، تطالعك نساء قويات

الشخصية والإيمان، صارمات بل معاندات عند الضرورة، بعضهن يقدن الرجال والنساء معاً، أو مرشدات مجمّعات دينية وعلمانية، جريئات راسخات، رحيمات شريفات، متواضعات غير مدعيات، مبدعات حكيمات، ونساءً تتحدث أعمالهن بصوت أعلى بكثير، من الكلمات التي قيلت عنهن.

تطالعك أفاميا وهي تعنف النبلاء أغنياء مدينتها لنمط حياتهم المترف، وتوبخهم بقسوة «حتى غضبوا منها» لكنهم استجابوا لها بمنح المعوزين بسخاء، ونرى أيضاً (مَحْيا) سيدة من نَجِران ذات سلوك وقح وفاسد به أغضبت المدينة لسنوات عديدة، فمَحْيا الأَمَة سيئة الطبع ذات الإرادة القوية استجابت كعاصفة هوجاء إزاء مذبحة مسيحيي نجران، وسارت بخطا واسعة عبر شوارع المدينة تدعو المسيحيين لمناهضة اليهود بسبب أعمالهم غير القانونية، ثم تلقت أخيراً موتها بعزة نادرة واحترام من الآخرين بعد أن أنكروا أنهم يعرفونها طوال حياتها، وبالمقابل تصرفت (رَهْم) السيدة النبيلة النجرانية بلياقة لا نظير لها: «سيدة لم ير أحد قط وجهها خارج بوابة بيتها، ولم تمش في المدينة في وضح النهار» وعندما سمعت خبر المذبحة سارت إلى ساحتها العامة (حاسرة الرأس) فشجعت المسيحيين ودانت مضطهديهم، وقد أضفت فعلتها الجريئة قوة على موتها.

أولئك النسوة هن اللواتي أظهرن كيف يكون المجتمع مربكاً بسبب القيود التي تفرضها قلة عدد النساء اللواتي يتلاءمن مع القالب المفروض عليهن، والنماذج المتعارف عليها أن النساء التقيات يكن مستسلمات، خانعات، وغير فضوليات، وهي نماذج لا تنطبق ببساطة على نساء تلك السير اللواتي تشهد أعمالهن أنها بوحي من اللّه، وإن أقلقت مشاعر الشعب، فإن كان ثمة عامل مشترك بين هذه القصص، الأسطورية منها والتاريخية، فهو الجراءة التي يمكن أن تظهرها النساء لأجل الإيمان، وتلك نقطة هامة، فتلك النسوة لا يتصرفن بدافع الإصرار الذاتي، (كما يسمى

اليوم) أو بدافع شعورهن بتقدير الذات، وإنما بدافع قوة خارجة عن إرادتهن، بمقدورهن التصرف بطريقة يخالفن بها القواعد الاجتماعية لأنهن يستطعن التخلي عن الإحساس بالذات، نساء كن أم بشراً فالذي يحرّض مشاعرهن هو تقواهن وتمسكهن الشديد بهدف أسمى هو الهدف الإلهي. وعلى المرء ألا يخلط بين هذا التصرف وسواه، فهؤلاء النسوة لم يكنّ خارجات على المجتمع بدافع وعيهن الذاتي بل بإيمان قوي بأن اللّه هو الذي دعاهن للعمل، واللّه هو الذي سيدعمهن في ذلك.

قد يكون الدين برّر تقييد المرأة، وحصرها في مرتبة التابع، لكنه أيضاً منحها السلطة لتتجاوز تبعيتها، لأن التعاليم المسيحية أبطلت القيود والتفويض أيضاً. إن مخالفة النساء الأعراف الاجتماعية لم تشكّل خطراً على البنية الأساسية للمجتمع آنذاك، وذلك يعني أن المرأة، حتى لو تصرفت مثل أفاميا بطريقة تصدم الناس من حولها، فإن تصرّفها لم يكن يرى آنذاك على أنه إضعاف للمجتمع واستقراره، بل تلبية لنداء السلطة الإلهية، ومرة أخرى، فالكفاءة العالية التي أظهرتها نساء مثل أفاميا وسوزان لم تدفع إلى استحقاق المرأة تقلد المناصب في المجالين الاجتماعي أو الديني. إن من واجبات المسيحي التصرف حسبما تمليه الإرادة الإلهية، وبهذا التصرف أتيح لبعض النساء الورعات الفاضلات تسلم مناصب بارزة، غير أن تلك الحالات كانت عابرة وعُدّت استثناءً، الأمر الذي يؤكد تدني مكانة المرأة في المجتمع وتبعيتها للرجل، مهما بلغ عدد تلك الاستثناءات، لذلك يجد يوحنا الأفسسي نفسه ملزماً كلما سرد قصة حياة امرأة على الاعتذار عما حل بها، شأنه في ذلك شأن كتّاب سير القديسين الآخرين.

وتشير سير القديسات إلى تضييق دائرة الحصار على حياة المرأة، وذلك يحدد نوع الخيارات التي كانت متاحة للنساء (5 آ). فنحن نجد أخت أفاميا مثلاً امرأة ذات روحانية ذاتية عميقة، امرأة كانت رسالتها رسالة المتوحّد، لم يكن أمامها على الصعيد الديني خيارات مقبولة ومتوافرة بالنسبة إليها،

كامرأة، سوى أن تعيش في الدير أو تحيا حياة الخدمة. غير أنها رفضت الخيارين، واختارت حياة الارتحال المجهولة، كانت قداستها واضحة من المعجزات التي اجترحتها بمحض «وجودها لا بمشيئتها ولا بكلماتها». لم تتضمن حياتها مخالفة للأعراف أو مواجهة معلنة ضد الإجراءات المفروضة على النساء، وبالأحرى، فإن أسلوبها الذي اعتمدته في قهر ذاتها حجب إلي حدّ ما الحرية المدهشة لأعمالها، هذه المرأة هجرت أسرتها، ورفضت الأمان النسبي الذي يوفره لها الزواج، أو الأسرة، ونبذت حتى الضمان الذي يوفّره لها المجتمع الديني، ونظراً لأن المجتمع لم يضمن للمرأة أي مكانة، فإن بساطة نهج حياة أفاميا الأكثر دعةً يعلن عن مضمونه الجوهري.

إن حالة أنستاسيا (6) المرأة التقية، كحالة مريم، وجدت نفسها على ما يبدو دون مأوى أو ملجأ في مأزق خطير، كانت مدعّوة لتلبية رسالة دينية روحانية، وهي ملاحقة من الإمبراطور يوستنيان بسبب الاشتباه بها إثر وفاة زوجته ثيودورا، فهربت أنستاسيا مرعوبة، فمن يستطيع معارضة إرادة الإمبراطور؟ وأنى لها أن تضمن السلامة بهربها وليس معها سلاح إلا رسالتها الدينية؟ في ذلك الوضع البائس رحلت وتوغلّت في صحراء مصر، متنكرة في زي راهب متبتل، وعاشت فيها سنوات عديدة حتى وافتها المنية، متوحدةً لم يعرفها أحد سوى الراهبين اللذين توليا رعايتها، فهل كان توجّهها الديني أمراً اختارته هي نفسها أو كان وليد ظروفها؟

إن سيرة أنستاسيا تدفعنا إلى التبصر بسير القديسات، فيما يتعلق بالعنف الجنسي الممارس على النساء كأسلوب من أساليب التعذيب، وهو يبرز في هذه المجموعة بصيغتين: الإساءة الجنسية أو التمثيل بهن كوسيلة تعذيب نلمحها في سير البارزات من القديسات، وإلغاء الهوية الجنسانية (في السير التي تتبنى فكرة التزيي بزيّ الرجال وبخاصة بلاجيا وأنستاسيا) حيث لا تتنكر المرأة جنسها ببساطة أو تقدم نفسها على أنها لا تنتمي إلى أي جنسانية، وإنما تقضي على هويتها كامرأة، وتتبنّى هوية الرجل وفي الحالتين

كلتيهما، تتناول نصوص السير ذلك التصرف بالتفصيل والتصوير إلى حدّ الإزعاج، دون أن تتوقف عند حدود التلميح.

كما استخدم نشاط المرأة الجنسي كرمز ديني للصراع بين المتضاربين: الدنس والعفة، بصورة مألوفة في العصور الأولى للمسيحية، وفي الأدب الآبائي الكنسي، إلى حدّ أنه أساء لما كتب عنها في مختلف الأحوال والظروف. ففي سيرة بلاجيا مثلاً كان جنوحها للبغاء معياراً لشدة آثامها، وكان اعتناقها المسيحية رائعاً ومهيباً لكنه لا يوفّر معياراً مكافئاً لإثمها الذي ظهر في حياتها قبل التوبة، ومهما يكن فإن التبني الناجح لهوية الذكورة أو لما يلمح إليه كاتب السيرة عن تحقيق حياة طاهرة، لا يمكن أن يحياهما إلا الرجل (لذلك كانت صدمة الناس عندما علموا أن بلاجيوس ليس إلا امرأة). وتنكرها هذا يكفي لتعرف مقدار النعمة التي حققتها بالقياس إلى آثامها السابقة، فهويتها الجنسانية توظف في السيرة مجازياً لبلوغ الأهداف المتوخاة من تلك السير.

ولمعالجة هذا التوظيف الذي يعتمد بصورة أكبر على التاريخ يتحتم علينا أن نلحظ شهيدات فارس المسيحيات البتولات المكرسات: (بناث قيومو بالسريانية، أو بنات العهد) اللواتي يحتم إغراؤهن بالزواج كبديل عن عقوبة الموت بالتعذيب، فعلى الصعيد المجازي تُظهر سيرهن (بتولية المرأة) التي تتناقض مع شبق المضطهدين (اهتمامهم بالزواج). غير أن تلك المرويات التي تعتمد على التاريخ تعلن بقوة عما يحدث في مثل تلك المواقف، يتم الاعتداء على النساء بسبب هويتهن الجنسانية، يؤكد ذلك الأمر مراجعة المرويات التصويرية فيما يتعلق بالتمثيل والتنكيل الجنسي، كما في حالتي أناهيد وفبرونيا، ونادراً ما يظهر الاعتداء الجنسي على الرجال في سير القديسين، في حين يبرز جلياً في سير القديسات الشهيدات. كذلك شاع التمثيل بالنساء موضوعاً في فن رسم أيقونات الشهيدات، إن الصفة الجنسية الخاصة لبعض أنواع التعذيب الذي مورس على النساء الشهيدات تصور

حقيقة واقعية اجتماعية وهو أن الذين مارسوه كانوا من الرجال، غير أن الأسلوب التفصيلي الذي استخدم في وصف تلك الوقائع (في كل من المرويات الخيالية، والتاريخية ذات الوقائع الصحيحة) يشير أيضاً إلى أن الرجال هم الذين كتبوا تلك المرويات.

إن التشويه أو التمثيل الجنسي بالنساء كوسيلة تعذيب، وإلغاء الجنس الأنثوي بتبني هوية الذكورة تنصب كلها في الموضوع ذاته: القوة والسيطرة الماثلة في علاقة الرجل بالمرأة، وتلك الوقائع نجدها مفصلة أحداثها في سير النساء: الأسطورية منها والتاريخية، سواء كانت صحيحة أم خيالية، لكن الرجال يسردونها وكأنها حقائق، فماذا علينا أن نصدق؟

في العهد الجديد، وتحديداً في الإنجيل بحسب توما تمنح المرأة مكانة مرموقة، ومؤيدة بشكل ملحوظ لجنس النساء، مثلما تبدو تلك المعاملة الأدبية تجاه المساكين والمرضى والمنبوذين، فلوقا هو الذي يقيس مدى امتداد هدف السيد المسيح مؤكداً مكانة هذه المجموعة (المهمّشة) في خدمة هدف المخلص. ولوقا يمنح المرأة تلك المكانة، ربما ليس بسبب تقديره للمرأة، بل ليسلط الضوء على حنوّ يسوع على منكودي الحظ، ففي سير القديسات أيضاً غالباً ما تمثل المرأة وكأنها ذروة الآثام أو القداسة، وأهم من ذلك كلها أنها امرأة وليست رجلاً، فنساء السير يُظهرن ما يراه كتّاب تلك السير مثالاً لعظمة نعمة ورحمة السيد المسيح الفائقة، ولأن المرأة أقل جدارة بتلك الهبات من الرجل بسبب جنسها فإن الكتاب يحرصون على إظهارها بأنها أجدر من الرجل بهذه المواهب، وقد عبر عن ذلك المطارنة الذين دفنوا بلاجيا قائلين: «المجد لك يا سيدنا، كم من قديسين مجهولين لديك على الأرض، ليس رجالاً فقط بل من النساء أيضاً».

في سير القديسات، كما في إنجيل لوقا، تتجلى عزة المرأة وكرامتها تجلياً أمثل، بالرغم من قلم الكاتب، يصدق ذلك على بلاجيا المخزية بصورة لا

تقل عن رَهْم السيدة النبيلة المهيبة، حتى الكتاب المنحازون لا يستطيعون التهرب من وصايا الكتاب المقدس الأساسية، ولذلك يدافع يوحنا الأفسسي عن تصميمه على إدراج سير القديسات مع سير القديسين معتمداً على النصائح الرسولية «بالمسيح يسوع لا ذكر ولا أنثى، عبداً أو حراً» (غلاطيين 3: 28). ونحن نلاحظ بالتحديد «سيئة الطبع» (مَحْيا) تنتقد معّذبيها بحرية بالغة بدافع من الروح القدس «فلينجح الجميع إذا سعوا». تُعَرّى: (مَحْيا) أمام الحشد من الرجال والنساء بأمر الملك، ومع ذلك تتمسك بعزتها وكرامتها، وتقول بكل شجاعة: «عار عليك... أن تفعل هذا، لست خجلى من نفسي... أنا عارية أمام الرجال والنساء ولا أشعر بالخجل لأني امرأة كما خلقني اللّه على صورته».

ويكمن وجه المفارقة في هذه السير في أن المجتمع الذي استمدّت منه لا يختلف عن سواه من المجتمعات في ذلك العصر، إذ لم تكن المرأة تقدر كامرأة، مع أن بعض الشخصيات الهامة كانت من النساء، وقد ارتكزت المسيحية على الرؤية الإنسانية التي تدعو كل الناس لنعمة الخلاص، لكنها في أيامها الأولى لم تتمثل أثر تعاليمها الملموس على المفاهيم الاجتماعية فيما يتعلق بالجنس في عالمها، فظلت المرأة ضئيلة القيمة من النواحي الاجتماعية والسياسية والدينية، ينظر إليها بقليل من التقدير، لكن لم يشك أحد بأنها مخلوق ذو قدر في نظر الخالق، وأنها قامت بأعمال عظيمة في خدمة الكنيسة بصورة عامة. ولذلك مجّد كتّابنا عملها كتابعة للسيد المسيح، مضعفين كمال ذاتها كامرأة.

نعود إلى ذلك التناقض لدى كتابنا فيما يقولونه عن المرأة وما يخبروننا به عن أعمالها، فإذا تجاوزنا مقدمات السير فإن تلك السير تفصح لنا جلياً أن بإمكان المرأة أن تحقق عمل اللّه بطريقتها، وقد نفذت ذلك بالفعل، فأعمالها تشهد لها بقوة.

# 1) مريم ابنة أخي إبراهيم القيدوني

**مقدمة:**

النص الأول عن سقوط مريم ابنة أخي إبراهيم القيدوني[1] من النسك ثم توبتها فيما بعد مقتطف من سيرة الناسك هذا الذي عاش في منتصف القرن الرابع. وقد ذُكر إبراهيم أيضاً بإيجاز في تاريخ الرها في القرن السادس. كما مُدِح في ثلاثين قصيدة نسبت إلى الشاعر اللاهوتي الكبير مار أفرام (373 م). ولكن تم الإجماع بشكل عام الآن على أن هذه القصائد من غير المحتمل أن تكون لمار أفرام، ومهما يكن فهي لم تذكر مريم.

ظلت سيرة إبراهيم لا يُعرف كاتبها في المخطوطة السريانية القديمة (القرنين الخامس والسادس)، ولكن فيما بعد نُسبَت أيضاً إلى مار أفرام، وهذا بالتأكيد غير صحيح لأن السيرة تخص القرن الخامس. وبالتأكيد فتاريخ النص يجب أن يكون في القرن الخامس إن كان كاتبها، كما يُزعم، يعتمد على التاريخ الديني لثيودور[2] (عن إبراهيم المتوحد، مطران حرّان فيما بعد؛ وهو في الحقيقة شخص آخر) وتاريخ بولاديوس[3] وسيرة حياة القديس أنطونيوس. وقد لوحظ أيضاً التشابه اللافت للانتباه مع أسطورة قبطية (ربما مترجمة عن اليونانية) عن سالومي. وقد يبدو بوضوح أن هناك بعض الشك عن تاريخية الواقعة التي وصفت في هذا المقتطف المترجم هنا، ولكن كتّاب السير مثل كتّاب الروايات التاريخية في أيامنا هذه لم يكتبوا لمنفعة المؤرخين المعاصرين لأيامنا هذه بل كان اهتمامهم هو المتعة الروحية

ورفع معنويات معاصريهم. وقد أدى كاتب سيرة إبراهيم مهمته بمهارة أدبية فائقة وخاصة في بعض الفقرات الخاصة بوصف اللقاء بين مريم وعمها المتنكر في حانة.(4) وهذه الفقرات تتميز بالحدية المتميزة. ومع أن من المؤكد أن لغة النص الأصلية هي السريانية إلا أن الكاتب (شأن الكتاب السريان المجهولين آنئذ) استفاد كثيراً من التقنيات البيانية المعروفة في الأدبين اللاتيني واليوناني في ذاك الحين.

من الممكن إبراز نقطتين هامتين في الواقعة المترجمة هنا: أولاً، يؤكد الكاتب الصلة الحميمة التي تظهر التصرف الغريب لإبراهيم بين القداسة والحماقة. ففي القرون القليلة التالية لذلك ظهر في السريان عدد من (الحمقى لأجل المسيح) كثيوفيلوس ومريم اللذين وصف يوحنا الأفسسي حياتهما في أثناء النهار، وكأنها كانت حياة فحش وسمسرة. أما في الليل فكانا يعيشان للصلاة المنيرة، أو كسمعان الحمصي الذي سَرَد مآثره ليونتيوس النابولي(5) (في قبرص). ثانياً، إن حياة إبراهيم هي النموذج لفكرة حمل أخطاء الآخرين والتصرف كما لو أنه يتعهد لله بأن الآخر سيسلك سلوكاً حسناً. وهكذا يقول إبراهيم لمريم وهي يائسة: «وأحمل مسؤولية أخطائك وسأقدم حساباً عن قيامك بهذا العمل يوم الدينونة» هذا الموضوع عن القديس - الذي يضمن شخصاً آخر - شائع في سير حياتية فيما بعد.

لقد تُرجمت سيرة حياة إبراهيم إلى اليونانية واللاتينية منذ أمد بعيد واشتهرت كثيراً باللغتين وحولت القصة إلى مسرحية في القرن العاشر.

بعض المخطوطات من القرون الوسطى التي تتضمن الفنقيث (كتب صلوات الآحاد) تحوي رثاء بلسان مريم كان يرتل أحياناً في أثناء الصوم الكبير، ويبدو أسلوبها أنه أسلوب التأليف في القرنين الخامس أو السادس ويتوقف على كتاب السير. وثمة ترجمة لهذا الرثاء في نهاية قصة مريم ابنة أخي إبراهيم المقتطفة من سيرة الناسك إبراهيم.

## مريم ابنة أخي إبراهيم القيدوني

17) أريد أن أقصَّ عليكم الآن أمراً مدهشاً قام به إبراهيم في شيخوخته، أمراً سيجده قرائي المثقفين مذهلاً حقاً. جرى ذلك كما يلي: كان لإبراهيم الناسك أخ له ابنة وحيدة. فلما مات الأخ تاركاً ابنته يتيمة أخذها الأقرباء لتعيش مع عمها. كانت في السابعة من عمرها في تلك الأيام، فأخبرها إبراهيم أن تعيش في الجناح الخارجي من بيته بينما عاش ناسكاً حبيساً في القسم الداخلي. وهناك نافذة صغيرة تصل بين الجناحين من خلالها يرشد إبراهيم ويعلم الفتاة المزامير والنصوص الكتابية المقدسة. كانت معتادة أن تسهر وتصلي وتلبي احتياجاته، وكما روّض روحها ترويضاً رائعاً جاهدت أيضاً بنية حسنة لتصل إلى كمال فضائله وغالباً ما كان إبراهيم الناسك يبتهل إلى اللّه من أجلها طالباً أن تعيش حياة التوبة، وألا تقع في شرك مفاتن العالم.

ترك لها والدها المال الوافر، ولكن إبراهيم الناسك أمر دون تردد أن يوزع المال على الفقراء واليتامى. فكانت ترجو عمها كل يوم وتقول له: يا أبت آمل أن تصلي من أجلي لأتخلص من الأفكار الفاسدة ومن كل وساوس الشيطان الماكرة الداهية. بإرادتها روضت نفسها على كل طرق عمها الممتازة، بدوره كان سعيداً وهو يرى مقاصدها الحسنة، ودموعها وتواضعها، طبيعتها الهادئة الناعمة وحبها لله. فعاشت مقتدية بنمط حياة عمها عشرين عاماً. كانت مثل الحمل الطاهر والحمامة النقية.

18) وبعد مرور عشرين سنة، رآها الشيطان فحاول أن يوقعها في شراكه. كان قصده أن يسبب بطرقه الألم والحزن لهذا الرجل الناسك وبذلك يصرف تفكيره عن الله. وكان من عادة رجل يدّعي الترهب بالاسم، أن يزور إبراهيم المبارك على أنه صديق. ففي أحد الأيام حدث أن رأى الفتاة الناسكة من خلال النافذة، فأحبها من أول نظرة، وأراد أن يغويها

وينام معها. فسمح لرغبته المجنونة أن تشتعل كالنار في قلبه. وظل ينتظرها ليغدر بها عاماً كاملاً، حتى نجح في تلطيف إبائها الصارم، وبالتالي فتحت الفتاة باب بيتها حيث كانت تعيش حبيسة وخرجت لتراه، فاعتدى عليها بتملّق، مدنساً شرفها بمكر شهوته.

ما أن حدثت تلك الواقعة الأثيمة حتى سيطر الذهول على عقلها. فمزقت ثوبها، ولطمت وجهها وصدرها بحزن قائلة لنفسها: «أنا الآن كالميتة. فقد أضعت ماضي حياتي، أعمالي النسكية وتقشفي، وذهبت دموعي هباء لأنني تمرّدت على اللّه وقتلت نفسي، وسببت لعمي الناسك حزناً شديداً، وطوقت نفسي بالعار حين أصبحت أضحوكة للشيطان، لِمَ أعيش الآن بعد أن أصبحت بالغة الفساد؟ ويلي، ماذا سيحدث لي؟ ويلي؟ ماذا فعلت؟ واحسرتاه، ماذا سيحدث لي؟ كيف سقطت؟ كيف أظلم تقليدي وأحاسيسي دون أن أدري؟ كيف حدث سقوطي؟ لم أكن أدري، كيف أصبحت منحرفة؟ لا أعرف. خيّمت غيمة سوداء على قلبي ومنعتني من رؤية ما كنت أفعل. كيف أخفي نفسي؟ أين أذهب؟ في أية حفرة أرمي نفسي، أين ذهبت إرشادات هذا الرجل التقي؟ كيف تجاهلت تحذيرات مار أفرام الحكيم؟ فقد حذروني من نفسي أن أحافظ على نفسي وأوصوني أن أصون بتوليتي تقية بلا دنس لأجل العريس السرمدي (المسيح) قالوا لي: «عريسك قدوس وغيور» ما عدت أجرؤ على النظر إلى السماء لأنني مت في نظر اللّه والرجال. ولا أستطيع بعد الآن أن أدنو من تلك النافذة. أنىّ لي أنا الخاطئة الممتلئة بوصمات عار بغيضة أن أملك الجراءة لأقترب من هذا الرجل الورع كالقديس وأكلمه؟ ولو تجرأت على الدنو من النافذة التي بيننا لصدَرَ عنها نار فأحرقتني. خير لي أن أرحل إلى مكان آخر حيث لا يعرفني أحد. لأنني مت كلياً ولا أمل لي في الخلاص».

**19)** وهكذا نهضت مباشرة، ورحلت إلى بلدة أخرى. غيّرت إسكيمها الأثير الذي كانت ترتديه، وأقامت في حانة وضيعة.

بعد أن وقع ذلك، رأى إبراهيم المبارك حلماً مجسّداً ورهيباً، رأى ثعباناً ضخماً مقرفاً يتسلل بطريقة مرعبة، يزحف نحوه مغادراً حجره، فصادف حمامة فابتلعها وعاد إلى مخبئه. فلما استيقظ الرجل التقي كان بالغ الانزعاج وبدأ يبكي. قال في سره: «ربما سيثير الشيطان اضطهاداً ضد كنيسة المسيح ويبعد الكثيرين عن الإيمان، أو ربما سيحدث انشقاق وانقسامات في كنيسة الله». ثم صلى إلى اللّه قائلاً: «أنت تعرف الخفايا يا محب البشر، أنت وحدك تعرف ما تفسير هذا الحلم».

وبعد يومين رأى ثانية الثعبان يغادر حجره ويزحف نحو بيته ثم يضع رأسه تحت قدمي الرجل الورع، وقد تمزق وانفتح جوفه وهناك في جوفه كانت الحمامة التي ابتلعها سالمة دون أن تتأذى، فمد الرجل الورع يده وأخذها وهي على قيد الحياة.

ولمّا استيقظ إبراهيم نادى ابنة أخيه الناسكة مرات وخاطبها قائلاً: «ما أشدّ تهاونك يا بنتي منذ يومين لم تفتحي فمك لتسبحي اللّه.

فلما لم تجبه ولم تخدمه حسب عادتها أدرك الرجل التقي أن الحلم يشير إليها. فتأوه وبكى بغزارة قائلاً: «واحسرتاه لأنّ حَمَلي خطفه الذئب وهرب، لقد أُسرت ابنتي» ثم رفع صوته باكياً وقال: «أيها المسيح: يا مخلص العالم أعد الحمل مريم إلى حظيرة خرافك لئلا أذهب إلى الجحيم مفعماً بالأحزان في شيخوختي. لا ترفض طلبي يا سيدي بل ساعدها للحال وخلصها من فم الثعبان».

كان اليومان اللذان مرا بين حلمي إبراهيم يمثلان السنوات التي عاشتها ابنة أخيه في العالم. فتضرع من أجلها ليل نهار دون انقطاع.

20) بعد عامين اكتشف الرجل الورع مكان إقامتها، فطلب من أحد معارفها أن يذهب إلى هناك ويتبين حقيقة أمرها وأين تقيم. فذهب الرسول وعرف كل شيء عنها، وعاد فأخبر إبراهيم بوضعها ومكان إقامتها.

ولما تأكد أنها مريم، طلب إبراهيم أن يُحضَرَ له ثوب جندي وحصان، فلما أُحضِرا فتح باب بيته وخرج. تنكر بزي عسكري، ووضع خوذة على رأسه غطت معظم وجهه، وركب الحصان فبدا وكأنه جاسوس يريد استطلاع منطقة أو بلد ما، وقد ارتدى ذلك الزيّ المألوف ليتجنب كشف أمره. ويقهر خصمه الشيطان.

تعال الآن عزيزي القارئ لنتعرف على إبراهيم الثاني هذا: خرج إبراهيم الأول ليحارب الملوك فقهرهم، وعاد بابن أخيه لوط، أما إبراهيم الثاني هذا فقد بدأ يحارب العدو الشيطان حتى هزمه، وعاد بابنة أخيه.

**21)** لما وصل المنطقة التي فيها الحانة قضى بعض الوقت وهو ينظر حوله لعله يرى الفتاة، فلّما تعذرت عليه رؤيتها تحدث إلى صاحب الحانة والابتسامة على شفتيه قائلاً: «يا صديقي: قد سمعت أن لديك فتاة جميلة هنا وأود رؤيتها». فلما رأى صاحب الحانة شعر إبراهيم الوقور المكلل بالبياض ظن به سوءاً لكنه أجاب: نعم لدي فتاة جميلة في الواقع». اعلم أيها القارئ أن الفتاة كانت ذات جمال نادر.

ثم سأل عمها صاحب الحانة: ما اسمها؟ فقال: (مريم). فأردف الناسك ووجهه يتألق: استدعها لكي نستمتع معها اليوم. فما سمعت عنها جذبني إليها.

استدعاها صاحب الحانة فجاءت. فلما لمحها إبراهيم مزينة، مرتدية زي الغانيات بدأ جسمه كله يبكي، لكنه تمالك عواطفه بشجاعة، خشية أن تلاحظ فتهرب. ولما جلسا يشربان بدأ الرجل العجوز المدهش يكلمها فدنت منه وبدأت تلاطفه وتقبّل عنقه. وبينما كانت تلاطفه صدمتها رائحة النسك التي صدرت من جسم الرجل التقي، وتذكرت للحال حياتها النسكية فاختنقت حزناً وتنهدت قائلة: «الويل لي، لي وحدي». فدهش صاحب الحانة وخاطبها قائلاً: «سيدتي مريم أنت معنا منذ سنتين

ولم اسمع تأوهاً منك قط، أو كلاماً يماثل ما قلته الآن. ما الأمر»؟ فأجابت: «لو أنني مت منذ ثلاث سنوات لنلت بركة واسعة». فقال لها الرجل التقي بغضب ليبعدها عن معرفة هويته «لمَ تتذكرين آثامك الآن بعد أن أتيت»؟

22) أحبائي المستمعين: ألا تعتقدون أنها قالت في سرها: «كم يشبه هذا الرجل عمي»؟ لكن اللّه وحده الحكيم ومحبّ البشر رأى ودبّر ألا تتعرفه الفتاة فتهرب مذعورة. وفي تلك اللحظة أخرج الرجل المبارك قطعة ذهبية ونفحها صاحب الحانة قائلاً: «خذ هذه يا صديقي، وأحضر لنا وجبة ممتازة لنمتع أنفسنا اليوم بهذه الفتاة. فمن مكان بعيد قدمت لأراها».

بأية حكمة روحية وبأية فطنة حقيقية لازم التقي هؤلاء؟ هذا الرجل الذي لم يأكل حتى الخبز منذ خمسين عاماً بسبب أسلوب حياته النسكية، الآن، ولأجل نفس واحدة يأكل لحماً ويشرب خمراً. كل هذا لينقذ نفساً ضائعة. وقفت جمهرة الملائكة منذهلة أمام تدبير هذا الرجل الفطن المبارك، وكيف أنه بنيةٍ حسنة ودون تردد أكل وشرب ليخلص نفساً غرقت في الوحل المنتن، عظيمة حكمة الحكيم حقاً، ما أروع الإدراك الحسي الذي يملكه أولئك الذين حقاً يفهمون! هنا وقف في ورع عند (الحماقة) حماقة رجل تهذب في الحكمة، رجل ذو إدراك حاد أصبح أحمق جاهلاً ليرفع من فم الثعبان النفس التي ابتُلعت، ولينقذ ويحرر نفساً من القيود ومن سجن الظلام، نفساً مأسورة بالضلالة بعد الغرور.

23) وبعد أن تبادلا الحديث قالت الفتاة: «من فضلك هلم إلى غرفة نومي لننام معاً» فأجاب: «لندخل». فلما دخل لمح سريراً كبيراً مرتباً فجلس بمشيئته قربها. يا لك من تلميذ كامل للسيد المسيح! لا أعرف أي اسم أعطيك أو ماذا أسميك؟ أأتحدث عنك كمنذور أم كإنسان عرّض نفسه للشبهة؟ إنسان تحلّى بالحكمة أم بالحماقة؟ إنسان مدرك لإنسانيته فكيف

يفقد توازنه العقلي. بعد خمسين عاماً من التزهد وأنت تنام على الحصيرة أنى لك أن تجلس على سرير كهذا؟

لقد فعلتَ كل هذا لتمجيد وتعظيم اللّه: قمتَ برحلة طويلة، أكلتَ اللحم وشربتَ الخمر، تنازلتَ ودخلت الحانة ـ كل هذا لتنقذ نفساً ضائعة، ما أعجز كلامنا أمام تنازلك العظيم!

**24)** عندما جلس الرجل على السرير تحدثت الفتاة إليه قائلة: «تعال، دعني أخلع حذاءك». فأجاب: «أغلقي الباب أولاً ثم بإمكانك خلعه». عارضت الفتاة وأرادت أن تخلع حذاءه أولاً لكنه رفض. وهكذا أغلقت الباب وعادت إليه. فخاطبها قائلاً: «سيدتي مريم، اقتربي مني». وعندما فعلت ذلك أمسك بها بقوة ليمنعها من الهرب وكأنه يريد تقبيلها ثم رفعَ الخوذة عن رأسه وتحدث إليها والدموع في عينيه: «ابنتي مريم ألم تعرفيني؟ ألست والدك إبراهيم؟ ابنتي الحبيبة، ابنة أعز أقربائي: ألا تعرفين من أنا؟ ماذا حدث لك يا بنتي؟ من قتلك بهذه الطريقة أو هكذا يدو؟ أين ثوبك النسكي الثمين الذي كنت ترتدينه؟ أين تزهدك؟ أين دموع عينيك؟ أين صلواتك المسائية؟ وفراشك على الأرض؟ من أي ارتفاع انحدرت إلى هذه الحفرة؟ رعيتك كابنتي، لمَ لم تخبريني لما اقترفت الإثم؟ لو أخبرتني آنذاك فرضت عليك عقوبة أنت وعزيزي أفريم تكفيراً عن الخطيئة. لمَ تصرفت هكذا؟ ما كان الدافع لأن تهجريني وتلقي عليّ حزناً لا يمكن الإفصاح عنه؟ مَن المعصوم عن الخطأ سوى الله وحده»؟

وبينما كانت تستمع إلى هذه الكلمات غدت بين يديه كصخرة بلا حراك وشلّها الخوف والرعب.

«ألن تتحدثي إلي يا ابنتي»؟ تابع الرجل المبارك باكياً. ألم يكن من أجلك أني أتيت إلى هنا؟ سأتحمل مسؤولية خطيئتك وسأقدم حساباً عن قيامك بهذا العمل يوم الدينونة. أنا الذي سأكفر عن هذه الخطيئة.

وظل يرجوها وينصحها باكياً متضرعاً حتى انتصف الليل فلما تشجعت قليلاً قالت له باكية: «لا أستطيع أن أعود وأرفع نظري إليك يا سيدي بسبب العمل المخزي الذي اقترفته، أنى لي أن أصلي إلى اللّه بعد أن لوثت نفسي في ذلك الدنس الموحل»؟ فأجاب الرجل المبارك: «ابنتي: أنا الذي سأكفر عن هذه الخطيئة. أصغي إلي فقط وعودي إلى بيتنا. عزيزي أفريم أيضاً مفعم بالحزن بسببك، ويتوسل إلى الله من أجلك: نفسك بين يديه. فارحمي شيخوختي وأشفقي على كهولتي. أصغي إلى إرشاد والدك أرجوك».

قال هذا وهو جاثٍ على ركبتيه محاولاً إقناعها، فأجابت مريم: «إن كنتَ متأكداً من أنني أستطيع التوبة وأن الله سيقبلني فلسوف أعود وأسقط عند قدميك متوسلة إلى شخصك الموقر، أقبّل قدميك الطاهرتين لأن شفقتك دفعتك للحاق بي كي ترفعني من سقطتي الفاسدة هذه».

وهكذا قضت الليل كله بالدموع وهي تقول له: «كيف يمكن أن أكافئك على كل ما فعلته من أجلي يا أبتِ»؟

وعندما طلع النهار قال: «دعينا ننهض يا بنتي ونهرب من هنا». فأجابت الفتاة: «هناك القليل من الذهب والكثير من الثياب التي جمعتها في مسيرة حياتي المخزية فماذا علي أن أفعل بها»؟ فقال: «اتركيها هنا إنها ملك للسرير».

25) وهكذا نهضا وغادرا المكان دون ضجة، أردفها على الحصان خلفه وقاده مرتحلاً وهو سعيد القلب، مثل راعٍ وجد خروفه الضال فحمله فرحاً على كتفيه إلى حظيرته. هكذا كانت فرحة الرجل المبارك وهو يتوجه إلى البيت.

فلما بلغاه وضعها في الجناح الداخلي من المنزل حيث كان يعيش سابقاً واتخذ الجناح الخارجي مسكناً له، وكانت تقيم فيه سابقاً. اتخذت مريم لها

ثوباً متواضعاً من وبرْ الإبل، وقضت حياتها باكية تصلي ساهرةً وتصوم وتُظهر اجتهاداً كبيراً في توبتها، ودون تردد داعية الله الذي يتحنن على الخطاة. كانت توبتها صادقة.

ابتهالها ومصالحتها أثارت الناس وأذهلتهم. مَنْ كان منهم بلا شعور فلا يفتح قلبه لنحيبها؟ مَن كان قاسي القلب فيكفّ عن تسبيح اللّه وتمجيده لدى سماع صوتها وهي تندب خطيئتها؟ ليست توبتنا مقارنة بتوبتها إلا محض ظلال وتضرعاتنا إلا أحلاماً فقط، ودون تردد على الإطلاق توسلت إلى الله طالبة الغفران عما فعلت. ولكي تتحقق علامة مرئية فإن اللّه ـ الشفوق ومحب البشر، الذي يتلقى صلوات التائبين، قَبِلَها ثانية، وكان لها الشفاء من خلال صلواتها.

**26)** عاش الرجل المبارك عشر سنوات أخرى، وعندما تيقن من نيتها الممتازة القوية والراسخة سبح اللّه ومجده ومات وهو في السبعين من عمره، قضى خمسين عاماً من حياته بالعمل الطوعي المضني بتواضع عظيم، وعلى نقيض ما يقع للآخرين لم يكن متردداً في حبه، ولم يظهر أي تقدير للناس الذين يظهرون تفضيل شخص على آخر. ففي هذه السنوات كلها لم يغير مبادئ حياته. لم يتداع أو يصبو بل عاش في كل يوم وكأنه سيموت فيه...
27) هكذا كانت طريقة حياة إبراهيم الناسك.(6)

**28)** وفي يوم وفاته تجمع كل سكان البلدة. كانوا جميعاً متلهفين للسير في الموكب الجنائزي للقديس. انتزع الناسُ قطعاً من ثيابه ليمنحوا الخلاص لأنفسهم فمن كان يعاني مرضاً ما لبس قطعة من ثيابه المنزوعة كي ينال الشفاء وقد رافق أهل البلدة جثمانه بالمزامير والتراتيل الروحية، موظفين التراتيل التي ألفها مار أفرام المبارك على شرفه. أخذوا جثمانه إلى خارج البلدة، ووضعوه بتابوت في المقبرة، تحت الكنيسة الكبيرة حيث دفن مار أفرام بعد موته فيما بعد.

**29)** عاشت الحمل مريم خمس سنوات بعد وفاة إبراهيم المبارك. عاشت حياة فاضلة مميزة إذ كانت تتوسل إلى الله ليل نهار بالدموع ليشفق عليها ويغفر لها الخطايا التي اقترفتها. وغالباً ما كان أولئك العابرون من المكان ليلاً يقفون ويصغون إلى صوت بكائها وكانوا أنفسهم يبكون معها ويسبحون الله.

وسبح الله عند وفاتها كل من رأى وجهها لتألقها. وهكذا أتمت حياتها وغادرت العالم بنهاية حسنة لأنها تصالحت مع اللّه.

## مرثية مريم ابنة أخي إبراهيم القيدوني[7]

أ) سأجلس وأندب حياتي.
فوا حسرتاه، لما قدّمْت لي،
كيف سقطتُ ماذا فعلتَ بي؟
تباً لك أيها الشرير؟

وا حسرتاه، ماذا حدث لي يا أخوتي؟
وا حسرتاه ثانية لما فعله الشيطان بي،

ب) أغواني بتملّقه
بإغراءاته قادني إلى الضياع، الويل لي.
كيف أسرني وقادني إلى الإثم
تبا لك أيها الشيطان ماذا فعلت بي؟

ج) أماط عن وجهي
الحجاب المشرّف ـ وا حسرتي
جعلني أعيش، خجلى في حانة من الحانات
تباً لك أيها الشيطان ماذا فعلت بي

د) أبعدني عن مكانتي المشرفة
أفسد كل سانحة للحديث البريء
رماني في حمأة الرغبات الجنسية والأعمال الوضيعة
تباً لك أيها الشيطان، ماذا فعلت بي

هـ) أصبحت أنا أيضاً سبباً للشر
عندما سمحت أن يُصنع بي الشر، فوا حسرتي
إذ بي تحققت أمنية الشيطان
تباً لك أيها الشيطان، ماذا فعلت بي

و) واحسرتاه ما أمرّ الوقوع في المصيدة
الشرك الذي نصبه الشرير لي - فاصطادني
وبطُعمه خنق العذارى الطاهرات
تباً لك أيها الشيطان، ماذا فعلت بي

ز) جعلني غانية بارعة في اجتراح العار
فوا حسرتاه لأني سقطت
من بين أولئك الذين يعيشون حياة الروح القدس
تباً لك أيها الشيطان، ماذا فعلت بي

ح) رآني الشيطان حاكم الأثير متمسكة بالفضائل
فحسدني
فاستخدم مكره ليصدني عن الفعل الحسن
تباً لك أيها الشيطان، ماذا فعلت بي

ط) بركةً عظيمةً كنت سأمنح
لو أنني مت وأنا عذراء
حين كان ختم البتولية يشرفني

تباً لك أيها الشيطان، ماذا فعلت بي

ي) حوّل عفتي السامية سراباً
وحيائي احتقاراً فوا حسرتي
إذ جعلت إرادة الفاسق تتحقق بي
فتباً لك أيها الشيطان، ماذا فعلت بي؟

ك) كان رأسي متوجاً بالعفة
فاختطفه الشرير واحسرتاه
لأنني بمحض إرادتي فتحت له الباب
تباً لك أيها الشيطان، ماذا فعلت بي؟

ل) دمرتُ جميع مآثري
عبر الخطيئة مع الشيطان، الويل لي
وجُرِّدت من رتبة البتوليات
فالويل لك أيها الشيطان، ماذا فعلت بي؟

م) رحيم أنت يا إلهي، لطيف تشفق على الجميع
أشفق علي أنا الحمل الضائع الذي عاد إلى القطيع(8)
اشفِ كل جراحة المتقرحة
ليجد السعادة فيك

ن) أبلغني مراحمك يا إلهي
وليساعدني الخلاص الذي تحدثت عنه
لكي أتغلب على العدو وأهلكه
وأشكرُ اسمَك شكراً جزيلاً لأنك أشفقت علي.

س) أعضد نفسي الضعيفة بذراعك
الطائلة والقوية يا إلهي

وليخجل الشرير عندما يرى قوتي
ولينطوِ في العماء مدمَراً إلى الأبد في جهنم

ع) الشيطانَ جعلني رخيصة
كان بغيضاً يحفل بالقذارات
يا مخلص، كما فعلت مع المرأة الزانية
فاستجب لي، اقبل دموعي يا رب كما قبلت دموعها (يا إلهي)

ف) بابك مُشَرّع للتائبين
فليدخلوا ويمثلوا أمامك يا إلهي
لا تتذكر خطاياهم
ربي أيها الصالح: أشفق علينا جميعاً

ص) حملت صليبك واتبعتك يا رب
كما طلبتَ أن نفعَل[9]
فاجعلني أهلاً للملكوت والخلاص
مع اللص الذي نال الخلاص بصليبك[10]
وهكذا يا رب سأعترف بنعمتك

ق) اقبل يا رب نحيبي ودموعي البائسة
امح الصك[11] الذي كتبته عبر مكر الماكر
وليخجل لأن جنديّك قد محاه
كي لا يعيدها أبداً

ر) عظيم هو حنانك
ونعمتك تنصبّ على الخطاة
الآثمين الذين يلجأون إليك
ويأتون نادمين إلى بابك الطاهر العظيم

ش) اقبل كلماتي الضئيلة بمراحمك العظيمة
كما قبلت درهم[12] الأرملة
الدرهم الذي أعطته يا إلهي
لاسمك القدوس العظيم

ت) لك الشكر من الصالحين
الذين يؤمنون بك يا إلهي
وأيضاً من الخطاة الذين خلصتهم بصليبك
ومن الناس جميعاً الذين عاشوا ويعيشون، لك التسبيح يا إلهي

# 2) بلاجيا

**مقدمة:**

هذا النص الذي سُرِد ببهجة معنيّ بهداية زانية مشهورة في أنطاكية. وربما هي نفسها المرأة التي لم تسمّ والتي ذكرها يوحنا ذهبي الفم في الموعظة رقم (67) عن إنجيل متى. وإن كان ذلك فإن بلاجيا تكون عاشت في نهاية القرن الرابع. وتزعم سيرة حياتها أن هذا العمل من أعمال يعقوب شماس المطران نونوس الذي كان له الأثر الأكبر في هداية بلاجيا. وقد قيل بأن نونوس كان راهباً في مصر لكن كرسيه الأسقفي لم يُذكر قط. بعض الذين جاءوا بعد ثيوفانس عرفوّه باسم نونوس مطران الرها من عام (449 - 450 م) ومن عام (457 - 470 أو 71 م) ولكن ذلك الأمر بعيد الاحتمال فلم يسم قط رئيس أساقفة أنطاكية بهذا الاسم بالرغم من أن أحد النصوص اليونانية يعرفه باسم فلابيانوس (381 - 404 م) ولاشك في أن طمس التفاصيل من قبل يعقوب كان متعمداً لأن السيرة يجب أن ترى أولاً كجماليات أدبية لقصة المومس المهتدية التي يشير إليها يوحنا ذهبي الفم. هذا التوضيح الذي يضيف شيئاً من التاريخية إلى السيرة يبدو بالتأكيد شبه معقول أكثر من النظرية التي قدمها أوسنر[1] وهي أن بلاجيا ليست إلا أفروديت التي مُنحت صفة إنسانة محترمة من المسيحين.

إن السيرة السريانية هي ترجمة عن اليونانية وهي أقدم شاهد موجود لهذا النص. إن سيرة حياة بلاجيا هي نجاح أدبي عظيم وهي جديرة به بالإضافة إلى أنها نقطة بداية لعدد من نصوص التراجم. فيما بعد عن

شخصيات خيالية محضة. هناك ترجمات لها إلى العديد من اللغات المختلفة ولقد اشتهر النص في الغرب خاصة في القرون الوسطى.

مع أن موضوع المرأة التي تتنكر بزي راهب سيكون من الموضوعات الرئيسة للسير (كما في رقم 6: أنستاسيا) إلا أنه في هذه الحالة من الجائز جداً أن يكون له أساس تاريخي.

## بلاجيا

**1)** تحية باسم ربنا من الشماس الخاطئ يعقوب إلى المؤمنين الروحانيين.

أردت أن أكتب لكم آبائي الأتقياء وأخوتي عن هداية بلاجيا المومس آملاً أن تجدوا فائدة عظيمة بالسماع والتعلم منها، وبحسب ذلك تمجدون إلهنا الرحيم الذي لا يتمنى الهلاك لأحد، بل الخلاص لجميع الخطاة والعودة إلى معرفة الحقيقة.

**2)** بداية هذا التقرير كما يلي: إن أسقف أنطاكية عاصمة سورية اضطر إلى استدعاء الأساقفة الآخرين بسبب بعض الأعمال الكنسية الملحة التي تهمهم. وبحسب استدعائه اجتمع ثمانية أساقفة في المدينة. ليس من الضروري أن أذكر أسماءهم باستثناء واحد منهم هو الأسقف نونوس الذي أنا شماسه الخاطئ يعقوب وابن بلدته. هذا الرجل العظيم تفوّق وكان الأفضل في طريق حياته كلها. ترعرع ونما دينياً في مصر وكان من دير مشهور مزدحم هو دير تابنسي[2] الواقع في ثبواد.[3]

وبسبب طهارته وطريقة حياته الممتازة استحق هذا الرجل العظيم رتبة الأسقفية بمشيئة الله الذي اختاره. **3)** قدم هذا الأسقف التقي نونوس إلى أنطاكية مع أخوته الأساقفة السبعة الأجلاء ورافقتُه أنا يعقوب البائس شماسه.

وعندما قدّمنا تبجيلنا لرئيس أساقفة أنطاكية طلب منا أن ننزل في دارة

تضم رفات الشهيد يوليان العظيم. وهكذا نحن والأساقفة الآخرون نزلنا فيها. ولسبب ما حدث تأخير. ففي أحد الأيام ترك كل الأساقفة صوامعهم والتقوا جميعا وجلسوا عند البوابة الخارجية لمزار الشهيد يوليان العظيم. وكانوا يتحدثون فيما بينهم في موضوعات مختلفة. **4)** ثم طلبوا من مطراني التقي نونوس أن يتحدث عن كلمة الله وهم جالسون ليفيدهم بتعاليمه الحكيمة، ولأنهم علموا أنه اعتاد أن يتكلم بالروح القدس، وأنه رفع معنويات كل من سمع بتعاليمه الإلهية.

هذا الأسقف التقي محب الله نونوس تكلم إذاً أمام أخوته ومرافقيه بأسلوب رائع فهللوا لكلماته معجبين بتعليمه. وفي تلك اللحظة فيما هم جالسون وأنا الشماس يعقوب قربهم أقف احتراماً له، مرت بنا فجأة مومس غنية تسير في مقدمة مجموعة من الممثلين. وهذه قصتها التي أحاول أنا يعقوب البائس، أن أكتبها وأرويها لمنفعة كل من يتوق إلى الحقيقة ويحب الله.

ظهرت تلك الغانية أمام ناظرينا جالسة باستقامة على حمار مزيّن بأجراس صغيرة وسرج مزركش، وكان أمامها حشد من خدمها، وقد تزينت هي بالذهب واللؤلؤ ومختلف أنواع الأحجار الكريمة، وتألقت بأكسيتها المترفة، غالية الثمن، ووضعت على معصميها الأساور والحراير وفي قدميها الخلاخيل المزخرفة بشتى أنواع اللؤلؤ، وحول عنقها الأطواق والسلاسل من اللآلئ والمعلقات. وقد أدهش جمالها كل من رآها وأسرّ برغبته فيها. **5)** أما الشبان والشابات فقد رافقوها بصلف ممسكين بأقدامها الدنسة وكانوا يتمنطقون بأحزمة ذهبية وقد علّقوا جواهر حول أعناقهم. بعض ركض أمامها وآخرون رافقوها بعظمة. وهكذا كان جمالها وحليها يستهويان كل من يراها فيحدق بها ملياً وقد فتنه مظهرها.

فلما مرّت هذه الزانية أمامنا نفذت رائحة عطورها وعبق زينتها إلى كل

من كان في جوارها. 6) ولأن الأساقفة كانوا جالسين هناك أدهشتهم تلك المرأة، وأذهلتهم ثيابها وروعة موكبها العابر قربهم وقد حسرت عن رأسها وشالها حول كتفيها دون حياء وكأنها رجل. وبتعاليها ووقاحتها لم يختلف ثوبها عن ثوب الرجال ما عدا زينتها وجلدها ناصع البياض كالثلج. وباختصار فإن مظهرها أثار كل من وقع نظره عليها واستغواه.

عندما رآها الأساقفة الأتقياء حوّلوا بصرهم عنها، وكأنها رجس أثيم. 7) لكن الأسقف نونوس الجليل تأملها بإمعان وهو مندهش حائر. فلما عبرت من أمامهم حوّل وجهه عنها بعيداً، ثم وضع رأسه بين يديه وبكى بحرقة بالغة، بكى كثيراً حتى امتلأ حجره بالدموع.

تنهد الأسقف نونوس التقيّ حزناً عليها وقال لأصحاب السيادة الأساقفة: «لنكن صادقين أيها الآباء. ألم يدهشكم جمال هذه المومس التي مرّت أمامنا»؟ فلاذوا بالصمت ولم ينبسوا بكلمة واحدة. 8) لكن التقي نونوس استمر يتنهد بمرارة وهو يلطم صدره وقد تأثر تأثراً عميقاً وبكى كثيراً حتى ابتل ثوبه المصنوع من الخيش بدموعه. كان يلبس دوماً ثوباً من الخيش ويخفيه بثوب من الصوف الناعم لئلا يُرى، وقضى حياته كلها في نظام قاس من النسك الصارم.

وخاطب أصحابه الأساقفة بعد نحيبه الطويل: «أرجوكم يا اخوتي أن تخبروني، هل اشتهيتم في سرّكم جمال تلك المومس التي مرّت من أمامنا؟ وهل عانيتم لأجلها؟ أنا نفسي دُهشتُ كثيراً بجمالها وعانيت بسبب زينتها وحليها التي ليست سوى شرك يطعمه الشيطان لكل من يراها، وحجر عثرة يقود إلى الهلاك الأبدي. فبضعفي ألتمس وأتضرع لله ليحولها إلى حياة الحق ويدعها تقف بطهارة أمام عرش عظمته المخيف».

حتى ذلك الحين كانت الغانية شركاً وحجر عثرة للجنس البشري. فقد عاشت حياتها في العالم عبثاً في تزيين نفسها مسببة الأذى

للكثيرين. 9) أتخيل أنها قضت حتماً ساعات في مخدعها وهي تكحل عينيها وتتزين وتلبس أجمل الثياب، وتنظر إلى وجهها في المرآة بانتباه شديد لتتأكد من نقائه وخلوه من كل ما لا يسعد من يراها. كل ذلك لكي تضلل عشاقها وتغويهم - عشّاقها اليوم، لكن الراحلون غداً.

10) بهذه الغانية يجب أن نوبخ أنفسنا. فنحن نؤمن أن لنا خدراً في السماء لا يزول، في مكان سيبقى إلى أبد الآبدين ونؤمن أن لنا خطيباً لن يموت ولن يفسد. لنا في السماء ميراث لا يمكن أن يقارن بالعالم كله، ولنا سعادة بهجتها وهناءتها التي لا توصف. وسعادتنا هي الشذى الذي لا يزول. «لَم ترَ عين ولا سمع أذن ولا تخيل عقل ما قد أعده الله لمحبيه». (1 كورنثوس 2: 9). ماذا علي أن أقول أكثر من هذا، لنا وعود كثيرة جداً مدخرة في الأعالي مع ربنا المتواري الذي لا يمكن أن يُرى. إنه هو من يجب إسعاده ولكننا نخفق في ذلك. من أجله يجب أن نزين أجسادنا وأنفسنا ولكن نخيب كلياً في ذلك، علينا أن نتبنى الآلام لنغسل بالحكّ قذارة الآثام، ولنتطهر من البقع الكريهة، ولكننا لم نبد أي انتباه لنفوسنا بمحاولة تزيينها بالعادات الجيدة ليرغب السيد المسيح في أن يسكن فينا. عار علينا ألا نتبنى الآلام لنجعل أنفسنا مادة تسعد اللّه كالآلام التي عانتها هذه الآثمة التي مرت أمامنا - لتسعد الرجال وتأسرهم، وبذلك تقودهم إلى الهلاك الأبدي بجمالها الشهواني.

حقاً يا أخوتي أنا في حالٍ من الذهول الشديد والعجب من نفسي ومنها. كان علينا أن نحاول إسعاد ربنا في كل الأمور بجهد أكبر مما بذلته تلك الآثمة على زينتها وتجميل جسدها، وربما يجب أن نذهب ونتتلمذ لدى هذه المرأة الفاسقة.

11) لما فاه الأسقف نونوس محب الله بهذه الكلمات تنهد الأساقفة الأجلاء من أصحابه عند سماع كلماته الحكيمة المفعمة بالمشاعر

والأحاسيس. فنهضوا يجللهم الأسى وتأنيب الضمير وذهبوا إلى أماكن إقامتهم. أخذني الأسقف التقي نونوس معه أنا (شماسه يعقوب) وذهبنا إلى مكان إقامتنا. وعندما صعدنا ارتمى على الأرض (حيث بُسط قماش من وبر الإبل) وقال وهو يلطم وجهه باكياً: «إلهي ارحمني أنا الخاطئ، لست أهلاً لأقف أمامك لأنني لم أحاول أن أزين نفسي لأجل وجودك. ما أنجزته تلك الآثمة في يوم واحد في تجميل نفسها يفوق كل ما فعلتُه خلال سنوات عمري. بأي وجه أستطيع النظر إليك يا إلهي؟ لا أعرف أي كلمات استخدمها في تبَرير نفسي بحضورك يا إلهي؟ أي عذر لدي أمامك وأنا أرى كل أسراري المخفية مكشوفة أمامك؟ لا. واحسرتي أنا الخاطئ الذي عندما أدخل عتبة هيكلك المقدس، وأظهر أمام مذبحك المجيد، أخيب في إظهار جمال نفسي الذي تريده أمامك».

**12)** «وبدلاً من ذلك أنا الخائب في تجميل نفسي كما تريد، أقف أمامك بغير استحقاق أنت المفعم بالرهبة والعظيم حقاً. وقد سمحت لي أن أكون الخادم الذي يشارك في أسرارك: فأتوسل إليك يا إلهي ألاّ تبعدني عن مذبحك السماوي، ولا تدع زينة هذه الآثمة تسبّب هلاكي أمام القضاء المخيف لعرشك القوي العظيم. لأنها مخلوق من الغبار والرماد قد وظفت اندفاعها الأهوج في محاولة إسعاد الشيطان أما أنا فقد أهملت إسعادك أيها الرب الحي الأبدي ولجأت إلى الاسترخاء. ومن خلال إهمالي طبعاً خلعت الثوب الجميل لوصاياك المقدسة. تلك الآثمة وعدت أن تسعد رجال الفسق، وحافظت على وعدها بتزيين جسدها هكذا». **13)** أما أنا فقد عاهدتك أيها الإله الرحيم عهداً مقدساً أن أسعدك لكني لم أكن صادقاً وها أنذا قد جردت من جميع الجماليات الروحية على الأرض وفي السماء. وبالتالي ليس لي أمل للخلاص بأعمالي. وبدلاً عن ذلك فإن قلبي المسكين يتطلّع إلى رحمتك يا إلهي ورجائك، لأنه بجزيل رحمتك فحسب لي أمل في الحياة. أنا الخاطئ يا إلهي أتضرع إليك متمنياً أن تختارني لمجدك الإلهي

لأنك أنت مَن زينتني بجمال سمائك الذي لا يزول، وأضرع إليك أيضاً أن تدعو هذه المرأة الضالة لتكون حاضرة أيضاً عندما تبحث عنها، فهي لم تهمل كل ما ابتكره الرجال الخطاة في بحثها المتواصل عن الضياع. بدّلها بمشيئتك يا ربّ مثلما سمحت بتحويل الماء إلى خمر لذيذ يبهج ويفرح». (4)

هذا ما قاله محب اللّه نونوس وهو يئن ويبكي ويعترف لله. قضى اليوم بكامله في الصلاة يصوم ويصلي وكان اليوم سبتاً. **14)** وتلاه يوم الأحد ـ اليوم المقدس ـ وبعد صلاته الصامتة دعاني نونوس التقي (أنا شماسه يعقوب) وقال: «يا بني حلمت هذه الليلة، حلماً أقلقني جداً كلما فكرت فيه ملياً. على كل حال، دع الله يفعل ما هو مفيد كما يشاء. فقد رأيت تواً في منامي كما لو أنني واقف بجانب طرف الهيكل، وفجأة طارت فوقي حمامة سوداء ملوثة بالوحل. لم يكن باستطاعتي تحمل رائحة الوحل المقززة على هذه الحمامة التي رأيتها لكنها ظلت ترفرف فوقي حتى ختام صلاة التعليم الديني، ولما قال الشماس في ذلك الحلم: 'اذهبوا أيها المتعلمون' رأيت الحمامة تطير خارجة في الحال وتختفي عن ناظري». **15)** وبعد صلاة المؤمنين، وتقديم القربان المقدس وانتهاء الخدمة ومغادرتي قدس الأقداس رأيت الحمامة أيضاً تطير نحوي ومازالت ملطخة بالوحل الكثير تماماً كما شاهدتها أول مرة. فمددت يدي وأمسكت بها ورميتها للحال في حوض الماء الكائن في بهو الكنيسة. وما أن رميتها في الحوض حتى رأيتها في حلمي تنفض عنها الوحل وتغتسل في الماء، فاختفت اللطخة الموحلة عن جسمها ثم رأيت ذلك الطائر يخرج من الماء ويطير للحال إلى المرتفعات في الأعالي حتى اختفى عن الأنظار ولم يعد يُرى. هذا هو الحلم الذي رأيته يا بني ومازلت أفكر فيه كثيراً وأعتقد أن تفسيره سيتحقق إن شاء الله.

**16)** هذا ما أخبرني به الأسقف الورع نونوس أنا شماسه يعقوب. قام وأخذني معه إلى الكنيسة الكبيرة مع الأساقفة السبعة الآخرين الذين كانوا

معنا. واقتربنا جميعاً لنحيي رئيس أساقفة مدينة أنطاكية في يوم الأحد المقدس.

ولما حان الوقت ليدخل الكهنة إلى صحن الكنيسة طلب رئيس الأساقفة من المطارنة الثمانية كالعادة أن يدخلوا هيكل الكنيسة لخدمة القداس، وهكذا دخلوا وجلسوا على (البيما) كل واحد منهم جلس في مكانه المناسب حسب رتبته. وبعد الانتهاء من الخدمة الفرضية والقراءات الكتابية وقراءة الإنجيل المقدس حان الوقت للموعظة التي تلي القراءات من الأسفار المقدسة. كان الناس ينتظرون ويتوقعون رؤية وسماع من سيعظ. فقرر رئيس الأساقفة أن يرسل الإنجيل المقدس مع شماسه الأرخدياقون ليعطى لنونوس الأسقف الورع مع الإذن بالوعظ.

**17)** وهكذا وقف الأسقف التقي نونوس، وفتح فاه وبدأ يتحدث عن كلمة الله بأسلوب رائع. متوهجاً بالروح القدس، وعظ دون أن يستخدم كلمات رنانة مزخرفة ومن غير تصنع (لأنه لم يكن يحمل شهادات علمية). لكن لأنه مملوء بموهبة الروح القدس تكلم كلمات موزونة رائعة. عبّر بوضوح عن معنى النص الإنجيلي مستعملاً كلمات حكيمة وهو يعلّم. ونتيجة لذلك تأثر كل الناس وأحسوا بالتوبة وهم يستمعون إليه. وكان موضوع موعظته العقاب المدخر للأشرار والرجاء الحسن للصالحين. بكى كل المصلين لكلماته، وابتلّت أرضية الكنيسة بالدموع.

**18)** وبعناية الله الرحيمة مرّ هاجس خيّر في ذهن الآثمة التي يتحدث عنها، فأقلقتها أفكارها كثيراً حتى إنها، على عكس عادتها، حضرت إلى الكنيسة في ذلك اليوم وانضمت إلى النساء الأخريات، ودخلت إلى الكنيسة حيث أبدت اهتماماً بالنصوص الكتابية المقدسة، وأكثر من ذلك ظلت هناك لتستمع إلى الموعظة.

ولما سمعت الموعظة وتعليم الأسقف نونوس محب الله تأثرت كثيراً

وشعرت بوخز الضمير. فانسكبت دموعها وهي تتنهد وفي غمرة تنهدها المؤلم تذكرت خطاياها. كانت تئن وتبكي بحرقة حياتها الآثمة حتى لفتت أنظار المصلين إليها. وتعرّفها المصلون جميعاً فتاة المدينة اللعوب المشهورة. ذلك أنها لما تأوهت وبكت بصوت عال بدأ الناس يتهامسون قائلين: «إنها حقاً تلك المرأة الخاطئة وقد اهتدت بفضل تعليم الأسقف نونوس محب الله. أما هي، التي لم تكن تبدي أي اكتراث لآثامها فقد أحست بالندم بغتةً، مع أنها لم تزر الكنيسة قط، تحول ذهنها فجأة إلى الدين والصلاة بسبب سماع الكلمات الإلهية من فم الأسقف الورع نونوس».

وبعد أن بكت كثيراً شعرت بوخز الضمير والندم، وغلبتها موعظة نونوس التقي لسلامة حياتها. وكان موعد تقديم القربان المقدس. فغادرت عند بداية الأسرار المقدسة مع التعليم الديني. **19)** ونادت اثنتين من خدم بيتها قائلة لهما: «انتظرا هنا حتى ينتهي القداس ومتى خرج تلميذ المسيح الأسقف نونوس الورع الذي سمعنا موعظته، تقصيا عنه جيداً واعرفا أين يقيم لتخبراني عن ذلك».

فلما تم تقديم القربان المقدس وانتهت الصلاة غادرنا لنذهب إلى أماكن إقامتنا لكن خادمتي المرأة الآثمة تعقبتانا كما طلبت منهما حتى عرفتا مكان إقامتنا، ثم عادتا في الحال لتعلما سيدتهما. كانت تواقة جداً لتتعرفه وتدعو الله أن يسمح لها برؤية نونوس محب الله الورع وتستمع إلى تعليمه. وزال من ذهنها تكبرها السابق تماماً، وحل محله الندم، وبدأت ترتعش وهي تفكر ملياً بالعقاب الذي ينتظر الخطاة في العالم الآخر والذي تقيمه عدالة الله. كما سمعت عنه، وكان الخوف يملأ قلبها، فتأوهت دامعة العينين أمام الله.

**20)** كانت بلاجيا مضطربة منسحقة القلب فكتبت على رقعة شمعية رسالة مؤثرة مفعمة بالعواطف ملتمسة خلاصها. وأرسلت تلك إلى الأسقف نونوس مع خادمتيها. وكان نصها: «إلى الأسقف الورع نونوس

من المرأة الخاطئة بلاجيا تلميذة الشيطان، مع التحيات. أتوسل إلى قدميك الطاهرتين يا سيدي لأني الآن قد سمعت شيئاً عن الله الذي تحبه من كل قلبك، وكيف أن جلاله انحنى نحونا ونزل من السماء إلى الأرض ولم يكن هذا من أجل الأبرار بل ليخلص الخطاة برحمته. هذا ما فهمت من قول المسيحيين أنه لا السرافيم ولا الشاروبيم تجرؤوا أن ينظروا إليه في السماء، قد جلس، وأكل وشرب مع الخطاة والعشارين حباً بهم لدى ظهوره على الأرض وتجواله بيننا بجسد إنسان. **21)** وكما تعرف أيها السيد البار، مع أنك لم تره بعينك. تحدث الرب إلى المرأة السامرية عند بئر الماء، وتحدث إلى الكنعانية التي هتفت به مدبراً، وكلم المرأة نازفة الدم التي شفاها ومريم ومرثا اللتان أقام أخاهما من الموت. فعل كل ذلك كما سمعت من المسيحيين والآن يا سيدي إن كنت تلميذ هذا الإله الذي قام بكل تلك المعجزات فلا ترفضني أو تردني عندما أطلب الحضور أمامك وأراك شخصياً في حال وجود إمكانية خلاصي بين يديك. وبذلك قد تنال الفخر بي أنا الخاطئة إن أصبحت تلميذة لإرشاداتك القويمة».

**22)** كتب الأسقف الورع نونوس إلى المرأة الآثمة الجواب التالي: «الله يعرف حق المعرفة ما أنت عليه، يعرف ويتفحص إرادتك ونيتك وأفكارك. ولكن هذا ما يجب أن أقوله لك: لا تحاولي أن تغويني أنا الإنسان الضعيف الحقير، لأنني إنسان خاطئ، ولم أكن قط باراً. إن أردت رؤيتي فافعلي ذلك بحضور الأساقفة السبعة معي: لا أستطيع رؤيتك بمفردي خوفاً من أن يتعثر البسطاء قليلو الإدراك فيذنبون».

**23)** لما تلقت المرأة المومس تلك الرسالة نهضت في الحال، وأسرعت إلى مزار الشهيد يوليان العظيم. فلما وصلت إليه أرسلت خبراً إلينا تخبرنا عن وصولها. وقبل وصولها دعا الأسقف التقي محب الله نونوس أصحابه الأساقفة وجعلهم يجلسون معه، ثم طلب منها أن تقف بحضورهم. **24)** فلما اقتربت ورأتهم سجدت أمامهم جميعاً ثم رمت

نفسها على الأرض تعانق قدمي نونوس التقي بعاطفة جياشة، وبدأت تبكي وتتأوه حتى ابتلت قدما الرجل الورع بدموعها. ومن غير أن تلاحظ ما يحدث مسحت بوجهها غبار قدميه. وفيما هي تتذلل أمامه كانت تحثو التراب من الأرض إلى رأسها متوسلة إليه، تقول له وهي تئن: «أتوسل إليك أن تتحنن علي أنا الخاطئة. أنا زانية وجسدي مسكن نتن تعثر به كثيرون وذهبوا إلى الهلاك. أنا مصيدة الشيطان الشريرة، نصبني وبي اصطاد كثيراً من الناس وأهلكهم. أنا وحش كاسر يُصطاد به فراخ النسر السماوي، وذئبة ماكرة وبدهائي وخداعي أجهزت على الخراف والحملان البريئة. أنا فندق موحل بعيد القرار فيه تلوث كثيرون فأصبحوا قذرين. كانوا أنقياء لكني أفسدتهم، أشفق عليّ أيها السيد التقي والطاهر. أرجوك كن كقائدك المسيح الذي لم يحول وجهه عن الخطاة بل تحنن عليهم بسماحته ولطفه. صُبّ علي لطفك مقلداً إياه، وإلا سأهلك وأموت بخطاياي. إني عثة هدامة قرضت كثيراً من الأجسام التي كانت سليمة من قبل. اجعلني مسيحية منذ هذا اليوم. أنني بحر من الآثام، خذني يا سيدي وطهرني بإرشاداتك النقية. ولأنني هوّة من الشرور، خذ مني اليوم آثامي وشروري، وبصلواتك أبعدها عني، طهرني في حوض معمودية إلهك. قف أرجوك يا سيدي وتضرع باسم الثالوث الأقدس. عمدني لتُمحى آثامي. قف يا سيدي وانزع عني ثياب الفحشاء القذرة. ألبسني الثياب الطاهرة، ثوباً نقياً لأجل المائدة الجديدة التي أتيت إليها.

**25)** ولما شاهدوا انفعال الآثمة وإيمانها بكى الأساقفة والآباء وكل الذين كانوا حضوراً بالمصادفة. بكوا بكاء غزيراً. وبجهد بالغ أقنعها الأسقف التقي نونوس لتقف وتبتعد عن قدميه، وعندما لبّت طلبه قال لها: «يا بنتي: لا تسمح قوانين الكنيسة بتعميد آثمة إلا إذا ضمنها بعض الأشخاص وإلا قد تستمر في طريقها السابق».

**26)** لما سمعت تلك الكلمات انطرحت للحال على الأرض ثانية وعانقت قدمي نونوس الورع وظلت متمسكة بهما ثم قالت وهي تبكي وتنوح: «ستكون أنت مسؤولاً أمام الله إن لم تعمدني الآن، وسيطلب الله نفسي منك، ويدرج كل مآثمي التي قمتُ بها بذمتك إن رفضت تعميدي الآن. ستشاركني في شرور طرقي. لا. يجب أن تعمدني حالاً لتبعدني عن أعمالي الشريرة. وأنت ستكون غريباً عن مذبحك المقدس وتنكر إلهك إن لم تجعلني عروساً للمسيح في هذا اليوم واهباً إياي ميلاداً جديداً بالمعمودية، وتقدمني لإلهك الذي بنفسه سيضمنني عندك اليوم. لأنني لن أعود إلى خندق الوحل الذي منه انتشلتني إلى الحياة الأبدية. سيدي لا تخف مني. انهض واقبلني أنا الخاطئة كما قبل ربك الخطاة».

**27)** مجّد الله كل الأساقفة والحضور، حين رأوا كيف أن ذهن تلك الزانية الخاطئة يعترف بمحبة الله.

دعاني الأسقف التقي نونوس آنذاك أنا شماسه يعقوب - وزودني ببعض التعليمات، وأرسلني إلى المدينة لأخبر رئيس الأساقفة عن كل ما جرى، لكي يسمح له بالتصرف بالطريقة التي يراها تجاه تلك الآثمة. ووجه إلي أوامر صارمة فقال: «دع رئيس الأساقفة يرسل معك إحدى الشماسات إن كان يسمح لنا بتعميدها».

**28)** وهكذا، أنا يعقوب البائس، ذهبت إلى رئيس الأساقفة وأخبرته عمّا طلبه مني الأسقف نونوس محب الله أن أقوله. أخبرته عن هداية الفاسدة ووصفت له تأثرها وعهدها. أعدت على مسامعه كلّ شيء دون حذف كلمة واحدة.

سُر رئيس الأساقفة كثيراً وقال لي: «عُدْ إلى أخينا الأسقف التقي نونوس، الأب المبارك والمعلم الحكيم، وأخبره أنني سعيد جداً بالرسالة التي أرسلها إلي وإنني فعلاً علمت علم اليقين أن هذه الحادثة العظيمة والرائعة قد

اذُخرت لك، بانتظار أن تتحقق على يديك. لأنني أعرف أنك مثل فم الله فهو الذي قال: «إن أخرجت الثمين من المرذول فمثل فمي تكون». أما عن نهاية الأمر فتأكد أنني سعيد جداً إذ أنك ستنفذ حتى النهاية ما قد بدأته. وسيفرح ذلك السيد المسيح وسينوّر الكنيسة بأكملها، وسيأتي بالخلاص أيضاً، خلاص حياة هذه الزانية. عمّدها، إذاً باعتراف منها. وهكذا قد سمعنا الموضوع الآن، ونوافقك على طريقة معالجتك الموضوع معالجة حكيمة والتي تكشف عن الفرح. ما تفكر فيه سليم فالصواب أن تعمدها، تماماً كما هديتها. وببساطة دع المرأة الفاسقة تصبح عفيفة، ودع الخاطئ يتبرر وليتمجد ربنا».

ثم أرسل لإحضار الشماسة رومانا من بيتها (وهي رئيسة الشماسات). طلب منها أن تذهب معي، وتطيع الأسقف التقي نونوس وتفعل ما يطلب منها.

**29)** وهكذا عدنا أنا والشماسة رومانا إلى أبينا نونوس الورع. فوجدنا الفتاة مازالت منطرحة على الأرض، تبكي عند قدميه فاقتربت منها الشماسة رومانا ورجتها أن تنهض وقالت لها: «انهضي يا أختي استجمعي شتاتك واستعيدي قوتك في الاستعداد لتقبّل ما دعتك إليه النعمة الإلهية. انهضي يا أختاه، ودعينا نصلي لك لنبعد عنك كل قوى الشيطان».

وبصعوبة بالغة قبلت أن تنهض، لكنها استمرت تبكي. ثم وجهنا الأسقف لإحضار كل ما هو مطلوب استعداداً للمعمودية المقدسة. ثم خاطب الزانية وقال: «افتحي فاك واعترفي بالله، وارفضي خطاياك أمامه».

قالت المومس وهي باكية «إني فحصت ضميري بدقة فلم أجد عملاً صالحاً قد فعلته. أعرف أن خطاياي أثقل وأكثر عدداً من حَبات الرمل على الشاطئ. وأن مياه بحار العالم لا تكفي لغسل أفعالي الشريرة والسيئة. ولكني أعتقد أن الله رحيم، وسيغفر ذنوبي الكثيرة تماماً مثلما غفر خطيئة

الزانية في الإنجيل أو المرأة الكنعانية أو السامرية، فالله لم يغلق بابه أمام وجوههن لكنه أشفق وتحنن عليهن إذ وجدهن يستحققن شفاء أجسادهن ومغفرة خطاياهن، وأنا أيضاً اعترفت وأعترف بأني شريرة وسيئة، إلهي شفوق ورحيم. فأرجوك يا سيدي أنت الكاهن الحقيقي والأب المتسامح الذي يهب ولادة روحية جديدة أن ترحمني، خذني واغسلني بالنار والروح.

30) وهنا قال لها التقي نونوس: «اذكري اسمكِ لأستطيع أن أقدمك لله». فأجابت المومس: «أبواي الحقيقيان أسمياني بلاجيا، ولكن مدينة أنطاكية حيث ولدت سمتني (مرغونيثو)[5] بسبب المجوهرات الكثيرة التي لبستها، وافتخرت بها. فأنت تراني حتى الآن أشبه بواجهة محل الشيطان ومسكنه».

تابع التقي نونوس كلامه قائلاً: «من يوم ولدتِ كان اسمك بلاجيا»؟ «نعم سيدي»: أجابت السيدة. فلما عرف الأسقف اسمها صلّى صلاة الاستغفار، ورسمها ثم مسحها بالزيت. وقد أبدت المرأة تخليها عن الشيطان قائلة: «أكفر بك وأكفر بقدراتك أيها الشيطان». وما فتئت تبكي وتقول: «أعترف بك أيها المسيح وبأبيك وبروحك القدوس الحي. أعترف بكنيستك ومعموديتك، أعترف بملكوتك في العلا وبقوتك السماوية، أعترف بمذبحك المقدس على الأرض وبأسرارك المخفية في السماء وبكهنتك الأطهار المشهورين الذين يخدمون أمامك. أنكر الكذبة التي اختلقتها ومهنة الدعارة التي مارستها حتى الآن».

وبعد هذا الاعتراف عمد نونوس التقي بلاجيا وتلقتها الشماسة رومانا، أمها الروحية، من مياه المعمودية. ثم تناولت المرأة جسد السيد المسيح ودمه من يدي مار نونوس التقي الشهير.

هذه المناسبة سببت الفرح والبهجة لله وملائكته في السماء وعلى الأرض،

وللكنيسة بأكملها وكهنتها. ما أن تطهرت بلاجيا كعروس المسيح حتى أخذتها الشماسة رومانا إلى مسكننا بعد أن ذهب الأساقفة أيضاً إلى هناك.

**31)** قال لي نونوس التقي الذي أنا شماسه يعقوب: «يجب أن نفرح اليوم يا بني ونهلل مع ملائكة الله القديسين المبتهجين في هذا اليوم لأننا عثرنا على بلاجيا حمل المسيح الضال. دعنا يا بني اليوم نأكل طعامنا بالزيت ونشرب بعض الخمر بسبب الولادة الجديدة والخلاص العظيم لبلاجيا عروس المسيح البهية هذه».

أعددتُ كل شيء حسب التعليمات وبينما كنا نأكل مسرورين ظهر لنا الشيطان فجأة على صورة إنسان مغضب عابس وبأكمام طويلة معقودة، ويده على رأسه يشكو بصوت عال قائلاً: **32)** تباً لك أيها الرجل العجوز الأحمق الذي يقتات من شعره الأبيض ألم يكفك الثلاثون ألف عربي الذين خطفتهم مني فعمدتهم ووهبتهم لإلهك؟ ألم ترضَ بمدينتي هليوبوليس - بعلبك حيث هديت عدداً كبيراً من النساء اللواتي كن يعبدنني ويكرمنني؟ وها أنت الآن تذهب وتأسر هذه السيدة المغرية وتعمدها مبعداً إياها عن خدمتي ومقدماً إياها إلى ربك. لم تقتنع بالوثنيين الذين أغويتهم وأبعدتهم عني هادياً ومقدماً إياهم لإلهك؟ لكنك اليوم سعيت لقطع كل آمالي. تباً لك أيها الرجل العجوز المنحوس سيئ الحظ: لا أستطيع أن أتحمل حيلك البارعة. ملعون هو اليوم الذي شاهد ولادتك. النهر الذي يفيض بالدموع التي سكبتَها قد جرف الوعود والعهود التي تعهدها لي عدد كبير من الناس. حطمت آمالي اليوم، فماذا علي أن أفعل بك أيها اللص الخطير الذي نهبني كما لو كنت قبراً، وآذاني إذ أبعد عني هذه المرأة فأحياها بعد أن كانت كجثة أقيدها بالخطايا.

هكذا كانت كلمات الشيطان عندما ظهر لنا ولجميع الأساقفة معنا. كل الموجودين، وبينهم بلاجيا والشماسة ورومانا اللتان حدقتا ملياً بذلك

الشيطان، سمعوه يصرخ ويشتم نونوس التقي. **33)** ثم ترك إبليس الرجل الورع والتفت موجهاً كلامه إلى بلاجيا، كان يئن وكأنه إنسان يبكي، فصرخ قائلاً: «هل هذا ما أستحقه يا بلاجيا؟ ألم تكوني لي وأنا لك حتى الآن؟ كيف تفعلين هذا بي؟ قد جعلتني أضحوكة لهذا الرجل الأشيب ولكل من سمع أنك نبذتني، ألم أكن أنا الذي علمك كيف تتزينين وتصبحين محط اشتهاء كثيرين؟ ألم أحضر لك جماهير المحبين ليرضوا احترافك الدعارة؟ ألم أخضع الأغنياء والنبلاء ليحضروا لك أغلى الهدايا بسبب شبقهم الجارف؟ لم تحولت ضدي وخدعتني هكذا؟ لم فعلت هذا بي ونبذتني بسبب بضع كلمات مخادعة فقط من هذا الرجل العجوز المنحوس؟ ظل طوال حياته يزعجني بحيله في كل مكان: إنه كالشوك القذر حيثما ذهب. سأجلب عليه بعض النكبات إن لم تتخلي عنه وتعترفي بي تماماً كما كنت تخضعين لمشيئتي في الأيام الماضية».

ثم قال نونوس الورع لبلاجيا، عروس المسيح: «وبخي هذا الشيطان يا بنتي، وبخيه ولا تخشيه لأنه ضعيف وعاجز أمام الروح القدس الذي لبسته اليوم».

رسمت بلاجيا إشارة الصليب للحال، ثم استجمعت شجاعتها ووبخت إبليس الذي كان قد تخلى عنها. وهكذا جعلته يهرب ويختفي عن أنظارنا.

**34)** وبعد يومين جاء الشيطان بهدوء وأظهر نفسه لبلاجيا وهي نائمة بجانب أمها الروحية الشماسة رومانا. وبهدوء أيقظها وقال لها بلطف: «مرغونيثو، ما الخطأ الذي ارتكبتُه حتى تحولت ضدي؟ ألم أجملك بالذهب والجواهر، مغدقاً عليك المال والجاه؟ أرجوك أخبريني لمَ خدعتني وضللتني؟ دعيني من فضلك أشرح لك، ولا تنبذيني وإلا سيسخر مني الجميع بسببك».

**35)** ولكن بلاجيا رسمت إشارة الصليب بشجاعة، ونفخت على

الشيطان فاختفى. وصرخت بوجهه قائلة: «ليوبخك سيدنا يسوع المسيح ابن الله الحي. إنه هو الذي خطفني منك وجعلني عروساً للخدر السماوي».

ثم أيقظت رومانا الشماسة وقالت: «أماه صلي لأجلي لأن ذلك الشرير قد أتاني وأزعجني». فأجابت الأم الشماسة: «لا تضطربي منه يا بنيتي الحبيبة لأنه سيخافك من الآن فصاعداً وسيهرب من ظلك بالذات».

وهكذا رسمت كلتاهما إشارة الصليب: الأم وابنتها، وعنّفتا الشيطان باسم يسوع فاختفى ولم يظهر لهما ثانية.

**36)** في اليوم التالي ولأنها انقطعت كلياً عن الأعمال الشريرة فكرت بلاجيا التقية كنسر تجددّ شبابُه ونادت وكيل أعمالها الذي كان مسؤولاً عن ممتلكاتها. طلبت منه أن يذهب إلى منزلها ويُعد قائمة بكل ما تملك من ذهب وفضة وكميات من المجوهرات مع خزانة ملابسها الغالية، وكان عليه أن يحضر القائمة لها لأنه منذ أن سمعت هذه السيدة بهية الطلعة كلمات نونوس التقي واهتدت مبتدئة حياة الندامة لم تعد إلى منزلها قط، ولم تعبر عتبته وبدلاً من ذلك بقيت معنا نادمة في مزار المسيح حتى إتمام معموديتها.

ذهب وكيل أعمالها إلى منزلها كما طلبت، وعاد بقائمة تحصي ثرواتها كلها دون أن يخفي شيئاً. **37)** وعليه أرسلت بلاجيا البهية بوساطة الشماسة رومانا في طلب الأسقف التقي نونوس لزيارتها. وعند وصوله إلى المكان الذي كانت تمكث فيه التمست بلاجيا منه بصدق أن يقبل ثروتها كاملة. فسلمته كل ما تملك وقالت: «سيدي ها هي ذي الثروة التي منحني إياها الشيطان مقابل إثمي في البغاء. من الآن فصاعداً أضعها برعايتك يا سيدي. افعل بها ما يحلو لك. ما يهمني من اليوم فصاعداً هو أن ثروة المسيح التي منحتُها على يديك كافية لي وقد اغتنيت بها أضعاف ما كنت أملك».

**38)** ثم جمعت خدمها وخادماتها كلهم وحررتهم بحسب القانون، وأعطت كل واحد منهم الهدية المناسبة ثم صرفتهم قائلة: «كنتم حتى الآن خدمي تعيشون حياة الخطيئة والفسق، واسُتعبدتم لعبودية البغاء الأثيمة، والآن قد حررتكم من الشر الذي استعبدكم فعليكم من جانبكم أن تحرروا نفوسكم من عبودية الشيطان والخطيئة. ومن الآن لن تعملوا لأجلي ولن تكونوا ملكاً لزانية».

ثم صرفتهم فودعوها وغادروا مندهشين من التغيير الذي طرأ على سيدتهم بلاجيا. **39)** لما تسلم نونوس البار ثروة بلاجيا كلها، أرسل في طلب وكيل الكنيسة العظيمة في أنطاكية، وبحضور بلاجيا سلمه كل ما كانت تملك قائلاً له: «استحلفك بالثالوث المجيد ألا تدع شيئاً من هذه الممتلكات يدخل كنيسة الله أو يعطى لأي أسقف. لا تدع شيئاً منها يدخل بيت أي واحد من الأكليروس، وحتى بيتك. لا تدع أي شيء يتلوث بها إما عن طريق وكالتك أو وكالة أي شخص آخر ولو أنها قد تبدو مرغوبة وجيدة، ومفيدة في الغالب، لكنها جمعت بطريق خطيئة الزنى. فلا تفرح بهذه الممتلكات، إذ تخلت عنها عروس المسيح هذه ورفضتها كأنها لا شيء مقابل ما بان لها من الثروة الروحية فكم بالحري نحن، فعلينا أن نعتبرها نجسة ودنسة ولا نبدلها بالثروة السماوية التي كنزت لأجلنا، فإنها طاهرة غير دنسة وبهية. انتبه إذاً يا بني آخذاً بعين الاعتبار ما أمرتك به تحت القسم. إن خالفت هذا القسم ستحل لعنة اللّه على بيتك وستعد واحداً من أولئك الذين صرخوا: اصلبه، اصلبه. لا، يجب أن تستخدمها فقط لتعيل الأيتام والفقراء والمحتاجين والمعوزين. وبهذه الطريقة، تماماً كما جمعت بأسلوب سيئ وخاطئ هكذا ستقدم المساعدة بأسلوب عادل وصالح. فما كان ثروة الخطيئة سيكون كنز الاستقامة».[6]

وبحسب ذلك تسلم الوكيل الأمانة من الرجل التقي خادم المسيح نفسه. فأخذ الوكيل الثروة كلها ووزعها على صورة إعانات منفذاً تماماً

التعليمات التي أخذها من الأسقف نونوس بحضور التقية بلاجيا فلم يعارض أو يغير أوامره.

دهش الجميع لكل ما فعلته عروس المسيح بلاجيا، وكيف أنها أفادت كثيرين بعملها هذا. أما كل معارفها الفاسدين فقد تأثروا كثيراً وبكوا عند رؤيتها وهي تتبنى طريقة جديدة للحياة. وتبتعد عن أصدقائها القدامى، وشعروا كلهم بالحيرة وسألوا: أنّى لمومس مشهورة أن تصبح سيدة عفيفة في ليلة واحدة؟ وكثيرون ارتفعت معنوياتهم بسببها.

عندما شاهدت زميلات بلاجيا المومسات وجيرانها ما فعلت، تأثرن أيضاً ووخزهن ضميرهن، وبدأن يبكين على أنفسهن. اهتدت الكثيرات منهن إلى العفة وهجرن كلياً حياة الدعارة وذهبن ليتلقين التعليم عن المسيح. جئن إلى بلاجيا العفيفة فأعطتهنّ النصائح، وحثتهن على فعل ما فعلت. واستجاب عدد كبير من العاهرات لنصحها واهتدين بعروس المسيح العفيفة.

قدّر كثيرون فعل بلاجيا، وبسببها مجّد كل الناس ربنا.

**40)** وصامت أمة الله عن الأكل والشرب في منزلها خلال الأيام السبعة بعد عمادها. وفي أثناء هذه الفترة لم تستعمل أي شيء مما تملكه، وبدلاً عن ذلك وفّرت الشماسة رومانا لها الطعام وكل ما طلبته على نفقتها الخاصة مدفوعة بإيمانها ومحبتها مثل أمٍ حنون، واعتبرت بلاجيا ابنتها الحبيبة فاعتنت بها. وأقسمت بلاجيا حينئذ بألا تلمس شيئاً كانت اشترته من الثروة التي جمعتها بالخطيئة. وبقيت وفية لقسمها ولم تأكل أو تشرب مما كان ملكها سابقاً، حتى إنها رفضت أن تتلقى أي شيء من منزلها، ولم تدخله ثانية قط. ولم تأخذ مما كان لها شيئاً لتوزعه على الآخرين وقالت للناس: «حاشا لي أن أعيش من مكاسب الدعارة بعد الآن أو أفكر حتى بها». وبالمقابل اعتبرت ثروتها أسوأ من الدم وأقبح من وحل الدروب النتن.

**41)** انتهت أيام عرسها الروحي بعد عمادها وحلّ اليوم الثامن المبارك وهو الأحد، وحان موعد خلع رداء المعمودية المقدس حسب دستور الكنيسة، وعند انتهائه نهضت في آخر الليل مع فجر الإثنين وذهبت إلى الأسقف نونوس التقي فركعت أمامه على الأرض وتلقت البركة منه آنذاك سمح لها أن تخلع ثوب المعمودية المقدس، لكن بلاجيا الطاهرة توسلت إلى كاهن المسيح بإلحاح بأن يسمح لها أن تأخذ بعضاً من ثيابه وتلبسها بدلاً من ثيابها السابقة. فوافق الأسقف التقي نونوس على طلبها وأعطاها بعض ثيابه - قميصاً من الوبر وعباءة من الصوف. فخلعت للحال ثياب المعمودية ولبست ثيابه ثم ركعت عند قدميه وتلقت بركته بعد أن كشفت له ما خططته لغدها.

في تلك الليلة غادرت وهي مرتدية ثياب رجل وخرجت سراً دون أن نعلم السبب ولم تُشاهد في المدينة بعد ذلك. ولا يعرف سرها حتى الآن سوى الأسقف الورع نونوس الذي لم يخبر أحداً بما جرى. حتى أنا يعقوب الذي خدمه كشماس.

وعندما طلع الصباح ساد قلق شديد لأن بلاجيا لم تكن في أي مكان. لم تكن معنا ولا في أي مكان آخر في المدينة بأكملها. **42)** بكت الشماسة رومانا حزناً عليها واستمرت تسأل عنها في كل مكان ولكن الأسقف التقي نونوس ابتهج كثيراً لأنه الوحيد الذي كان يعرف سبب رحيل بلاجيا. أخبر الشماسة رومانا قائلاً: «لا تيئسي ولا تبكي لأجل أختك بلاجيا بل ابتهجي كثيراً لأنها اختارت النصيب الصالح تماماً كما فعلت مريم أخت ألعازر».(7)

حدث كل هذا في المدينة العظيمة أنطاكية. **43)** وبعد بضعة أيام ودع رئيس أساقفة أنطاكية كل الأساقفة الوافدين الذين كانوا هناك، وعدنا نحن وكل منهم إلى بلداتنا وكل مدننا الخاصة.

مرت ثلاث سنوات فشعرت أنا الشماس يعقوب بالحاجة إلى الذهاب للصلاة في أورشليم مدينة اللّه. أردت أن أبجلّ صليبه وأتلقى البركة من موقع القيامة. فاقتربت من التقي نونوس - أسقفي - وطلبت أن يسمح لي بالذهاب، فوجّهني قائلاً: «عندما تصل إلى أورشليم المقدسة، اذكرني في صلواتك في جميع تلك الأماكن المقدسة التي زارها سيدنا المسيح. ثم سل بعد ذلك عن راهب يدعى بلاجيوس فإذا تأكدت أنه هناك فاذهب وزره للاستفادة منه. إنه حقاً خادم اللّه المخلِص الوفي والراهب المثالي في خدمته».

كان يتحدث إلي آنذاك عن بلاجيا خادمة الله لكنني لم أفهم مغزى تلميحه، ولم يرغب أن يوضح لي الموضوع بصراحة. وهكذا أرسلني ببركة وبدأت بسلام.

44) أخيراً وصلت إلى الأرض المقدسة أورشليم. صليت وتلقيت بركة زيارة قبر سيدنا المسيح وكل الأماكن المقدسة التي تنقل فيها وأدى رسالته العظيمة. وفي اليوم التالي خرجت، أنا يعقوب، لأستفسر عن مكان الراهب بلاجيوس. وبعد بحث طويل علمت أنه يقيم على جبل الزيتون حيث اعتاد سيدنا المسيح أن يصلي مع تلاميذه. وعلى ذلك صعدت إلى جبل الزيتون وتابعت التحقيق حتى وجدت صومعته. كان الراهب معروفاً جداً في المنطقة ومحترماً جداً.

عندما اقتربت من صومعته وجدتها لا باب لها، وبعد بحث دقيق وجدت نافذة صغيرة في الجدار الأمامي. فطرقت عليها ففتحتها بلاجيا خادمة الله. كانت في ثياب رجل وقور. 45) اقتربت وحيّتني بتواضع عظيم، وفرحت كثيراً لوصولي منذ اللحظة التي رأتني فيها. كانت في الداخل وأنا في الخارج. ولم أتعرفها أنا لأنها قد كانت فقدت جمالها الذي عرفته، جمالها المدهش الأخّاذ قد خبا، وجهها البهي الضاحك الذي عرفته قد أصبح قبيحاً. عيناها الجميلتان أصبحتا باهتتين غائرتين بسبب الصوم

والسهر الدائم. كانت مفاصل عظامها منجردة يرى من تحتها جلدها من شدة الهزال بسبب الممارسات النسكية. وبشرة جسمها خشنة كلياً وداكنة كالخيش بسبب قسوة الكفارة الذاتية التي تمارسها.

كانت أورشليم بكاملها تدعوها بالخصي ولم يشك أحد في أنها رجل، وأنا أيضاً لم ألاحظ عليها ما يشير إلى سلوكها كامرأة ـ نلت البركة منها وكأنني أنالها من رجل خصى نفسه وأصبح راهباً معروفاً وتلميذاً صالحاً للمسيح.

**46)** فتحت بلاجيا التقية فمها وتحدثت إلي كرجل قائلة: أعتقد أني رأيتك في مكان ما يا أخي، إلا إن كان شخصاً يشبهك تماماً فقسماً بحياتك لا تحجب عني الحقيقة ألست شماس الأسقف التقي نونوس من أبرشية أنطاكية؟ الذي تدرب في مصْر؟

أجبت: «نعم يا سيّدي أنا حقاً تلميذ خادم اللّه ذاك، المعجب بك».

ثم سألت: «هل مازال على قيد الحياة»؟

أجبت: «نعم، ما زال حَيّاً وقد طلب مني أن أستفسر باهتمام عن حياتك الرائعة وأزورك وأحييك يا صاحب الفضائل الكثيرة فأضافت قائلة: «مبارك ربنا الذي حفظ حياته حتى اليوم، ليصلٍّ من أجلي لأني أعرفه تلميذ ربنا. ومن فضلك أنت أيضاً يا سيدي صلِ من أجلي وحيي الأسقف التقي نونوس وكل مرافقيه».

هذا كل ما قالته لي بلاجيا المباركة. ولأنها اتخذت مظهر رجل لم أعرفها. ثم أغلقت نافذتها في الحال ودخلت إلى صومعتها دون أن تتفوه بكلمة أخرى. فلما دخلت صومعتها وكنتُ ما أزال واقفاً هناك مستغرباً، بدأتْ ترتل صلاة الساعة الثالثة. **47)** فانضممت إليها في الصلاة حالاً وشكرتها، وغادرت متأثراً بالمسلك الفاضل لحياة رجل اللّه هذا دون أن أدرك أنها امرأة ودون أن أعرف أنها بلاجيا ابنتنا بالمسيح.

أنا يعقوب قضيت كل يوم أتجول لأرى الأديرة المقدسة ونلت بركة رهبانها، وسمعتهم يسردون القصص عن الأعمال المجيدة للراهب بلاجيوس الذي عاش حبيساً على جبل الزيتون وقام بالمعجزات. **48)** كنت مندهشاً حياله. ثم أتى بعض الأشخاص وأعلنوا أن الراهب بلاجيوس الحبيب على جبل الزيتون قد رقد في الرب فلما سمعت هذا ابتهجت كثيراً شاكراً الله الذي وجدني أهلاً لأتلقى البركة من جثمانه.

**49)** تم تجمع رهبان أديرة أورشليم وأريحا وعبر الأردن وبلدة عمواس. اجتمعوا كلهم على جبل الزيتون ـ عدد ضخم من الرهبان لرؤية دفن بلاجيوس الحبيس، وصعد أعداد كبيرة من الناس رجالاً ونساءً من جميع أنحاء أورشليم لينضموا إلى موكب الجنازة إكراماً لبلاجيا التقية التي كانت معروفة بالرجل الصالح. اقترب الأسقف وإكليروس أورشليم بأكمله، ومعهم رؤساء الأديرة الموقرون وفتحوا صومعة بلاجيا التقية فأخرجوا جثمانها ووضعوه على نعش حيث اقترب الأسقف وكل الأتقياء المحليين لمسحها بزيت معطر. حينها اكتشفوا أنها امرأة، فأمسكوا أنفاسهم والدهشة في قلوبهم. ثم رفعوا أصواتهم مسبحين وقائلين: المجد لك يا الله، كم من القديسين لك على الأرض ليسوا فقط رجالاً بل نساء أيضاً.

**50)** أرادوا أن يخفوا هذه الحقيقة المدهشة عن الناس فلم يستطيعوا ليتحقق بذلك ما كتب في الإنجيل المقدس: «لأنه ما من محجوب لن يكشف وما من خفي لن يعلن». وسرعان ما علم الناس بهذه الأعجوبة.

وحمل الجمهور كله رجالاً ونساءً عدداً كبيراً لا يحصى من المشاعل والشموع، وبدأوا يسيرون في الموكب تكريماً لبلاجيا المباركة، السيدة الصالحة، حملوا جثمانها التقي وشيعوه بإيمان حقيقي ودفنوها بتكريم لائق وبكثير من العظمة والفخامة ممجدين الله. وهكذا تحققت كلمات الإنجيل

التي تشير إلى أمثالها: «هكذا فليضئ نوركم أمام الناس ليروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السماوات».

51) أنا يعقوب الخاطئ الشماس قد كتبت لكم، يا مَن تحيون الله، هذه الأعمال المجيدة المتعلقة بامرأة كانت عاهرة ثم أصبحت إناء صالحاً، وهذا هو الإطراء الذي تلقيناه بسببها إذ كانت منبوذة لكنها فيما بعد أصبحت من المختارين. دعونا نصلي ليمنحنا الله الرحمة معها في الدينونة عندما يكافأ الصالحون ويعاقب الخطاة.

من بين الرجال والنساء الذين تابوا جميعاً، أو الذين سيتوبُون، ومني أنا الخاطئ الذي رأى وكتب هذه السيرة نرفع المجد والشكر والتسبيح للآب والابن والروح القدس الآن وفي كل أوان وإلى دهر الداهرين آمين.

# 3) شهيدات فارسيات

**مقدمة:**

مع أن المسيحية في بدايتها كانت غالباً محصورة ضمن حدود الإمبراطورية الرومانية إلا أنها كانت في منطقة تقع خارج الإمبراطورية حيث ازدهرت المسيحية منذ الأيام الأولى، وهي المنطقة المسماة الآن بالعراق وغربي إيران والتي كانت منذ القرن الثالث المركز الرئيسي للإمبراطورية الساسانية. وبالرغم من توقف اضطهاد المسيحيين في الإمبراطورية الرومانية بهداية قسطنطين فقد بدأت الاضطهادات بجدية بعد فترة قصيرة عبر الحدود الممتدة نحو الشرق في القرن الرابع، إبان كانت العداوة في أشد حالاتها بين الإمبراطوريتين.

إن نشأة المسيحية في الإمبراطورية الفارسية يلفّها الغموض، ولكن في منتصف القرن الثالث كان هناك عدد لا بأس به من المسيحيين الناطقين بالسريانية في مدن عديدة، فارتفع العدد في فترة قصيرة تحت تأثير دخول عدد كبير من المترحلين المسيحيين المتحدثين باليونانية كأسرى حرب من قبل شابور الأول في حملات عسكرية متتالية منذ عام (256 م) والأعوام التالية حين نجح شابور حتى في أسر الإمبراطور الروماني فاليريان نفسه. وتعد هذه الحادثة من أعماله المجيدة إذ هي منقوشة في صخرة ما زالت ظاهرة بوضوح في (نقشي رستم) في إيران. واستوطن عدد كبير من هؤلاء الأسرى في مدينة أعاد تأسيسها شابور تحت اسم: جندي شابور، «شابور أفضل من أنطاكية» (لإحياء ذكرى احتلاله مدينة أنطاكية السريانية عام 256 م).

لتصبح فيما بعد مقراً لمدرسة طبية هامة. إلا أن المصادر السريانية مازالت تسميها بالاسم الآرامي القديم والأوحد لها: بيث لابات.

وفيها قتل ماني مؤسس الديانة التوفيقية الفريدة[1] التي انتشرت عبر آسيا في عام (276 م). امتد اضطهاد المانيين ليصل إلى المسيحيين. وقاد هذا الاضطهاد ملوك المجوس الذين منهم كارتر الذي ترك لنا تفاصيلِ عن اضطهاده الناجح للأقليات الدينية وضمن ضحايا هذا الاضطهاد المبَكر في الدولة الفارسية امرأة اسمها كانديدا التي لدينا تفاصيل عنها، وكانت من أسرى الحرب المستوطنين. وبفضل جمالها غير العادي، اختارها الملك الثاني (276 ـ 293 م) وجعلها إحدى نساء الحريم الملكي. ولكن اهتمام الملك الخاص بها أثار غيرة حريم الملك الملكي. وأتاحت ديانتها لهن الفرصة التي كن يبحثن عنها، فأخبرن الملك قائلات: «إن المرأة التي تحبها أكثر منا جميعاً لا تتكيف مع طريقة تفكيرك وإنما تخدم إلهها وتتضرع إليه». مُورس الضغط على كانديدا لتعتنق الزرادشتية ولكن دون جدوى: التهديد والتعذيب حلا محل تملق الملك فماتت ميتة الشهيدات.

كان استشهاد كانديدا حالة فريدة. حيث أن امتداد الاضطهاد الديني لم يكن إلا في الأربعينيات بعد الثلاثمئة الميلادية وبأمر من شابور الثاني عام (339 ـ 379 م). فخلال القرنين الرابع والخامس دارت الشبهات حول تفضيل المسيحيين في الإمبراطورية الفارسية كمنافسين للديانة الزرادشتية، الجدير بالذكر أن جميع الاضطهادات الكبرى التي اقترفها الساسانيون كانت آنذاك مشحونة بالصراع العلني بين الإمبراطوريتين.

وفي 17 نيسان عام (341 م) (هذه السنة غير مؤكدة تماماً) قتل شمعون، مطران سلوقية ـ قطسيفون في العاصمة الشتوية (إلى جنوب بغداد) بحجة أنه رفض أن يفرض ضرائب إضافية على شعبه لمساعدة المجهود الحربي، فكان استشهاده الأول من سلسلة كاملة من الاستشهادات. وكان بوسي[2] رئيس

الأيدي الماهرة التابعة للملك، أول الضحايا. وكان أيضاً بوسي أحد أفراد المجتمع المسيحي المرتحل من المقاطعة الرومانية والمستوطن في خركا د ـ لدن،[3] مدينة جديدة كان قد بناها شابور في هذا الوطن الجديد، تزوج بوسي من امرأة فارسية وهداها إلى المسيحية. أما ابنتهما مرثا فقد نذرت نفسها للعفة (وهو أمر ممقوت بشكل خاص بالنسبة إلى التقاليد المجوسية) وبعد فترة قصيرة من استشهاد والدها قبض عليها أيضاً ومن ثم قتلت (أنظر 3: آ).

يزودنا ملحق قصة استشهاد مرثا ببعض الرؤيا عن كيفية تطور شعائر شهداء الفرس الأولين. فقد وصلت شهرة الشهداء إلى المناطق الرومانية في أوائل القرن الخامس، وربما من قبل ماروثا مطران ميافرقين (مارتيروبوليس - سيلفان الحديثة في الجنوب الشرقي من تركيا)، الذي تصرف كموفد إمبراطوري إلى المحكمة الفارسية حيث كسب عطف الإمبراطور الفارسي بإحداث علاج ثم رتب بمساندة الشاه سنودس للمطارنة الفرس في عام (410 م) حيث أقرت وأعلنت قوانين المجمع النيقاوي في عام (325 م) في المنطقة الفارسية. ومن المستحسن أن نفترض أنه في طريق عودته إلى الوطن أقام مؤقتاً في الرها. وعلى أية حال فإن قائمة بأسماء شهداء فارس في القرن الرابع قد أضيفت إلى كشف القديسين الموجود في أقدم المخطوطات السريانية والذي نسخ في الرها في عام (411 م).

كان للشهيد المطران شمعون أختان إحداهما كانت متزوجة بينما الأخرى (تربو) كانت نذرت نفسها للبتولية وأصبحت تلقب بـ (باث قيومو) وهذه الكلمة المتعارف على ترجمتها أنها بمعنى (مكرسة) وقد حذت حذوها خادمتها. قبض على النساء الثلاث بتهمة أنهن سحرن الملكة التي كانت مريضة وذلك انتقاماً لموت أخيهن. وغالباً يعكس مصيرهن الغريب والبشع العقاب الذي كانت تناله الساحرات بحسب أعراف القانون المجوسي، ومن الممتع أن تهمة الشعوذة من التهم التي ترد على الدوام في نصوص السير الحياتية الصادرة من إيران الساسانية.

إن النص الأول من القطعتين القصيرتين في (3 ج - د) مأخوذ من قائمة شهداء كرخ د - بيث سلوخ (كركوك الحديثة) ربما يمثل مرحلة مبكرة من مراحل كتابة السير. فلدينا فيه ما هو أكثر بقليل من محض إحياء ذكرى لأسماء فقط مع معلومات ضئيلة عن الظروف.

تنتمي تقلا ورفيقاتها (3 هـ) إلى أديابين وهي منطقة في الجزء الشمالي من منطقة أربيل الحديثة وهي أيضاً من (الطوباويات المكرسات) ومن الواضح جداً أن ذلك كان السبب الرئيسي لاهتمام نرساي تحمشابور[4] بأمرهن والقبض عليهن مع كاهنهن المحلي بولص. ولما أحبط ارتداد الكاهن غير المتوقع آمال نرساي للاستيلاء على أملاك بولص الضخمة، أخذت النسوة المسكينات رهائن في مناورات متتابعة لوضع اليد على هذه الثروة.

وواكبت فترتان قصيرتان من الاضطهاد واسع الانتشار فترة العداوة بين الإمبراطوريتين: فترة اضطهاد يزدجرد الأول (في نهاية حكمه تماماً) واضطهاد بهرام الخامس الذي دام ما بين عامي (420 - 422 م) والذي أدى إلى استشهاد مجموعة صغيرة ذات قيمة تاريخية معتبرة، إلا أنه لم يكن بين شهدائها أي امرأة. أما الأثر الأدبي الرئيسي للعهد الثاني المتعلق بالاضطهاد بين عامي (446 - 448 م) بأمر يزدجرد الثاني (438 - 457 م) فإن ثلاثة استشهادات اتخذت نوعاً من الصبغة الأسطورية وهي تتعلق باستشهاد بثيون الناسك، ونبيلين تنصرا بسببه وهما - الموباد أدور هورميزد وابنته أناهيد. والحقيقة أن قصتهم بدأت من قبل جيل: كان مجوسي يدعى محريار طيب السمعة على الصعيد المحلي في إقليم بلاشفار[5] وله ابنان هما يازدين ودادكو شنَسب. فأُرسل يازدين إلى مدرسة زرادشتية ولكنه أصر على الهرب باستمرار. ولذلك عهد به والده إلى معلم وأرسل أخاه إلى المدرسة بدلاً عنه. وصادف أن المعلم يعقوب كان مسيحياً وكان يازدين يذهب معه إلى الكنيسة بانتظام، وأخيراً يطلب أن يؤخذ إلى الكاهن المحلي ليُعَمد. ولكن يعقوب طلب منه أن ينتظر حتى وفاة والده خوفاً من العواقب التي قد تنتج عن والده، غير أن يازدين هرب بخيبة

أمل كعادته ودبر أمر تعميده في كرخ د ـ بيث سلوخ. وبعد اثنين وثلاثين عاماً من العيش ناسكاً عاد إلى بيته ليجد أباه قد توفي. وقد استطاع هداية أخيه دادكو شنَسب (الذي يشير اسمه إلى داد إيشوع، (المسيح أعطى» وأخذ معه إلى صومعته أحد أبناء أخيه ليتلمذ على يده واسمه بثيون. عاش بثيون وعمه يازدين حياة نسك معاً طوال أربعة عشر عاماً حتى وفاة العم. وخلال هذه السنوات اكتسبا سمعة طيبة جداً بسبب معجزات الشفاء التي قاما بها، وبسبب هذه المواهب ذهب الموباد أدور هورميزد أولاً إلى بثيون للمساعدة في شفاء ابنته أناهيد (3 و). في المقتطف الأول من مجموعة بثيون المترجم هنا نعلم بأمر تنصر أناهيد التي تبعت لاحقاً بتنصر والدها. وفي النص السرياني يلي ذلك قصة محاكمة واستشهاد أدور هورميزد نفسه. (ليست مترجمة هنا) وبعد ذلك تُستأنف قصة أناهيد.

تعكس ثلاثية بثيون ـ أدور هورميزد ـ أناهيد مرحلة متأخرة في تاريخ علاقة المسيحيين بالولاية الزرادشتية. وفي إبّان منتصف القرن الخامس أصبحت المسيحية ديانة لأقلية معترف بها. وكان المتنصرون من العائلات المجوسية الراقية هم الذين وحدهم تعرضوا لخطر اضطهاد السلطات الزرادشتية. ومن اللافت للنظر أن الشاه نفسه، غالباً ما كان يحاول أن يكبح حماسة كهنة الزرادشتيين.

وفي القرنين الأخيرين لحكم الساسانيين (من منتصف القرن الخامس حتى منتصف السابع) كان معظم حالات الاستشهاد القائمة فعلياً لها علاقة بالمتنصرين من العائلات الأرستقراطية الزرادشتية (أو أحياناً بالكهنة الذين عمدوهم). كان بين هؤلاء الشهداء عدد من النساء: شيرين من القرن السادس، من كرخ د ـ بيث سلوخ التي اعتنقت المسيحية وهي في الثامنة عشرة من عمرها ثم سجنت حتى ماتت في الزنزانة في عام (559 م). والمثال الآخر هو غوليندوخت وهي إحدى قريبات الشاه خسرو الثاني (531 ـ 579 م) وهي متزوجة من ضابط رفيع الرتبة. اعتنقت المسيحية بوساطة

المأسورين المسيحيين في دارها، وعندما رفضت أن تعود إلى إيمان أجدادها سجنت هي أيضاً عدة سنوات حتى تمكنت من الهرب عبر الحدود إلى الأراضي البيزنطية حيث ماتت في عام (591 م). إن النسخ السريانية الأصلية لسيرة هاتين السيدتين مفقودة ولدينا فقط الترجمات إلى لغات أخرى. أما قصة حياة الشهيدة الثالثة كريستينا فقد كتبها اللاهوتي العظيم باباي من السريان الشرقيين في حوالي عام (628 م) وكل ما بقي منها الصفحات الأولى من مخطوطة مشوهة، ولسوء الحظ فهذه الوريقات لا تخبرنا أي شيء عن ظروف موتها.

## أ) استشهاد مرثا بنة بوسي من بنات العهد[6]

وكان أيضاً لبوسي المجيد ابنة تدعى مرثا وكانت (مكرسة). اتهمت مرثا أيضاً وقبض عليها في الساعة الثالثة من يوم أحد في عيد القيامة المجيدة.[7] أحضروا مرثا المكرسة ابنة بوسي العظيم أمام الرئيس موباد الذي دخل فيما بعد إلى الملك ليخبره عنها. فأمره الملك أن يخرج ويستجوبها قائلاً: «إن تخلت عن دينها وأنكرت الديانة المسيحية، فجيد وحسن، وإلا فيجب أن تُزَوج. ولكن إن أخفقت ولم تسلك في أحد المسارين فستُسلم لتقتل».

وهكذا خرج الرئيس موباد وبدأ يستجوب مرثا العظيمة على الوجه الآتي: «من أنت»؟ فأجابت مرثا بسخرية: «أنا امرأة كما تراني». فالذين كانوا هناك في حضرة الرئيس موباد احمرت وجوههم خجلاً. وحنوا رؤوسهم عندما سمعوا جواب مرثا الحكيم. فاربد وجه موباد غضباً وخجلاً لكنه تمالك نفسه وقال: «أجيبي عن سؤالي»؟ أجابت مرثا الحكيمة: «أجبتك فعلاً عن سؤالك الذي وجهته إلي».

وأردف الموباد: «عمّ سألتك وماذا كان جوابك»؟ فقالت مرثا: «سألتني يا سيدي من أنت؟ فأجبتك: أنا امرأة كما تراني».

ثم قال الموباد: «وسألتك ما دينك»؟ فأجابت مرثا العظيمة: «أنا مسيحية كما تدل ثيابي». فسألها الموباد: «قولي الحقيقة، هل أنت ابنة بوسي المجنون، الذي فقد عقله وتمرّد على الملك، وبالتالي قُتل شر قتلةٍ»؟ فأجابت الفتاة المكرسة: «بشرياً نعم، أنا ابنته ولكن بالإيمان أيضاً أنا ابنة بوسي، الحكيم بالله والمجنون في الموقف الثابت الذي اتخذه من ملك الملوك، ملك الحقيقة، بوسي الذي نال الحياة الأبدية باستشهاده من أجل إلهه. أتمنى لو أن الله فقط يعتبرني أهلاً لأكون ابنة حقيقية لبوسي المنعم عليه هذا، وهو الذي مع القديسين الآن في النور، وفي الراحة الأبدية، بينما مازلتُ أنا بين الخطاة في هذا العالم؛ عالم الآلام والمعاناة».

قال الموباد: «أصغي إلي وأنا أنصحك وأخبرك بما هو الأفضل لك. إن ملك الملوك رحيم، ولا يريد موت أي إنسان، ولكنه بطيبته يتمنى لجميع أصدقائه أن يصبحوا من أبناء دينه، وهكذا يكرمهم. تلك كانت قضية والدك. فالملك أحبّه وأكرمه ورقّاه لكن والدك تصرف بحماقة وفاه بأمور ليست في محلها، وعندها ألح عليه ملك الملوك ألا يكون عنيداً، لكن دون جدوى وكان ذلك سبب موته. والآن بالنسبة إليك لا تتصرفي بعناد كوالدك بل نفذي إرادة شابور ملك الملوك، وسيد جميع الأرضيين تنالي كرامة عالية وكل ما تطلبين لأجل راحتك».

أجابت مرثا البهية: «ليحيا الملك شابور، وليبق كرمه أبداً، وليستمر عطفه ووفاؤه وليحفظ أولاده بمجده وعزه، وليرتد إليه عطفه، وليعزّ الناسَ الذين يستحقون هباته، وليحيا الحياة التي يحبها بانسجام مع جميع أخوته وأصدقائه، وليمت كل من توّج والدي وبميتة شنيعة كما قلت. أما بالنسبة إليّ فأنا الخادمة البائسة، حثالة خدم اللّه والملك، ولا يجب أن أنال أي شرف زائل؟ لقد قررت أن أصبح هدفاً للإساءة إلى حياتي مثل والدي لأجل إله والدي، وسأموت مثله بسبب إيماني بالله».

قال الموباد: «أعرف صلابة القلب لديكم، أنتم، المسيحين شعب دينَ بالموت. علاوة على ذلك فلن يأتي مولود مطيع من رجل متمرد مثل بوسي. ولكن أقول لك ببساطة حتى لا أكون مذنباً أمام الله إن لم أبذل قصارى جهدي لتحذيرك، إني أتحمل كل هذه الصعوبات لأعيدك إلى ديانة الآلهة الممتازين الذين يهتمون بالعالم.

أجابت مرثا التقيّة: «لقد قلت ما عليك وأنا قلت ما علي، إلا إن كنت أعمى تماماً، ولا تنتبه إلى (الوضع الحقيقي) للأمور التي شرحتها ووصفتها. وإني أميز وأرى النصيحة المفيدة لي والضارة، وأعلم أي توجيه يقود إلى ملكوت السموات وأنه يقود إلى نار جهنم، أي رأي يضمن الحياة وآخر يقود إلى الموت».

وتابع الموباد قائلاً: «أصغي إلي، ولا تكوني عنيدة مستعصية، مندفعة وراء أمانيك المضللة في كل شيء. لأنني أراك مصرة على التمسك بدينك، فتصرفي كما تحبين، لكن خذي برأيي فقط وستعيشين وتضمنين حياتك». أنت فتاة شابة وجميلة جداً فابحثي لك عن زوج وتزوجي، وأنجبي صبياناً وبنات، ولا تتمسكي بحجة الوفاء للعهد الواهية.

أجابت مرثا العذراء الحكيمة: «إذا خُطِبَتْ عذراء إلى رجل فهل يأمر القانون الطبيعي أن يأتي شخص آخر، ويعتدي على خطيبها ويخطف منه فتاته المخطوبة؟ وهل يسمح القانون أن تتخلى مثل تلك العذراء عن رجلها وتتزوج سواه»؟

«لا»: أجاب الموباد.

وأضافت خطيبة المسيح مرثا: «إذاً كيف لسلطتك أن تأمرني بالزواج من رجل لم أخطب له وأنا مخطوبة مسبقاً لشخص آخر»؟

فأجاب الموباد عن ذلك بالسؤال: «هل أنت حقاً مخطوبة إذاً» فأجابت مرثا المكرسة: «حقاً أنا مخطوبة». فسأل الموباد: «أين هو»؟ أجابت الفتاة:

«لقد بدأ برحلة عمل طويلة، ولكنه على وشك أن يعود قريباً. «ما اسمه»؟ سأل الموباد. فأجابت مرثا المنعم عليها: «يسوع».

لم يفهم الموباد قصدها فاستمر في الاستجواب: «إلى أي بلد سافر»؟ «وفي أية مدينة هو الآن»؟ فأجابت مرثا الرائعة: «صعد إلى السماء وهو الآن في أورشليم في الأعالي».

في هذه اللحظة أدرك الموباد (الكاهن) أنها تتحدث عن سيدنا يسوع المسيح فقال لها: «ألم أقل من البداية إن هذا الشعب عنيد، غير منفتح للإقناع. سألوثك بالدم من رأسك إلى أخمص قدميك، ومن ثم يستطيع أن يأتي خطيبك ويجدك قد تحولتِ إلى غبار ونفايات، فليتزوجك عندئذ».

أجابت مرثا الجريئة: «بالطبع سيأتي بمجده يمتطي الغيوم، ترافقه الملائكة وقوات من السماء، وكل ما هو مناسب لمأدبة العرس. سينفض الغبار عن أجسام المخطوبين له، يغسلهم في ندى السماء، ويدهنهم بزيت الفرح، ويلبسهم ثياب الاستقامة التي قوامها النور البهي. وسيضع الخواتم في أصابعهم عربوناً لنعمته، ويكلّل رؤوسهم بتاج العظمة التي لا تزول. سيسمح لهم بالجلوس في عربته - الغيمة البهية - وسيرفعهم في الهواء ليحضرهم إلى الخدر السماوي الذي بني في مكان لم تصنعه الأيدي ولكنه مبني في أورشليم المدينة الحرة في الأعالي».

وعندما سمع رئيس الكهنة هذا تركها في قصره ودخل ليخبر الملك عن كل شيء. فوجّه الملك أمره بحق الفتاة الطائشة وابنة الأب الأحمق بأن تؤخذ إلى خارج المدينة، وتذبح في المكان نفسه الذي قتل فيه والدها.

وهكذا اقتيدت العذراء الطاهرة مرثا ظهر يوم أحد عيد القيامة المجيدة وفيما هم يعدون المكان حيث سينفذون عليها حكم الموت، انكبت على وجهها وركعت أمام الله باتجاه الشرق وقالت: «شكراً لك أيها المسيح سيدي ومليكي وخطيبي لأنك حافظت على عذريتي مختومة بدمغة ختم

وعدك، ولأنك حافظت على إيماني بالثالوث الأقدس - الإيمان الذي ولدت عليه، وبه رعاني والداي وبه تعمدت. ولأجله مات والدي بوسي أيضاً، أقدم لك شكري يا حمل الله الذي محا خطيئة العالم، ومن أجله استشهد رعاتنا ورئيس الكهنة والقسس ومعهم المؤمنون بالمسيح المكرسون ومن بينهم ذبح كوشتَزادا ووالدي بوسي. والآن جاء دوري أنا، الحمل الصغير الذي سُمّن في مراعي وعودك وينابيع أقوالك. وها أنذا أقدم نفسي ذبيحة لك. (يا يسوع الكاهن الأعظم الحقيقي) بين يديك تقدمة مقبولة مقدسة طاهرة أمام الثالوث الأقدس المعّظم، للكائن غير المنظور، وباسمه علمتنا أن نُرشد ونُعَمد. سيدي المسيح زُر شعبك المضطهد، احفظهم بالإيمان الحقيقي بين أعدائهم وليكونوا كالذهب الخالص في أتون الاضطهاد الذي أقيم لشعبك، ليتقووا في عبادة جلالك؛ يؤمنون بلا خوف، ويعترفون بالآب والابن والروح القدس الآن وفي كل الدهور وإلى أبد الآبدين آمين».

وفي اللحظة التي أنهت صلاتها، ولم يكن أحد قربها، أسرعت وارتمت على الأرض فوق الحفرة التي حفروها لها. وعندما اقترب الضابط ليربطها قالت: «لا تربطني لأني أقبل الذبح بسرور من أجل ربي». وعندما رأت الضابط يلوح بالسكين، ضحكت وقالت: «الآن بإمكاني أن أقول لك كما قال اسحق: هو ذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة؟[8] ولكن بالأحرى أستطيع أن أقول: ها هنا الحمل والسكين ولكن أين الحطب والنار؟ لكن لدي حطب ونار فعلاً لأن الحطب هو صليب يسوع المسيح ربي ولدي النار أيضاً، النار التي تركها المسيح على الأرض، تماماً كما قال: جئت لألقي ناراً على الأرض. فماذا أريد لو اضطرَمتْ».[9]

دُهِش آلاف المشاهدين الواقفين قربها لشجاعة الفتاة الطاهرة وسبّحوا الله الذي يشجع كل من يخافه بهذه الطريقة.

ثم اقترب الضابط وذبحها كالنعجة وقد أسلمت نفسها للمسيح. مكث

حراس قرب جثمانها الذي بقي هناك يومين، ولكن في ليلة الثلاثاء، بفضل الرشوة التي سلمت باليد للحراس، أُخذ الجثمان وأبعد. وفي هذه الفترة ذبح كثيرون لأجل المسيح. وقد دبر المال أخو الفتاة المكرّسة الذي كان دفن والده من قبل، وأخذ الجثمان وحنطه ووضعه بجانب جثمان والدها.

وهكذا توجت مرثا الطوباوية في أحد القيامة المجيدة.

وظلت المرأة المكرسة التي ساعدت في إعدادهما للدفن تحيي الذكرى السنوية لاستشهادهما في بيتها القريب من مكان إقامة الكهنة ورجال الدين وقد ثابرت على ذلك طوال حياتها، وبعد وفاتها انتقل بيتها إلى ابن أخيها. فاستمر هو أيضاً في إحياء ذكرى وفاتهما باستمرار جرياً على عادة عمته البارة. وعندما مات ابن أخي السيدة خلّف وراءه ابنين. وبعد فترة من الزمن تخاصم هذان الأخوان على رفات القديسين: أراد أحدهما أن يقتسما فيما بينهما لأن منزل السيدة كان من حصته. وعندما علم بالأمر مار صوما مطران كرخ ذو الذاكرة الطيبة، أقنعهما بأن يأخذ هو رفات القديسين. وقدمهما إلى كنيسة كرخ ليظل ذكرهما الطيب خالداً ويكونا كنزاً قيماً في كنيسة المسيح. وتم تنفيذ ذلك على يد المطران مار صوما(10) في السنة الثامنة للملك بحران بن يزدجر وبعد (89) عاماً من استشهادهما.

هذا ما حدث لبوسي وابنته.

## ب) استشهاد تاربو وأختها وخادمتها

في هذه الفترة حدث أن مرضت الملكة لأنها كانت تؤيد أعداء الصليب ـ اليهود ـ فقد ألصقوا كعادتهم اتهاماً زائفاً: «إن أخوات شمعون قد سحرنها بسبب قتل أخيهن». وما أن وصل هذا الخبر إلى أذني الملكة حتى قبض على تاربو إحدى (المكرسات) مع أختها المتزوجة التي كانت تعيش حياة إماتة النفس(11) (وخاصة من الناحية الجنسية) وخادمتها التي

كانت أيضاً من المكرسات وقد تتلمذت على يد تاربو في تلقي تعاليم السيد المسيح الرائعة، حتى أحضرت السيدات إلى مكان إقامة الملكة للاستجواب.

واستُدعي رئيس الكهنة (الموباد) وضابطان ليحكموا في قضيتهن. وعندما قُدمت السيدات وقبلن أمام حضراتهم، رأى هؤلاء الرجال المظهر الجميل لتاربو التقية الشجاعة وجمالها الذي فاق جمال كل النساء الأخريات. فتبادر إلى أذهان ثلاثتهم الفحش وما يتعلق به من رغبات مقززة،[12] ومع أن أحداً منهم لم يبد أي شيء للآخرين لكنهم بدأوا يتحدثون بقسوة إلى السيدات قائلين: أنتن جديرات بالموت لأنكن تسببتن بسحر الملكة، سيدة المشرق كله.

أجابت تاربو التقية: «أما التهم المزيفة التي تتهموننا بها فهي بعيدة جداً عن نهج حياتنا؟ ما الخطأ الذي ارتكبناه حتى تتهمونا زوراً وبهتاناً بتهم غريبة تماماً عن الحقيقة التي نعيش من أجلها؟ هل أنتم متعطشون لدمنا؟ إن كان ذلك، فما الذي يمنعكم من شربه؟ أتهدفون إلى موتنا؟ إن أيديكم ملوثة مسبقاً بقتلنا نحن المسيحيين كل يوم: قد نقتل ولكن لن ننكر ديننا. مكتوب لنا أن نخدم الله وحده وألا نفكر بوجود إله يشبهه لا في السماء ولا على الأرض.[13] وفوق هذا مكتوب لنا: وإذا كان في رجل أو امرأة جان أو تابعة فإنه يقتل. بالحجارة يرجمونه. دمه عليه![14] إذاً كيف نستطيع أن نقوم بالشعوذة؟ الشعوذة كإنكار الله تماماً ففي كلتا الحالتين الحكم هو الموت».

جلس القضاة الأشرار يستمعون إليها بصمت مستمتعين بالمناسبة ـ أي بطريقتهم الساخرة الخاصة، كما كانوا مصعوقين بجمالها المدهش وحكمتها غير العادية. وكل واحد منهم منى نفسه سراً بأمل كاذب أوحته أفكاره الشريرة عنها: سأنقذها من الموت لتكون زوجتي.

ثم تحدث الموبد[15] إلى السيدات فقال: «لقد تماديتن كثيراً في غضبكنّ

لقتل أخيكن وخالفتن حتى مبادئكن الخاصة ومارستن السحر على الملكة وذلك ممنوع كما صرحتن أنتن».

أردفت تاربو البهية: «ما الأمر السيئ أو الكريه الذي أصاب أخي شمعون كي نجازف في تضييع خلاصنا لدى يد الله؟ ومع أنكم قتلتموه بدافع الكراهية والحسد إلا أنه حي في الملكوت في الأعالي، الملكوت الذي سيجعل مملكتكم هنا تزول عن الأرض والذي سينهي نفوذكم ويجعل سيادتكم لا نفع فيها ولا دوام لها».

بعد ذلك أرسلوا السيدات الثلاث إلى السجن ليحتجزن هناك. وفي اليوم التالي أرسل الموبد رسالة إلى تاربو قال فيها: «سأتشفع عند الملك وأنقذ ثلاثتكن من الموت ـ شرط أن تصبحي زوجتي». فلما قرأتها ارتعشت السيدة البهية جداً وكتبت له: «أغلق فمك أيها الرجل الشرير، عدو الله، ولا تقل كلاماً مقرفاً كهذا. فكلماتك القذرة لا تؤثر في أذني النقيتين، وعرضك الشنيع ليس له أي تأثير في عقلي الطاهر النقي، لأني خطيبة السيد المسيح. باسمه أحتفظ ببتولتي وعلى رجائي به أعلق إيماني القويم». أعهد إليه حياتي لأنه قادر أن يخلصني من يديك النجستين ومن نياتك ومقاصدك الشريرة تجاهي. لست خائفة من الموت أو من فكرة قتلي وأنا أرى أنك ترسم لي الطريق الذي به سأرحل لأرى حبيبي وأخي العزيز المطران شمعون. وهكذا سأجد العزاء لجميع آلامي ومعاناتي وأنا أتبع خطاه.

وأرسل الضابطان أيضاً رسائل إليها في المضمون ذاته، كل منهما أخفى مقصده عن الآخر. وبسخط وغضب شديدين رفضتهما رفضاً قاسياً.

واتفق الثلاثة فيما بينهم على خدعة تثمر ثمراً مراً. فأتوا بشاهد زور وقدموا قرارهم الخبيث للملك قائلين: «إنهن فعلاً مشعوذات ساحرات». فأرسل الملك كلمة بما معناه: «لو عبدن الشمس فلا ضرورة لقتلهن من منطلق أنهن حقاً لا يعلمن كيف يمارسن الشعوذة». وعندما سمعت

السيدات بذلك صرخن: «لن نبدل بإلهنا معبوداً خلقه، ولن نعبد الشمس التي خلقها خالقنا، ولن نتخلى عن مخلصنا يسوع المسيح، بسبب تهديداتكم».

وفي الحال بدأ المجوس يصرخون: «يجب إبادة تلك النسوة من على وجه الأرض وتحت السماء. فقد سحرن الملكة فأصابها المرض». ثم سمح للمجوس باستخدام أي أسلوب يؤثرونه في قتلهن. ذهبوا هنا إلى أن أجسامهن يجب أن تقطع إلى قسمين وعلى الملكة أن تمر بين النصفين ومن ثم ستشفى.[16]

ومرة أخرى بينما اقتيدت السيدات لتنفيذ حكم الإعدام بهن، أرسل الموباد رسالة إلى تاربو البهية لعله يؤثر فيها فإذا استجابت هي أو رفيقاتها فلن يقتلن. ولكن المرأة الطاهرة صرخت بأعلى صوتها تشتمه: «أيها الرجل الشرير المنحرف: لم تتكلم بحماسة بالغة عن أمرٍ غير مناسب ولا مسموح به؟ سأموت ميتة بطولية وبها سأنال الحياة الحقيقية. لن أعيش مذلولة ثم أموت».

اقتادوا السيدات النقيات إلى خارج المدينة ودقوا وتدين لكل واحدة وطرحوا كل امرأة بين الوتدين بعد ربطها بيديها وقدميها كالحملان التي ستُنحر، ومن ثم نشروا أجسادهن إلى نصفين، فقطعوا السيدات إلى ستة أجزاء ووضعوهن في ست سلال علقوها على ست قطع من الأوتاد المتشعبة التي غرسوها في الأرض: ثلاثة عل كل جانب من الطريق على شكل أنصاف صلبان، كل منها يحمل نصف جسم. وعلقت عليها ثمار تعمي كل من يقتلعها وحملت هذه ثماراً مراً لقاطفيها.

كان مشهداً موجعاً تحدّث عن نفسه، مشهداً تحف به الآلام ومنظراً محزناً يحمل أنات ونواحاً. فمن جمدت عينيه عن البكاء فليأت إلى هنا ويستحم بالدموع، ومن جفت دموعه فليأت إلى هنا وليغتسل بها، لأنه يتذكر الأنات التي صدرت عن الأجسام الطاهرة لتلك السيدات التقيات.

في حياتهن كن يرتدين ثيابهن محتشمات في بيوتهن، ولكن في موتهن كن عاريات على قارعة الطريق، تلكم هن السيدات اللواتي لم يخن حريتهن في سبيل حياة الخزي والعار بل سلم كيانهن الطاهر للخزي والإساءة. ألا ما أهدأ العدالة وأشد تدميرها! وهي التي لا تتساهل أو تتسامح في فرض العقوبة. وما أجرأ الاعتزاز بالنفس وأشد إقدامه! فهو إن تحطم فلن يعود إلى ما كان، وما أجرأ عليه! هؤلاء الرجال كانوا بلا رحمة، مجردين عن الشفقة والعطف، كأنهم الذئاب المفترسة التي تمزق الجسد الحي، فهؤلاء الذين قطعّوا أجساد تلك النسوة إلى نصفين علقوهن هم متوحشون آكلو البشر أحياء كما هو مكتوب:[17] «ابتلعونا أحياء». من استمتع بهذا المنظر الكئيب؟ من وجد السعادة في هذا المنظر المريع؟ من يستطيع أن ينعم النظر بعينين جافتين؟ من لديه العزم القوي ليلتفت وينظر إليهن؟ لو وجد أي إنسان كهذا فطبيعته ليست من طبيعتنا ولا يمكن أن ينتمي إلى جنس آدم.

وقد نقلوا الملكة إلى ذلك الطريق وجعلوها تمر من بين الأشلاء، وخرجت الحاشية بكاملها خلفها لأنه كان موعد انتقال الملك إلى مقره الصيفي.[18]

تلك السيدات البهيّات نلن شرف الشهادة في الخامس من شهر أيار.

## ج) من شهيدات كرخ د ـ بيث سلوخ

باعوثا، سيدة علمانية نبيلة من كرخ د ـ بيث سلوخ، قتلت خارج مقرها بأمر الموباد أدور كوشنَسب.

تقلا ودَنَك كلتاهما من (المكرسات» قتلتا حسب أوامر الموباد أدور كوشنَسب.

طاطون، ماما، مزَخيا وأنّا جمعيهن من المكرسات من كرخ د ـ بيث

سلوخ قتلن خارج كرخ في مكان يدعى حَورا (الحور الأبيض) بأمر موباد حاكم مدينة كرخ. نمت شجرة تين في المكان حيث سفكت دماؤهن وكانت الشجرة مصدر معجزات وشفاء لعدة سنوات حتى استأصلها المانيون حسداً منهم. ونتيجة ذلك أرسل عليهم مرض روح الفُيَال لإقلاق راحتهم. وعليه اعترفوا بسبب ما حدث لهم، ولهم شَهِدت معجزة عظيمة.

أيبَت، حَتاي ومزَخيا من (المكرسات) من منطقة بيت جَرماي قتلن حسب أوامر الملك شابور عندما كان في المنطقة.

## د) من تاريخ كرخ د ـ بيث سلوخ

في عصر المطران مَعْنا الشهيد البهي تم هناك اضطهاد المسيحيين واستؤصلت الكنيسة... لم يقتصر الاضطهاد على القتل فقط بل سلب الممتلكات أيضاً، والسجن، والتعذيب الوحشي. وشمل حتى بعض (المكرسات) اللواتي أقسمن على البتولية، واللواتي قدمن من المدينة الملكية (أي سلوقية قطسيفون) بسبب الاضطهاد وكن يعشن في بلدتنا، وجه المانيون الموجودون في البلدة التهمة إليهن أمام القائد العسكري. فاصدر القائد البغيض أوامره بقتل النسوة خارج البلدة في مكان يدعى (الحور الأبيض). وبعد أن كللن بتاج الشهادة نبت في موقع استشهادهن شجرة تين شفت كل من التجأ إليها. فلما رأى المانيون المعجزة التي حدثت، قطعوا الشجرة وأحرقوا المكان، ولكن الله الذي لا يسمح بأن يحتقر الأعداء أصدقاءه سمح لمرض الفُيَال أن يعذبهم حتى اختفوا كلياً من البلدة. وهذه البقعة حيث نلن النساء التقيات إكليل الظفر تدعى حتى يومنا هذا (مكان شجرة التين) وقد أصبحت الآن مقدسة لدى جميع المؤمنين. ففي كل عام عندما تقام ذكرى إحياء اليوم العظيم للصلب، تصعد رعية الكنيسة بكاملها ـ الكاهن ورعيته مع الشخصيات ـ يصعدون إلى مكان الاستشهاد

والصليب أمامهم وخلفهم ويعرجون جانباً على مكان شجرة التين في موكب مهيب ترافقهم المدائح وتراتيل الشكر المقدسة التي تليق بالله، رب الجميع، وتناسب خزي المرتدين وتيه المؤمنين.

## هـ) استشهاد تقلا، المكرسة الطوباوية ومعها أربع طوباويات

في ذلك العصر اتهم رجل غير تقي اسمه باولا وهو كاهن بالاسم في قرية بخاشز. اتهم أمام نرساي تحمشابور وقال: «إنه غني جداً وله ممتلكات طائلة». ولذلك أرسل مباشرة بعض الرجال ليحاصروا بيته ويقبضوا عليه. فسلبوا البيت وأخذوا الأموال الطائلة التي وجدوها هناك، وبسببه قبضوا معه على المكرسات من بنات قريته، وهذه أسماؤهن تقلا، مريم، مرثا وإيمي[19] وأحضرن جميعاً مقيدات مع باولا إلى قرية حزّا،[20] وأدخلوهن جميعاً إلى حضرة تحمشابور الملعون.

أُبلغ باولا أنه: «إن نفذت إرادة الملك بعبادة الشمس وأكل الدم[21] فسأعيد إليك كل ما صادرناه منك». وعلى ذلك فإن ابن جهنم العاق استجاب لكل ما طلب منه لأنه كان تواقاً لثروته، مشفقاً على أمواله (التي ستفضي إلى احتراقه في جهنم).

عندما أدرك تحمشابور أنه لم تعد لديه أية حجة لقتله، فكر بهذه الخطة: سيخبره بأنه قتل المكرسات. ففي هذه الحالة سيشعر بالخجل، وهذا سيضمن له العذر لقتله. وسيتمكن من مصادرة الممتلكات التي أخذت عنوة من منزل باولا.

وللحال أمر تحمشابور بمثول السيدات أمام حضرته وأبلغهن متوعداً: «اعملن بإرادة الملك، اعبدن الشمس وتزوجن. إن فعلتن هذا ستنجون من الضرب وتنقذن أنفسكن من الموت بالسيف، وهو الحكم الذي صدر بحقكن. وإن أبيتن سأنفذ أوامري ولن يتمكن أحد من أن يخلصكن من بين يدي».

صرخت السيدات التقيات بصوت عال: «أيها الرجل المتكبر والمتغطرس لا تحاول أن تخيفنا أو تضللنا بهذه الكلمات المخادعة، لا، نفذ ما أمرت به دون أي تأخير. إنه لبعيد عنا أن ننصرف عن إلهنا وخالقنا ونلبي ما تلح علينا أن نفعله».

أصدر تحمشابور أوامره لأخذهن إلى خارج المكان الذي كان جالساً فيه، وأمر بجلد كل واحدة منهن مئة جلدة، وكن في أثناء جلدهن يجهرن بإيمانهن بصوت عال قائلات: «لن نستبدل بالله عبادة الشمس، لن نكون غبيات حمقاوات مثلك، أنت الذي هجرت الخالق وعبدت ما خلقه عوضاً عنه».

أصدر حكم الإعدام عليهن في الحال، وأبلغ باولا العاق: «إن قتلت هؤلاء المكرسات أمكنك أن تسترد كل ما سُلب منك. فالشيطان الذي دخل وتنفس من خلال يهوذا الإسخريوطي دخل كذلك فيه وغلبه بإغوائه وإغرائه بفكرة الذهب والفضة. وبهذه الطريقة دمر نفسه نتيجة جشعة، كالخائن تماماً. وفي النهاية هو قابل مصيره أيضاً كيهوذا، ورث الشرك بالخالق. وربما هو أيضاً، مثل يهوذا، انشق من الوسط فانسكبت أحشاؤه:[22] ربما ترك له اللص ميراثه أيضاً؟ قتل أحدهما يسوع وقتل الآخر السيد المسيح الذي ولج قلوب العذارى. لأن كل من اعتمد في المسيح لبس المسيح».[23]

ما حكم وعقوبة هذين الرجلين؟ ما الأثقل وما الأقسى؟ أيهما سيكون مخيفاً أكثر أو أشد صرامة؟ ستوزع العدالة العقوبة عليهما بلا حدود لأنهما اقترفا جريمة كبيرة جداً لا حدود لها.

أغوت باولا ممتلكاته الزائلة. ووثق بإغراءات تحمشابور البغيض فجعل الجشع قلبه قاسياً، وألبسه وجهاً نحاسياً وقحاً، وتناول السيف وكانت لديه الجراءة أن يرفعه بوجه السيدات التقيات فصرخن بصوت واحد: «أيها

الراعي الحقير أتبدأ بخرافك الخاصة، تذبح حملان قطيعك؟ هل تحولت إلى ذئب بجشعك لتهلك الحملان في حظيرتك؟ أهذا هو الخبز المقدس جسد المخلص ودمه الذي اعتدنا أن نتناوله من يديك؟ أهذا هو الدم المحيي الذي قدمته لأفواهنا؟ ولكن خلاصنا حقاً ونجاتنا نحن في السيف الذي تحمله: نحن الآن نذهب إلى يسوع، ملكنا الحقيقي وميراثنا السرمدي. وأما ممتلكاتك، وميراثك الذي تحبه كثيراً فلن تحصل حتى على فوائدهما. سنصل إلى مكان الدينونة مثلك، ومعنا ستأتي التهمة الموجهة إليك، فلن تمكث في المؤخرة ولكن قضاء الله سيدركك في الحال. أما المال الذي من أجله تقتلنا، فلن تبقى حَيًّا لتستمتع به. أنت ترتكب خطيئة ولكن لماذا تفعل ذلك؟ نحن على وشك أن نموت ولكن من أجل ذلك؟ لماذا الويل للرجل الذي نموت على يده. اقترب في الحال، أيها الرجل الجشع، ولتكن نهاية خطاياك فينا، لتكن بداية عقوبتك القاسية منّا. تقدم وانته منه بسرعة أيها الرجل الوقح، خلصنا من مراقبتك وأنت تنشق من الوسط وتخنق بالحبل، حين يفصل بين يديك ورجليك وتعلق فتكون ميتتك وحشية».

رفع الرجل المتهور، المحكوم عليه بالهلاك، سيفه (الذي أرسله إلى جهنم) وضرب السيدات الخمس الواحدة تلو الأخرى، وأنهى حياتهن هكذا، بقطع رؤوسهن، وكأنه جلاد ماهر متمرس. ألم يتعب ذراع ذلك الرجل الشرير لأنه لم يألف قطع رؤوس الناس؟ ألم يثلم حد سيفه الذي لا يحمله محارب محترف؟ أكان ينتظر وأنيابه مشحوذة مترقباً فرصة كهذه؟ ألم ترتعش يد الخائن وهو يرفع السيف ويهوي به؟ ربما كان حب ماله هو الذي أعطاه القوة، ربما شجعته لهفته للذهب. ألم يكن الوقح خائفاً لعدم تعوده على حمل السيف؟ ألم يكن الشرير فزعاً لأنه لم يتذوق قط دم إنسان؟ بصلابته لم يكن خجلاً من الناس الذين حدقوا به في حينه كأنه إنسان ملعون تماماً؟ ولكن الشيطان الذي أظهر القتل على الأرض منذ فترة بعيدة بواسطة قايين، دربه بسرعة وجعله يعتاد على مثل هذه الأمور. يقول

الكتاب: «أنتم من أب هو إبليس ذاك كان قتالاً للناس من البدء».[24]

قابلت النساء التقيات الموت بشجاعة، وبيسالة غادرن الحياة الدنيا ليصبحن ثماراً نكهة أمام ربهن الذي كافأهن كيلاً مضاعفاً لسلوكهن الرائع، كافأهن بالمجد الذي يفوق الآلام التي عانينها .

نالت السيدات الورعات إكليل الشهادة في السادس من حزيران.

ألم يقرأ أو يسمع قط هذا الرجل الغبي كلمات الإنجيل عن الغني الذي درّت أراضيه غلالاً وافرة فقال: «يا نفسي كلي أشربي وافرحي». قيل له: «يا غبي هذه الليلة يُطلب نفسك منك فهذه التي أعددتها لمن تكون»؟[25] حدث الشيء نفسه لباولا: فقد تخيل أنهم سيعيدون إليه أرباحه المكتسبة بطريقة غير شرعية (ولأجلها مات بالتالي) وفي الحقيقة سلبت حياته في تلك الليلة بالذات، وذلك لأن القاضي خاف من أن يشتكي باولا بوقاحته إلى الملك ويسترد ما قد سلبه، لذلك أرسل القاضي بعض الرجال المتواطئين معه إلى السجن حيث رموا حبلاً حول عنقه وشنقوه. واحتفظ بموته سراً.

كم كان موت هذين الرجلين الجشعين متشابهاً. ربما لم يكن يهوذا سيئاً مثل باولا، لأن يهوذا في الحقيقة ندم ثم شنق نفسه، بينما لم يشعر باولا قط بالخجل وقد شنقه الآخرون لأن عينيه رضيتا بسفك الدم البريء الذي أراقه، فلا الحكم ولا العقوبة التي وقعت عليه كانا يعدلان ما يستحقه.

## و) أناهيد

في تلك الأيام كان الموباد في منطقة بلاشفار يدعى أدور هورميزد، وقد نشأ في بهشابور في بلاد الفرس. واشتهر بعلمه الواسع في الشؤون المجوسية، كما كان في الوقت ذاته عادلاً ومستقيماً. كانت ابنته الوحيدة تدعى أناهيد وكان مولعاً بها جداً، إذ لم يكن لديه أولاد آخرون سواها.

في أحد الأيام أصيبت أناهيد ببلاء شديد من قبل روح شريرة لم تتركها لحالها. أو تكف عن إزعاجها ليل نهار. قدم أعداد كبيرة من اليهود، والمانيين والمشعوذين المجوس من كلّ الأنحاء، ولكن لم يستطع أحد منهم أن يساعدها، لكنها بالطبع تعذبت أكثر وأكثر.

ثم أخبر أولئك الذين لازموا المجوسي أدور هورميزد عن بثيون الطوباوي الرجل التقي وقالوا: إن جاء وصلى ووضع يده عليها فستشفى في الحال. ثم عدّدوا لأدور هورميزد أسماء عدد كبير من الناس الذين شفاهم بثيون، مشكوراً من خلال صلواته.

وجه الموباد أوامره وأرسل ابنته إلى الرجل التقي. وعندما بدأ المرسلون يقتربون من صومعة الرجل التقي، شرع إبليس اللعين الذي تلبسّها يصرخ: «لن أذهب إلى ذلك الدجال القاتل والشرير». وبالجهد فقط استطاعوا أن يتدبروا أمر إحضارها إليه. وعندما أحضروها إليه، بدأ الشيطان الشرير فيها يصرخ قائلاً: «ماذا علي أن أفعل بك يا عدو جماعتنا. طاردتنا خارجاً مثل سيدك، وسببت لنا كثيراً من المشكلات تماماً كما فعل ربك. لم أخطئ بحقك أيها السيد لذا لا تدفعني خارج منزلي الذي أسكن فيه».

عندما تحدث الشيطان الشرير الساكن فيها وجه الرجل التقي كلامه إليه قائلاً: «باسم سيدنا يسوع المسيح ليس لديك الحق أن تمكث فيها بعد؛ اصمت واخرج منها بسرعة».

وعلى ذلك سقطت الفتاة على الأرض وكأنها ميتة، وأمر الرجل الطوباوي أن يخرج الجميع ولم يسمح إلاّ لأستاذها في البقاء. ثم جثا الرجل الورع على الأرض وصلى. وعند انتهائه من الصلاة وضع يده عليها وفي الحال غادرها الشيطان متشكياً بصوت عال. أما هي فقد شفيت ونهضت ثم ركضت وارتمت أمام بثيون التقي مقبلةً قدميه، وقالت: «لقد أعدت إلي حياتي الضائعة».

وسألت عن سبب مرضها وشفائها، وعندما علمت قالت: «إن كان هذا هو فلن أغادر إلى أي مكان آخر».

وعندما أُخبر والدها عن شفاء ابنته، انطلق في تلك الليلة بالذات وجاء إلى الرجل المبارك وقال: «إن كنت قادراً على تحصين ابنتي ضد هذا النوع من المرض فسأعطيك كل ما تحب: كميات من الذهب والفضة وهدايا قيمة». فأجاب الرجل التقي: «لا علاقة لي بالذهب أو الفضة، لأنها تقودني إلى الهلاك الأبدي فحسب ولا علاقة لي أيضاً بالممتلكات الزائلة التي ستبعدني عن ربنا وملكوته. ولكن إن أردت أن تُشفى ابنتك فاحكم بالعدل ولا تظهر أي تحيز ولا تأخذ الرشاوى لأنه (كما يقول كتابنا): 'الرشوة تعمي أعين الحكماء'[26] ولكن حرر المستغلين من الذين يظلمونهم، ويسّر نصيب المحتاجين بقدر ما تسمح لك مواردك المالية'». وبدلاً من أن يغضب المومباد من هذه الكلمات وكلمات أخرى كثيرة من اللوم والتوبيخ فقد وعد الرجل قائلاً: «سأفعل كما تقول».

أخذ الرجل ابنته وهي معافاة تماماً وبقيت معه سنتين بعد شفائها. وكان نوى أن يزوجها، لكنها فيما بعد أصيبت بكارثة أقوى ـ حالة خطيرة من البرص. وعند رؤية الرجل ابنته هكذا أصيب بالحزن. فأرسلها مرة أخرى إلى الرجل المبارك لتشفى مما أصابها، كما شفيت من مرضها السابق.

بعد أن عاشت مع التقي قرابة ثلاثة أشهر شفيت تماماً فقال لها: «إذا أردت أن تشفي من جميع أمراضك فاعترفي بالمسيح. فهو سيحميك من كل شر. فأي فائدة في الممتلكات الزائلة. إنها لا تبقى وإنما تدخر العذاب بعد انتهاء أجل أولئك الذين يمتلكونها. فبدلاً عن ذلك اجهدي أن تحرزي ثروة سماوية لا تزول لأن تلك تعمل كمرافق جيد في هذا العالم والعالم الآتي لجميع الذين يرغبون فيها».

عندما أعطاها هذه النصيحة والتعليمات، فتح ربنا قلبها لتتلقى تعليمه بفرح.

وفي أحد الأيام، وبينما كانت نائمة، حلمت أنها كانت واقفة أمام المسيح الملك القدير صاحب الرهبة ذي الفخامة والروعة غير العادية، فناداها قائلاً: «حنا».[27] أجابت: «ها أنذا يا سيدي» قال: لم لا تصغين إلى كلمات خادمي بثيون الذي يلح عليك بألا تسلمي حياتك للهلاك الأبدي؟ لقد دعيتك مرتين إلى النعيم الذي وُعد لأولئك الذين يستحقونه، لا تكوني عنيدة وإلا ستجدين نفسك مع جماعة سيئة في جهنم». ثم رأته يأخذ إكليلاً من أمامه ويضعه على رأسها.

فلما استيقظت من نومها كانت تحترق حباً بالمسيح الذي سمح لها أن تعرف سر إرادته. وعندما كان الصباح دخلت إلى بثيون المبارك وأخبرته عن الرؤيا التي رأتها. وأظهرت شوقاً شديداً لتقبل (وشم) المعمودية للمسيح الذي اختارها لتكون ابنة له. وهكذا اعتمدت تلبية لإرادة الله، وهي مفعمة بالسعادة تسبح الله.

أرسل والدها لإحضارها إلى البيت في مناسبات عديدة لكنها لم تأت. وأخيراً جاء والدها نفسه وأخذها عنوة. رفضت أن تأكل بحضور والديها خوفاً من أن يكتشفوا أنها كانت مسيحية. فلما أدرك والدها قضيتها وبخها وحاول ترويعها بالتهديد: «متى كان أولاد الموباد يتنصرون»؟.

ولما أخفقت كل الطرق لجعلها تغير رأيها، ذهب إلى بثيون المبارك وقال له: «ما هذا الذي فعلته بي، تفصلني عن ابنتي الوحيدة؟ قد كنت نويت أن أكرمك في البدء بطريقة ما. ولكن الآن وبعد أن أخطأت بحقي هذا الخطأ الفادح فسأكون عدوك تماماً وسأنهي حياتك، سأضعك في السجن وآمر بضربك بقسوة».

ووجه الموباد أمره بأن يقيد بثيون بشدة في الحال، متناسياً جميع الهبات

التي كان قد منحه إياها سابقاً نزولاً عند طلب ابنته. وكان في المنطقة رجل معروف أدخل بثيون إلى بيته وقال لأدور هورميزد: «متى طلبته سأحضره إليك». وهكذا أمر أدور هورميزد بإجراء شهادة خطية.

في تلك الليلة بالذات بينما كان أدور هورميزد نائماً في بيته الخاص ظهر له رجل بهي يتشح بالكتان والأرجوان، ويتقلد صولجاناً وأمامه حشد كبير من الناس. أمر الرجل أحد مساعديه أن يضرب أدور هورميزد على كتفيه بالعصا التي كان يحملها، وفي تلك اللحظة استيقظ أدور هورميزد من نومه مرتعشاً من الخوف واكتشف أنه غير قادر أن ينقلب على ظهره بسبب الضربة التي تلقاها في منامه وكان يصرخ ويئن من الألم.

وفي الليلة ذاتها استدعى هورميزد بثيون المبارك، وعند وصوله قال له: «أرجوك يا عبد الله الذي تعمل وفق مشيئته، أشفق عليّ، فقد أخطأت بحقك وأدرك أنه بسببك قد حلت بي هذه العقوبة الشديدة». وعند ذلك فتح الرجل المبارك القويم فاه وبدأ يخبره عن الإيمان الحق والأشياء الجيدة المعدة للمؤمنين بعد موتهم. ثم وضع يده على الجرح فشفي.

أدرك أدور هورميزد آنذاك بوضوح تام أن عقابه قد حل به بسبب الرجل التقي. وطلب منه أن يعلمه معتقداته ويخبره عن ديانته. وبعد طلبه هذا تحدث الرجل المبارك فقال له: «الله، الذي صنع العالم وكل ما يحتويه هو واحد، وجميع الأشياء المخلوقة التي كانت بسلطان منه قد صنعها لتكريمنا، لا شيء في الخليقة إلا كان لمنفعتنا، ولا شيء قبيح فيها.. وبالمقابل يطلب اللّه منا أن نحبه من كل قلوبنا ونحب جميع البشر. كما نحب أنفسنا. ليس هناك آلهة عدة كما تدعي الوثنية، بل إله واحد فقط، فالشمس والقمر والنار والماء ليست آلهة بل صنعها هو وهي جزء من خليقته. ولكنك هجرت الله الذي صنعك ورسخك وكانت لديك الجراءة في أن تعبد أشياء هي من خلق الله آلهة وقد صنعها الله لتكريمك. ألا تعرف أن للمسيح

تدبيراً يقرّره لك في اليوم الذي سيحاكم فيه جميع المخلوقات؟ تب عن ذنوبك وآمن بالمسيح لأنه غافر ذنوبك، ولا ترغب في الثروات الزائلة ولا بمظاهر التكريم التي تزول وتفنى، وإلا فستجد نفسك غريباً في العالم القادم، مجرداً من شرف الانتماء إليه».

قدم التقي له كثيراً من الإرشادات واستمع إليه أدور هورميزد بكل انتباه وقضى بثيون عشرة أيام معه بالمناقشة والتعليم. واصطاده كالصياد الماهر في شبكة الإيمان، كل الشكر لقوة السيد المسيح. فلما رأى بثيون أن أدور هورميزد قد وضع عنقه تحت نير إنجيل المسيح مكث معه خمسة عشر يوماً أخرى، وفي أثنائها كان يواظب على إرشاده، وفي الوقت ذاته يشجعه كي لا ينتزعه الشيطان من بين يديه. ثم تقبل أدور هورميزد سر المعمودية بشجاعة وبنية مخلصة واشترك في الأسرار المقدسة. وتحصن إيمانه بقوة روح القدس ليكون قادراً على مقاومة العالم المنظور بازدراء.

وانتشر خبر تنصّره في جميع أنحاء المنطقة.(28)

وقبل هذا، وفي أثناء استجواب أدور هورميزد الورع ورجل الله البهي أجريت التحقيقات عن ابنته أناهيد لتمثل أمام السلطات مع والدها. غير أنهم لم ينجحوا في إحضارها بسبب انتشار خبر هربها وغيابها عن المنطقة. والواقع أن بعض المؤمنين أخفوها، ولم يكتشف مكانها إلا بعدما نال والدها التقي أدور هورميزد إكليل الشهادة.

وفي جوار المزار المقام على شرف أدور هورمزد العظيم، قرب صومعة بثيون التقي أقامت أناهيد أيضاً صومعة صغيرة حيث عاشت حياة طاهرة بهية. ولكن بعد فترة قصيرة من استشهاد القديس، وبينما كان أدور فرزجرد المجوسي وبقية النبلاء في المنطقة في حالة رعب مما قد حدث للموباد أدور هورميزد سرعان ما بدؤوا يبحثون عن ابنته. وكان بعض الناس

من الحاضرين يتحدثون عن جمال مظهر الفتاة وذكائها الوقاد. وقالوا أيضاً إن والديها تركا لها ثروة مناسبة.

فلما سمع أولئك المجتمعون حول أدور فرزجرد أشياء من هذا القبيل، كان كثير منهم يتوق لإمكانية النجاح في ثنيها عن الدين المسيحي وردّها إلى ديانتهم.

أصدر أدور فرزجرد أوامره إلى (تحمين الأينبد)[29] ليخرج سريعاً مع ثمانين فارساً للبحث عن الفتاة. قال: «خذ معك من أصحاب الأرض المحليين ثلاثمئة رجل، وسيطر على كل الطرق من المنطقة وإليها. واحرص ألا تفر أو تتسرّب من المنطقة. ومتى سيطرت على مختلف الطرق المؤدية إلى المنطقة فاخرجْ مع الفرسان للبحث عنها ولا تتوقف حتى تجعلها تمثل أمامي. أقسم بحياة وقضاء يزدجرد ملك الملوك القوي، إن خبت في هذا سأصلبك ومعك الفرسان الثمانون وسأجعل جثتك تتفسخ وستؤول ممتلكاتك إلى الملك، وسأجعل اسمك مداراً للعنة في كل أرجاء العالم، فإذا ذكر اسمك للأجيال القادمة داخلها الرعب، ونتيجةً لذلك، فإن كل من يشتم عدواً للملك، تاجه وشخصه، سيستخدم اسمك لا اسماً آخر في شتمه».

غادر (تحمين) وفرسانه للحال بعد أن جمع عدداً لا بأس به من السكان المحليين وأخذهم معه. ثم سيطر على الطرق والمنافذ التي تسلك من المنطقة وإليها وعهد بها إلى رجاله ليحرسوها، بينما بدأ هو وفرسانه يبحثون ويدخلون القرى والمنازل، ويمشطون الجبال والوديان والغابات بحثاً عنها.

فلما وصلوا إلى جوار صومعة بثيون الجليل، صمموا أن يدخلوا ويبحثوا في المكان لعلها التجأت إليه واختبأت هناك، نظراً إلى أنه أرشدها وأرشد أباها. فلما بلغوا مدخل صومعة الرجل التقي شاهدوا، بالقرب منها وفي الأعلى قليلاً من المكان الذي كانوا فيه، صومعة أخرى لم تكن

هناك من قبل. فأسرع بعض الفرسان فوراً إليها وعند دخولهم فوجئوا بأناهيد الفاضلة جاثية على ركبتيها تصلي وتتضرع، متنهدة متأوهة وهي تدعو الله.

كانت تردد في صلاتها: «أيها الإله القدير الكائن قبل كل الدهور، المشرع والمدبر ودليل جميع من فيه، أعطيت الفطنة للكائنات البشرية وعقلاً مميزاً أكثر من أي مخلوق جسدي آخر. أعطيتهم السلطة ليستمتعوا بجميع الأشياء السارة التي صنعتَها، ولكن عندما انحرفوا عن تعرّفك، وتاهوا عن سيادتك، وزلوا خلف جميع أنواع الآلهة الزائفة الفاسدة، لم تتصرف تجاههم على قدر ما تستحق آثامهم لكنك بدل ذلك أرسلت ابنك الحبيب، سيدنا يسوع المسيح، القوة العظيمة المولود منك، على صورة ألوهيتك، ومن خلال نورك الذي يهب الحياة لهم جميعاً، وهو يقودهم بعيداً عن كل أنواع الآلهة المزيفة والمعتقدات الخاطئة في تعرّفك، ومن خلال نعمة الروح القدس الممنوحة في أثناء المعمودية جعلتهم يستحقون النور والمجد السماوي وجعلتني مستحقة أيضاً يا سيدي مع أني كنت أعبد الشياطين، وأنا اليوم أفضل قربانك على العناصر المخلوقة في السماء وعلى الأرض، أنا التي ترعرعت في الشرور المرّة وعشت حياة ترف وبذخ في قلب الفساد. جعلتني أستحق النور لأنك أحضرتني إلى الحظيرة المباركة لقطيعك، إلى الحظيرة المقدسة لخرافك بواسطة الراعي الحقيقي واليقظ، مار بثيون، المعلم الذي هيأته بنعمتك. والآن يا سيدي بعد أن أدركت سلطانك والطريق إلى الخلاص وعرفت كيف أنتقل بها نحو تلك الكنوز كنوزك السماوية، اسمح لي بألا أكف عن السير في نهجك أنا وأبي، أدور هورميزد المسن، فلم يعد يعبد ما كان يعبده في الأمس ويصب السوائل في الهياكل الوثنية الفاسدة، دعني يا سيدي أجد الآن مكاناً معه في خدرك الكبير وسط خرافك. لا تمنعني من الانضمام إلى وليمة عرسك ولكن بدلاً من ذلك دعني أفضح مقاصد تلك الذئاب المهلكة النهمة، نعم، دعهم يخطفوني كفريسة بين

أنيابهم، وهكذا يحققون مقاصدهم الثائرة ضدي كما فعلوا بأبي الذي رعاني».

بمثل هذه الكلمات كان ابتهالها الحزين عندما أسرع فريق الفرسان إلى الداخل وهم يتوعدون. وعندما لمحوها توقفوا ذاهلين، فلم يستطيعوا أن يتبادلوا الكلام بينهم إلا بعد لحظات ثم التفتت الفتاة بتواضع نحوهم وقالت: «ماذا تريدون أيها السادة»؟ حَمَل خاطئ مستعد للتضحية فإن كنتم تبحثون عني فها أنذا. لا تخافوا سأذهب معكم بسرور.

حدثتهم بلطف وهي تحرضهم على القبض عليها ولكن ما أن شاهدوها حتى شعروا بوخز ضمائرهم آنذاك. وقفوا معها يتبادلون النظرات ثم قالوا: «كيف يواجه مخلوق له هذه النظرات النبيلة والمظهر المميز نهاية عنيفة دانية بأيدي المجوس وأصحابهم»؟ بل حاولوا فيما بينهم التماس طريقة لإنقاذها، ولكن لم يتوصلوا إلى وسيلة فعالة مع أنهم أرهقوا أذهانهم لإنقاذها.

وأخيراً بدؤوا يلوم بعضهم بعضاً قائلين: ليتنا لم نأت قط إلى هنا، فالأمران محفوفان بالمخاطر سواء قبضنا عليها أم أخلينا سبيلها.

وبينما كانوا يتجادلون فيما بينهم بهذا الشكل التحفت الفتاة المتواضعة بعباءتها، ونهضت وخرجت من صومعتها واتجهت نحوهم قائلة: «لا ترددوا في الدخول أكثر من هذا يا سادة وإلا فستواجهون الأذى وتعاقبون لتأخركم بسبب احترامكم لشخصي، هيا يا سادة لنذهب في طريقنا واثقين بسلطان يسوع، الطبيب واهب الحياة».

وهكذا انطلقوا في الحال، وأتوا إلى المكان الذي اجتمع فيه المجوس جميعاً. ولكن قلوبهم تحطمت وعيونهم امتلأت بالدموع لدى التفكير بتسليم العذراء إلى قبضة ذئاب مهلكة كهؤلاء.

وعند وصولهم كان النبلاء مجتمعين بحضور أدور فرزجرد، فدخل تحمين وأعلن وصول الفتاة الطاهرة، فسرّ كثيراً أدور فرزجرد والوجهاء الذين

كانوا معه عند سماعهم هذا، وشق أغلب الموجودين طريقهم خارج المكان ليلقوا نظرة على أناهيد. وصاحوا قائلين: «هذه حقاً أناهيد السيدة، الأجمل والأكثر جاذبية من أية امرأة أخرى».

لم ترفع الفتاة العفيفة عينيها ولو قليلاً لتنظر إليهم بل وجهت كلامها سراً إلى الله في الأعلى: «يا الله القدير والقوي. أنت يا رب تحقق أمنيات أولئك الذين يخافونك ورغبات كل من يدعونك باستقامة، أرجو يا سيدي أن تعتبرني كخادمتك البائسة، ولا تدعني أهجر سلوكي في الطريق التي تهيمن عليها. لا تدع هذه الكأس، كأس الخلاص، يتجاوزني لأنها الكأس التي شرب منها ابنك الحبيب سيدنا يسوع المسيح لأجلنا. ومن بعده شرب منها عدد لا يحصى، عشرات الآلاف من أولئك المؤمنين بك، وأولهم كان صديقك إستيفانوس. ربي ثبّت عقول مضطهدي لئلا يتجاهلوني فأهلك، لأنني تخلفت عن القطيع والقطعان».

هكذا كانت تفكر عندما أمر المجوس بإحضارها أمامه، حدّق بالفتاة كلّ من المجوسي وأعوانه وهم مذهولون بجمالها ومظهرها الجميل. تبدد غضب الجميع وتوقفوا عن تهديداتهم الخطيرة. ثم تحدث إليها كبير المجوس بلطف ودماثة، مفترضاً أنها ستقع في الشرك بسهولة بملاطفتها. ولكن عندما لم تهتم بملاطفاته، نظر إليها بقسوة وقال: يا أناهيد الحقيرة ابنة محدوخت، إن زاردشت سيد الدشكشان(30) الذي منه ينبثق نور الأفستا الكامل وبه استنارت الديانة المجوسية فيما بعد، منه ينحدر ومازال كل الذين يصبحون (دشكشان) على التسلسل. وأولئك الذين ينتمون أيضاً إلى النبلاء ومنهم والد محدوخت ووالدتك. إن أسرتك يعتبرها ملك الملوك وكل من في المملكة أسرة كريمة. فما الذي حدث لك حتى أقدمت على حماقة مطلقة وغباء غريب كهذا الذي حل بك؟ بالرغم من أن والدك أدور هورميزد الذي قضى الليل والنهار بلا توقف في تلاوة الأفستا والياشتوألدرون (تلاوة الصلوات وأداء الطقوس المقدسة الخاصة بالخبز المقدس) قد فقد عقله وجف

دماغه وامتلأ بالسخافات وبالتالي تبع الممارسات السحرية للمسيحين، فكان لابدّ من معالجته ليشفى من مرضه ويتعافى - يا بنتي الجميلة ماذا حدث لك؟ سمعت أنك أنت أيضاً تريدين أن تتبعي الممارسات السحرية للمسيحيين الخسيسين جداً. ألا تريدين الزواج من شخص تختارينه من المجوس والنبلاء المكرمين المعززين؟ لا يا بنتي، لا تعيري أي انتباه لآراء والدك الحائر المضللة، لا تضيعي مرتبة الشرف العظيم والسمعة التي تحملها والدتك النبيلة. إن كنت ترغبين في قبولي فسأرفعك فوق جميع السيدات النبيلات في المملكة، ولكن إن رفضتني فهو ذا ابني أدور سروشي كاهن الملك الخاص وله مئة وسبعون جندياً خاصاً، تزوجيه ولا تدمري حياتك، حياتك التي ضللتها الروح الشريرة والمدمرة في المسيحية. وأنا أيضاً سأكرمك أكثر من كل أبنائي وبناتي، وسأجعل منك سيدة مسؤولة عن كل شيء في منزلي.

عندما وجه المجوسي هذه الكلمات لأناهيد، لم تنظر حتى إليه أو تقدم له أي جواب. كان نظرها مثبتاً باحتشام على الأرض، وبشجاعة، وقفت هناك في صمت وبلا حراك.

ثم فتحت الفتاة المبجلة فاها ووجهت إليه الكلام: «أقول لك يا أعظم وأشهر المجوس، إنني قد خطبت للمسيح يسوع مرة وإلى الأبد، لذا لا أستطيع أن أكون لأي شخص آخر، وقد تسلمت منه عربون الروح القدس ولا أستطيع التراجع. وبالطبع لن يسمح لي سيدي ومليكي الذي خطبني أن أُنتزع منه من قبل أي شخص آخر للزواج، لأنه قدير جداً وقوي. ولا أحد يمكن أن ينتزع منه أي شيء. لذلك إن كان لديك شيء آخر تقوله أو إن كان لديك عمل آخر تعمله فنفذه. فلا فائدة من تضييع الوقت بكلمات فارغة».

«مَن خطيبك هذا - أيتها المرأة الوقحة - الذي لا يستطيع أحد أن يذلل

قوته الجبارة»؟ سأل المجوسي: «إن ملك الملوك، محارب عظيم هو الذي أخضع البر والبحر معاً. أتقولين إنه لا يستطيع التغلب على خطيبك الضعيف، وغير المعروف على الإطلاق؟ هل ثمة إنسان قوي واحد، رجل بأس في العالم، لا يخضع لغير سلطان الملك»؟

أجابت الفتاة الجليلة: «لو كان خطيبي على الأرض لربما استمع إلى الملك في بعض الأمور كما قلت، لكنه في الحقيقة يسكن في السماء وهكذا فإن قوته وسلطته مستمدتان من الأعالي والأعماق. ماذا يستطيع سيدكَ - أو حتى جميع الملوك على الأرض - أن يفعلوا كي يؤثروا فيه أو فيما له بأي حال من الأحوال؟

بحسبه فقط أن يوجه بصره قليلاً تجاههم ونحو جيوشهم ليلاقوا مصيرهم حالاً ويذوبوا كالجليد أمام وهج غضبه.

آنذاك غضب المجوسي كثيراً وقال: «أيتها المرأة الشريرة والحقيرة، أرى أنك بحماقتك تسيرين على طريق الهلاك ذاته كوالدك. أقول لك: لا تهلكي حياتك الخاصة بجنونك هذا. اثبتي على ديانة والديك ولا تنحرفي. حاولي التماس الملذات في عبادة الأنوار والنار متبعة هورميزد. إن فعلت هذا ستخلصين من جميع الأمور الفظيعة وإلا فعليك أن تتحملي. لأني أرى أن حماقتك قد تؤذيك كثيراً».

«واحسرتاه على الشيخوخة»: قالت أناهيد: «عندما تتغابى وتسمح أن يصدر عنها كلام سخيف وبذلك تصبح مادة للهزء - وها أنت ذا بشيخوختك الموقرة تتحدث بالسخافات حين تتطرق لموضوع النار والأنوار. يا قائد المجوس، تزعم أن هؤلاء الأولاد هم أولاد هورميزد حمل بهم وولدوا بواسطة هورميزد أو بواسطة شخص آخر؟[31] واستناداً إلى ذلك نستطيع أن نرى أن أولئك الذين ينجبون الأولاد أو يلدونهم يفعلون ذلك، نتيجة تعايش شخصين معاً، ذكر أو أنثى، فلا يستطيع أحد رجلاً كان أو امرأة أن يحقق

هذا حسب رغبته. فلو أن هورميزد حُمل في أحشائه دون امرأة وأنجب الأولاد مثل أبيه زرفان، فهو إذاً خنثوي - كما يقول المانيون. ولكن إن أنجبهم من أمه، ابنته أو أخته كما يؤكد تعليمكم المجنون الأحمق فكيف إذاً لا يشبهنا في كل شيء»؟ إن اللّه لا أم له ولا ابنة ولا أخت، فهو واحد، وهو وحده الله الضابط لكل مستودعات كنوزه، أما زرفان وخوا شيزاك أمه فيشهدان أن هورميزد مثلنا، معرض لبداية ونهاية وفساد لأنهما تماماً كما كان مصيرهما الموت كذلك مصير أولادهم وأحفادهم. ثمة أمر مدوّن في كتبنا يتعلق بمثل هذا الموضوع: «لا تثق بإنسان فهو ليس مصدر الثقة، بل ثق بالإله الحي».(32)

وعند هذه النقطة فقد أدور فرزجرد سيطرته على أعصابه، وأمر الواقفين في حضرته أن يضربوها بشدة على فمها حتى تسقط أسنانها كلها على الأرض. فتقدم أولئك المأمورون في الحال، وضربوها على خديها ووجهها ورأسها حتى انتفخ وجهها، وأُطبقت عيناها وفقدت جميع أسنانها. وابتل جسدها بالدم الذي سال من فمها وخديها وكأنما كانت تسبح فيه.

أمر القائد بتطويقها كالكلاب ورميها في السجن تحت الحراسة الشديدة. وألا تعطى أي طعام أو أي شراب تشربه إلى أن يأتي وينقذها إله المسيحيين المشتتين الذي به تثق وتؤمن. فنفذت أوامره في الحال.

وبينما هي في السجن تحت الحراسة المشددة وفي منتصف الليل كانت تحمد وتشكر الله مستفيدة من مزامير داود وهي تتلو: «سأعترف بك يا إلهي من كل قلبي وقدام الملوك سأرنم لاسمك. سأسجد لك في هيكل قدسك وأحمد اسمك على رحمتك وحقك لأنك يوم دعوتك أجبتني وشجعت نفسي كثيراً».(33) بهذه الكلمات وبمثلها قضت الليل وهي تمجد الله حتى الصباح.

فلما كان الصباح اجتمع النبلاء في حضرة أدور فرزجرد واستدعيت

السيدة التقية، ولأنها لم تستطع المشي بسبب القيود، كان عليهم حملها إلى الداخل لتمثل في حضورهم. فلما مثلت أمامهم حرضوها لتتخلى عن المبادئ التي تتمسك بها. استعمل بعضهم التهديدات، وتملقها الآخرون بينما ذهب أحدهم إليها وكأنه من أقربائها المقربين وقال: «يا بنتي أناهيد. ما الأمر؟ ماذا حلّ بك حتى تصرفت بطريقة شاذة؟ إن كانوا قد تخلصوا من والدك أدور هورميزد المسيحي وانتهى نهاية سيئة، فأي شيطان سيطر عليك؟ لِمَ دفعت أحريمان لأن يحاربك هكذا؟ وحتى إن لم ترتدي إلى المجوسية فعلى الأقل قولي إنني لست مسيحية ومن ثم أستطيع أن أنقذك وأحملك بعيداً إلى مكان فيه مسيحيون فتستطيعي العيش كمسيحية هناك حتى بقية حياتك».

أجابت المرأة الحكيمة: أيها الرجل السخيف الذي لا منطق له، كيف لي أن أنكر ذاك الذي «نحيا به ونتحرك ونوجد»[34] نحن وجميع المخلوقات؟ أين أستطيع الذهاب حيث لا يكون (المسيح)؟ أي مكان هو ذاك الذي ليس مملوءاً به وهو فيه؟ وأكثر من ذلك فإن ربنا يسوع المسيح يقول ـ «إن مَن ينكرني قدام الناس أنكره أنا أيضاً قدام أبي الذي في السموات».[35] وقد أنكرت آلهتكم ـ الذين ليسوا بآلهة ـ ومازلت أنكرها، واعترفت بالمسيح وسأعترف به حتى الممات.

عندما سمع المجوسي هذا الكلام، أمر بتمزيق ثيابها وتعريتها قائلاً: «أحضروا دعامة الضرب وأربعة أزواج من الرجال وسأريكم ما تفعلون». فأحضروا ما طلبه ووجه أوامره بتعريتها، وكانت ما تزال مقيدة كالكلب ورأسها بين ركبتيها. فأمر بجلدها على الدعامة من قبل رجلين، كل رجل من جهة، حتى يجرح لحم ظهرها وفخذيها من كل الجهات واصلاً إلى العظم.

اقترب الرجال ليجلدوها وعندما جلدوا العذراء جلدتين فقط بالعصي

جرح لحمها جرحاً عميقاً في الحال، كان دمها يسيل كجداول الماء. ولم يتوقف الرجلان عن جلدها بالسوط بل واظبوا أكثر من المزارعين الذين يفلحون الأرض غير المحروثة لتطريتها.

وعندما تعب الزوج الأول من الرجال، أخذ الزوج الثاني مكانه لجلدها. وبهذه الطريقة استمروا يجلدونها حتى صمتت وتوقف لسانها عن تمجيد الله. وعندما لم يعد صوتها مسموعاً، تخيلوا أنها انتهت حتماً، فأمر المجوس أن تنزل وترمى جانباً. وعُين بعض الحراس لحراستها خوفاً من أن يخطف جثتها بعضُ المسيحيين.

ولما حل منتصف الليل نهضت الفتاة على قدميها وبدأت تمجد ربها بهذه الكلمات: «سأتقدم بالشكر لك يا ربي لأنك كنت غاضباً مني، ولكنك أبعدت غضبك وعزيتني. لقد وثقت بالله مخلصي، ولن أتزعزع لأن الرب قوتي ومجدي، وسيثبت خلاصي».[36] بهذه الكلمات وبكلمات أخرى مشابهة كانت ترتل وتسبح الله.

وفي الصباح عندما جاؤوا ليلقوا نظرة عليها، وجدوا سلاسلها ملقاة على الأرض جانباً، بينما قابلتهم بنفسها وهي تشع بالفرح. ولدى رؤيتها وهي ما تزال حَيَّة، رموا إليها قطعة قماش صغيرة فأخذتها ولفتها حول حقويها لتخفي عريها. لاحظوا أن كل جروحها من اليوم السابق قد اندملت ولم يكن في جسدها أي أثر لندبة. دهش الرجال لما رأوه، وآنذاك قالت المرأة التقية: «لا تذهلوا لهذا أيها السادة، لأن الرب قد أرسل ملاكه فشفى جراحي بوضع يديه على جسدي. إن كان الرب استطاع أن يقيم الميت ويعيده إلى الحياة أفلا يمكن أن يشفي جروحي»؟

دخل الحراس إلى المجوسي أدور فرزجيرد وأخبروه بما جرى، فأمر أن تمثل بين يديه. فلما مثلت وانتصبت أمامه، نظر إليها بحدة وقال: «يا ابنة الظلام، إلى متى ستضلّين وتغوين الآخرين إلى دروب الضلال بالممارسات السحرية

للمسيحيين؟ هل أعجبتك المأدبة البارحة؟ جهزي نفسك لمأدبة أخرى وقد أعددتها لك اليوم».

أجابت الفتاة الجليلة: «إنك حقاً أسعدتني بمأدبة البارحة، واليوم أشكرك لأجل جميع مشقاتك».

ثم أمر بإحضار خيطين دقيقين مما يستخدمه الإسكافيون، فلما أحضرا طلب منهم ربط ثدييها بهما كل خيط لثدي. وكان على كل رجل أن يمسك بأحد الخيطين ويشده حتى ينقطع الثديان ويسقطا على الأرض. فلما ربطا الخيطين وأمسك بهما الرجلان، وجهت المرأة التقية نظرها إلى السماء وقالت متوسلة: «ربي يسوع المسيح، تقبّل روحي - ليس بسبب معاناتي على أيدي هؤلاء الذين يسببون لي الألم، بل خوفاً من محاولتهم منعي من المجيء إليك».

وبينما كانت المرأة التقية في مثل هذه الآلام المبرحة، كان كثير من الحاضرين يتأوهون بالدموع. وفي الوقت ذاته كانوا مذهولين جداً من جَلْدها قائلين: «حقاً إن الله وليس سواه هو الذي يهبها القوة».

وسرعان ما قطع ثدياها إلا من عقب يربطهما، فمدت الفتاة التقية يديها وانتزعت ثدييها ووضعتهما أمام المجوسي قائلة: «نظراً لأنك محتاج إليهما جداً أيها المجوسي فهاهما، فافعل بهما ما بدا لك. إن كان لي أعضاء أخرى تريدها فأعط الأمر وسأقطعها لك وأضعها أمامك. ولن أحجب عن مأدبتك أي شيء أمتلكه».

غضب المجوسي غضباً شديداً وقال: «هل أنا كلب حتى آكل لحم البشر»؟

أجابت المرأة الحكيمة: «الكلب أفضل منك - وأنت تعرف ذلك. فالكلب يحرس باب القصر، بينما أنت تحرس الباب المؤدي إلى جهنم، تماماً كالكلب في باب جهنم».

حينئذ غضب القائد أكثر، وأمر أن تُنقل بالأغلال إلى السجن، وتربط

بقطعة من الخشب تحت إبطيها ويديها كالكلاب، وينكّس رأسها إلى أسفل على الخشب طوال الليل. وهكذا نفذ زبانية القائد ما طُلب منهم.

في صباح اليوم التالي أمر القائد بإحضارها، ولأن عدداً كبيراً من الناس جاراها وآمن بمعتقداتها، أدرك أنها لو تركت حَيَّة مدة أطول فسيتحول عدد آخر لا يحصى إلى معتقدها.

فلما مثلت أمامه كانت عظام ذراعيها كلها قد تحطمت حتى أنها لم تستطع تحريك أي وصل من أوصالها. فأمر أن تنقل في الحال إلى سفح التل حيث كانت تعيش. وأن يمسحوا جسمها بالعسل ويسطوها على سفح الجبل مربوطة بأربعة أوتاد بهدف تخويفها وردع كل الذين رأوا ثباتها في معتقدها.

أمر المجوس نحورميزد ابنَ أدورمحان حاكم تلك المقاطعة وقاضيها، ومقاطعة نصيبين بكاملها، أن ينقلها شخصياً بصحبة تابعه تحمين والفرسان. وكان عليه أن يتأكد من أن التعليمات كانت تنفذ بدقة. وفي طريق رحلتهم وهم ينقلونها إلى مكان تتويجها كانت تشع بالفرح وتقدم التسابيح لله لأنها اعتبرت نفسها جديرة باتباع طريق والدها الممهد والضيق.

رافق حشد لا بأس به السيدة التقية، ليروا مصيرها. فلما وصلوا سفح التل، أمر نحورميزد أن يرفع الطوق عنها، ثم بسطوها على بقعة ممهدة على السفح، في أسفل الجرف هناك، وقيدوها بأربعة أوتاد حديدية ضخمة. ومسحوها بالعسل وتركوها، وأوكلوا لحراستها بعض الجنود الفرسان وأصحاب الأراضي المحلية، كانوا أربعمئة رجل. بينما ذهب نحورميزد ليرى إن كان هناك أية تعليمات أخرى بخصوصها.

وقبل أن يصلوا إلى وهاد التل هابطين فيها اجتمع سرب ضخم من الزنابير غطى الجبل بكامله من كل الجهات. كانت مجموعاته تتكوّم فوق بعضها بعضاً على مساحة أكثر من ذراع، وتهدد الحضور بلسعها المباشر

حتى اضطروا لمنع أي كائن من الاقتراب من أي مكان قرب الجبل - ليس البشر والماشية فقط بل الطيور أيضاً، ولم تلمس الزنابير جسد المرأة الطاهر بل تجمعت فوق بعضهم بعضاً أكواماً كثيفة تمتد حوالي خمسة أذرع حول جسم الشهيدة وكأنما كانت تحتفل بأمر ما، وشكّلت مظلة فوق جسمها. وامتد ذلك إلى سبعة أيام، والحرس يمنعون أي كائن من الاقتراب من الجبل.

في اليوم السابع أخذ كهنة الجماعة المبعدة الذين كانوا يعيشون على مقربة من ذاك المكان، أخذوا الإنجيل مع الشموع والبخور وتقدموا مع حشد كبير من المؤمنين، حاملين الماء المعطر وثياب دفن نظيفة. فلما بلغ موكب الكهنة تفرقت الزنابير بدداً وسكنت، وتجمعت في كومتين إحداهما فوق الأخرى على اليمين وعلى الشمال وكأنها كتل ضخمة من الصخور. لم تؤذ أحداً، ولم تقم بأية حركة طيران نحو اليمين أو الشمال.

وقبل وصول الموكب، كانت الفتاة التقية تدعو الله في صلواتها وتردد: «يا إلهي العظيم، إله كل القوى وجميع المخلوقات، الذي يرشد ويضبط كل الأمور، ويزود الخليقة كلها بما يلزمها، قد اخترت أناساً من بين جميع الشعوب والأجيال لتتلقى الكلمات التي تهب الحياة، وبنعمتك يا الله أرسلت روحك القدوس عند اختيار خدامك للانضمام إلى قطيعك، نعم يا رب لقد أحضرتنا نحن الخطاة أيضاً: أدور هورميزد، وأنا، وبثيون معلمنا في الحق أدخلتنا إلى رعيتك. فاقبل يا رب هذه الدعوة والطلبة بعطفك وامنح رحمتك لكل هؤلاء الذين يدعون إليك باسمنا نحن خدامك البائسين - من أي بلد أو مكان يدعونك - هب ما تطلب قلوبهم بحسب إرادتك. لا ترفض أي التماس لهم يا الله، أي التماس صالح وجيد، بل أسرع إلى نجدتهم وكن منقذهم في مصائبهم. حتى لو وجد في أية لحظة عشرات الآلاف من المتضرعين إليك، أكثر من عدد الحشرات الدنيا هنا، فبرحمتك يا الله، استجب إلى التماسهم ولبّ احتياجاتهم. نجهم من جميع الأمراض

والمصائب واعضدهم وأعنهم في أحزانهم وآلامهم. وامنح يا ربي، هذا المكان، الذي نحن فيه الآن، الازدهار ما دام العالم. اقبل روحي بنعمتك ودعني أرقد بسلام مع أجدادي لأن لك يا الله الآب الحق ولابنك الوحيد ولروحك القدوس المجد والشكر والحمد الآن وفي كل أوان وإلى دهر الداهرين آمين».

وردّد جميع الكهنة في الحال: «آمين» بصوت عال. وعند لفظ كلمة «آمين» أسلمت روحها لبارئها ورقدت.

فلما وصل إليها الكهنة كانت أناهيد راقدة في سبات الموت وكأنها ماتت منذ أيام عديدة. فأحضروا الماء المعطر، وغسلوا جسمها ولفوها بأكفان من الكتان الأبيض النظيف. ثم وضعوها في تابوت وما أن بدأ الكهنة بمراسم الدفن حتى طار سرب الزنابير بكامله إلى الأعلى واتخذ مكاناً له فوق رجال الدين والتابوت، في طبقات متدرجة كطبقات قصر عال، تجمعت الزنابير متراصة حتى تعذر ضوء الشمس إلا أقله أن ينفذ من تحتها، أما بقية الزنابير على جانبي كومتها الضخمة فقد بدت كجدار حصن ممتد من الأرض إلى الأعلى، باستقامة فائقة. وزنابير أخرى كانت ما تزال على الطريق حتى مسافة أكثر من ميل وامتنع أي إنسان أو حيوان أو من الهوام من أن يقترب من المكان ولو حدث أن اجتاز أحدهم الطريق في ذلك الاتجاه لقتل في الحال من لسع الزنابير.

نقلوا الفتاة التقية بإكرام شديد ووضعوها في قبر والدها وقبر يزدين التقي (عم بثيون). وعادوا بعد تلاوة الصلاة الأخيرة. وبينما كانوا ينهون صلواتهم شكلت تلك الحشرات ثانية سرباً في المكان الذي رقدت فيه الشهيدة، والتهمت كل الأتربة هناك حتى وصلت إلى الصخر الصلد. بقي السرب على الجبل سبعة أيام أخرى ثم طار بعيداً.

عندما رأى القائد نحورميزد ومن معه ما قد حدث غمرتهم الدهشة ومن

ذهولهم قالوا: «ما هذه الأعجوبة؟ في الواقع لا الشياطين ولا البشر يمكن أن يؤثروا في مثل هذه الأمور، ربما هي من الله». ثم أخبروا المجوسي أدور فرزجرد بكل ما حدث. فلما سمع بذلك قال: «مما سمعت، فهذا من عمل المشعوذ بثيون، معلّمهم الذي ضلل كليهما بتعويذاته. إنه هو الذي جمع الزنابير هناك ليمنع الجوارح والطيور من الاقتراب من جسدها، وليس من العدل أن يهرب بثيون من بين أيدينا، لأنه هو المسبب لكل هذه الشرور، وهو الشخص الذي ضلل هذين التعيسين. وقد نشر الفوضى في جميع أنحاء المنطقة وأساء للديانة المجوسية بكاملها. وكأن تعاليمنا المجوسية بكاملها مهددة بالزوال بسببه».

نالت أناهيد التقية، تاج الشهادة في الثامن عشر من حزيران في السنة التاسعة ليزدجرد الثاني ملك الملوك (438 - 457 م).

# 4) شهيدات نجران

**مقدمة:**

تمّ استيلاء يوسف أسعر اليهودي الثائر على السلطة في مملكة حِمْيَر من الجنوب العربي في بداية القرن السادس، وأدى ذلك إلى مذبحة الحامية العسكرية الحبشية (المسيحية) التي كانت تقيم في العاصمة ظفر، ومن ثم بداية الاضطهاد المسيحي في أجزاء مختلفة من المملكة، فلما بلغ مار شمعون أسقف بيت أرشم السرياني نبأ استشهاد الكثيرين (ومنهم العديد من النساء) في بلده نجران، نشر الخبر بسرعة تعكس هذه الشهادات، على المستوى السياسي، صراع القوى بين الإمبراطوريتين العظيمتين الفارسية والبيزنطية، كما تعكس علاقاتهما بالممالك الأصغر في الحبشة وحِمْيَر ومملكة الغساسنة العرب (على الجانب البيزنطي) واللخميين (على الجانب الفارسي).

لفت استشهاد الحِمْيَريين خيال العامة وسرعان ما وجد مكاناً في تقويم جميع الكنائس. لذلك بقيت قصص الشهداء حَيَّة في قائمة الشهداء باليونانية والسريانية والعربية والحبشية والأرمنية والجورجية. إن القيمة التاريخية لهذه المادة متفاوتة ولكن هناك ثلاث وثائق هي الوثائق السريانية ذات أهمية كبرى:

1) في رسالة من مار شمعون أسقف بيت أرشم، ومن الواضح أنها مكتوبة من الرملة[1] في أثناء الصوم الكبير في عام (524 م) حيث كان سافر إليها من عاصمة اللخميين حيرة النعمان (في 20 كانون الثاني من

عام 524 م) برفقة الكاهن أبراهام بن يوفراسيوس[2] الذي قد كان أرسله يوستنيان لأجل الصلح مع الملك اللخمي المنذر الثالث. وبينما كانوا في مخيم المنذر في الرملة وصلت رسالة رسول ملك الحِمْيَريين (أي يوسف) يعلن فيها للمنذر كل ما ارتكبه وفعل بالمسيحيين في مملكته وخاصة في نجران. فما يكتبه مار شمعون الأرشمي في رسالته الأولى هو كل ما حوته رسالة الملك من كلمات الملك ذاتها مع بعض التقارير الإضافية لشهود عيان والتي أحضرها أناس آخرون من نجران. إن هَدَفَيْ شمعون من الكتابة هما: أولاً: إنه كان يريد من مراسله شمعون رئيس دير جبول[3] أن ينقل الخبر إلى أساقفة السريان الأرثوذكس الهاربين إلى مصر (بعد ارتقاء يوستينس الخلقيدوني (في عام 518 م) ليتمكنوا من حمل البطريرك الإسكندري على الكتابة إلى الملك الحبشي ويحرضه لإرسال المساعدة سريعاً. (وهي ملاحظة مكتوبة سريعاً مما تشي بالوصول اللاحق لهذه المساعدة). وثانياً: يتمنى مار شمعون الأرشمي أن تعرف (مدن المؤمنين "أي السريان الأرثوذكس" أي أنطاكية وطرسوس الكيليكية وقيصرية كبادوكية أورفا... إلخ) بأمر الاستشهادات حتى يُذكر هؤلاء الشهداء والشهيدات الجدد بشكل لائق.

2) (تقرير عن استشهاد الحِمْيَريين الأجلاء الذين نالوا إكليل الشهادة في مدينة نجران): هذه الوثيقة المكتشفة حديثاً متأخرة قليلاً في تاريخها وهي مسهبة في سردها للأحداث في ظفر ونجران. وينسبها محررها (شهيد) مثنياً على كاتبها شمعون الأرشمي ذاته. إنها أيضاً على شكل رسالة (لذلك يشار إليها عادة بالرسالة الثانية). ودوّن في النهاية أنها كتبت من مخيم جَبَلَة، ملك الغساسنة في (جبيثا) في تموز عام (519 م) وهذا التاريخ يتضارب مع تاريخ الاستشهاد المكتوب داخل الرسالة نفسها (تشرين الثاني عام (523 م» ويتضارب أيضاً مع تاريخ الرسالة الأولى (التي من الواضح أنها الرسالة المكتوبة بتاريخ أسبق) وهذه مشكلة محيرة سنعود إليها باختصار فيما بعد.

3) **كتاب الحِمْيَريين**: وهذا نوعاً ما عمل من الأعمال التي أنجزت فيما بعد، بعد تدخل ملك الحبشة (المسمى هنا كالب) بمجيئه شخصياً إلى حِمْيَر ليستعيد الحكم الحبشي هناك. لو أن الكتاب بقي بكامله لكان المصدر الشامل لجميع مصادرنا، ولكن لسوء الحظ تمزق المخطوط الأصلي في القرن الخامس عشر وأعيد جمع بعض أوراقه بإلصاق بعضها ببعض، وهو ظهارة لكتاب مخروم من أوله إلى آخره يحوي (ليتورجيات) سريانية (مقالة عن **كتاب الحِمْيَريين** للعلامة البطريرك أفرام الأول نشرت في **المجلة البطريركية** في العدد 24 نيسان 1983). ولكن يجب أن نشكر هذا الإنسان المجرم الجاهل لعمله التخريبي هذا في ظاهره، لأنه لولا عمله هذا ما كنا حصلنا على هذه الأجزاء الباقية المخرومة والمبتورة، ولحسن الحظ فإن فهرس المحتويات محفوظ بكامله تقريباً ولذلك نستطيع على الأقل أن نحصل على فكرة جدية عن محتوياته الأصلية. فمن الواضح أن الكتاب بشكله الأصلي يقدم تاريخ المسيحيين الشامل في حِمْيَر حتى عودة الملك الحبشي كالب إلى موطنه. وقد اقترح ناشر الأجزاء الباقية موبرغ أن المؤلف قد يكون سرجيوس أسقف الرصافة (سرجيوبوليس) الذي كان أيضاً في الرملة. ولكن أثبت عرفان شهيد أن المؤلف ليس إلا مار شمعون نفسه. على أية حال فهناك علاقة متينة جداً بين هذه الأعمال السريانية الثلاثة، وتوافق دائم بين نصوصها.

ومن أهم المصادر غير السريانية استشهاد أريثاس[4] وهو قائد النجرانيين ويظهر أيضاً في الروايات السريانية حيث يدعى حارث بن كعب. هذه الروايات التي انتشرت في مناطق الخلقيدونيين موجودة باليونانية والعربية والحبشية والجورجية وهي مبنية إلى حد ما على المصادر السريانية المتطابقة مع أو على الأقل لها علاقة وثيقة جداً بتلك الأجزاء الباقية ومبنية على نصوص أخرى. تبدأ الرواية مثل **كتاب الحِمْيَريين** من التدخل الحبشي من قبل الملك نجاشي الحبشة (الذي يظهر في **كتاب الحِمْيَريين** وعلى عملاته النقدية ككالب، ربما يكون هذا الاسم هو اسمه في المعمودية).

إن عدداً من الأشخاص الوارد ذكرهم في قائمة الشهداء ورد أيضاً في نقوش الجنوب العربي باللغة السبئية. فمثلاً لدينا نقش باسم معدي كرب يعفر ملك سبأ يعود تاريخه إلى عام (631 م) من العصر السبئي ونقشان يذكران اسم الملك الذي جاء من بعده وهو يوسف أسعر الذي كان المحرض لقتل الشهداء، والذي يظهر في التقليد السرياني باسم (مسروق) وعند الروم والمسلمين باسم دوناس أو (دومنوس) أو ذو نواس من الملاحظ أنه لقب (بمعنى ذي الضفائر).[5] يعود أحد نقشي يوسف إلى عام (633 م) من العصر السبئي، وهو يذكر هدمه لكنيسة في ظفار عندما كان يهاجم الحامية الحبشية هناك.

فبعد أن احتل يوسف مدينة ظفار بالخديعة انتقل نحو الشمال إلى نجران. وهناك بعد حصار طويل حث قادة المدينة على فتح الأبواب واعداً إياهم بضمان سلامتهم، ولكنه مرة أخرى حنث بوعده وكان على المسيحيين أن يختاروا بين اعتناق اليهودية أو الموت.

حدثت أغلب الاستشهادات التالية في بحر أسبوع. بدئ بحرق الكنيسة وفي داخلها كثير من رجال الدين والعلمانيين. وكان عدد كبير من الشهداء من النساء، ويرد وصف مقتلهم في الروايات السريانية الثلاث كما يرد في الجدول الأول (الذي يشمل الحارث أيضاً).

في الترجمات التالية أخذت رواية أليصابات ورواية تهنة والنسوة النبيلات وخادماتهن وكل المرافقات لهن، من رَهْم ومَحْيا مقتبسة من الرسالة الثانية الجديدة بينما أخذت رواية حبصة وحية من **كتاب الحِمْيَرِيين** (توجد فقرة مختصرة عنهما في الرسالة الثانية). إن الشعور بالمرارة المتبادلة التي يشعر بها الإنسان بوضوح حيال استشهاد حبصة وحية تعود إلى حد ما إلى الحقيقة التالية: إن **كتاب الحِمْيَرِيين** مؤلف بعد بضع سنوات من كتابة الرسالتين حيث اشتدت ردود الفعل (عند مقارنة الوثائق السريانية

الثلاث يتبين أن النعوت البغيضة التي تطلق على المضطهد اليهودي في **كتاب الحِمْيَرِيين** تنسب إلى مؤلف الكتاب وليس للشهداء أنفسهم).

إلى أي عام تعود الشهادات؟ لسوء الحظ لا يمكن تقديم إجابة مؤكدة، لأنه بالرغم من أن التفاصيل المأخوذة في المصادر الأساسية غالباً ما تبدو وكأنها معتمدة تاريخياً إلا أن التواريخ المتعارضة فيها تثير الشكوك وهذا ما يشوش أكثر مصداقية التاريخ الصحيح لأن الشهادات (التواريخ المطلوبة هي 518، 522، 523 م) تشكك في التسلسل التاريخي المطلق لعصر السبئيين.

الجدول (1): وصف مقتل النساء الشهيدات

| | الرسالة الأولى | الرسالة الثانية | كتاب الحِمْيَرِيين |
|---|---|---|---|
| إحراق الكنيسة | * | * | الفصل 13 (أجزاء) |
| طُريبة[6] | | | الفصل 14 (أجزاء) |
| الشماسة أليصابات (أليشبع) | | * | الفصل 17 (أجزاء) |
| تهنة ورفيقاتها | | * | الفصلان 15 - 16 (أجزاء) |
| الحارث | * | * | الفصل 19 (أجزاء) |
| النبيلات | * | * | الفصل 20 (أغلبه باقي)<br>انظر الفصل 23 (أجزاء) |
| رَهم | * | * | الفصل 22 (أغلبه باقي) |
| مَحْيا | | * | الفصل 26 (مفقود) |
| حبصة وحية | | * | الفصل 21 (كامل) |
| أدعا البتول وتومكلي | | | الفصل 33 (مفقود) |
| دية وحية | | | الفصل 34 (مفقود) |
| هند وعما النجرانيتان | | | الفصل 35 (مفقود) |

الجدول (2): تواريخ متقاربة لشهادات فردية

| | الرسالة الثانية | كتاب الحِمْيَريين |
|---|---|---|
| الحارث | | الأحد 25 تشرين الثاني |
| النسوة النبيلات | الأربعاء تشرين الثاني | الإثنين 26 تشرين الثاني |
| حبصة وحية | | الثلاثاء تشرين الثاني |
| رَهْم | الأحد 20 تشرين الثاني | الأربعاء تشرين الثاني |

إن التضارب ما بين العامين المثبتين في الرسالة الثانية أظهر الخلاف في المصادر السريانية، تاريخ الاستشهاد هو عام (523 م) في تشرين الثاني عام (835 م) من العصر السلوقي بينما تاريخ الرسالة نفسها هو تموز عام (830 م) من العصر ذاته في عام (519 م). ويمكن التوصل إلى خلاف آخر إذا قورنت تواريخ الشهادات الفردية في كتاب الحِمْيَريين (حيث لا يذكر أي تاريخ أو عام). في الجدول الثاني (التاريخ 25 تشرين الثاني الواقع في يوم الأحد من عام (518 م) و20 تشرين الثاني الواقع في يوم الأحد من عام (522 م). ونظراً لأن مشاكل التسلسل التاريخي (الذي له صدى أوسع في سير الأحداث السياسية وانتقال السياسات «الدبلوماسية») ليست من اهتماماتنا المباشرة هنا نكتفي بلفت الانتباه فقط إلى وجودها.

### أ) من الرسالة الثانية لمار شمعون الأرشمي:

## إحراق الكنيسة

جمع اليهود رفات كل الشهداء وأحضروها إلى الكنيسة حيث كدّسوها. ثم أحضروا الكهنة والشمامسة الإنجيليين والأفدياقون والقرّاء، والمكرسين والعلمانيين رجالاً ونساء (وسنذكر أسماءهم في نهاية رسالتنا). فغصت الكنيسة من جدارها إلى جدارها بحوالي ألفي شخص حسب أقوال الذين قدموا من نجران، ثم جمعوا الحطب حول الكنيسة من الخارج

وأضرموا النيران، وهكذا أحرقوا الكنيسة بكل من فيها.

أما بعض النساء اللواتي لم يقبض عليهن حينذاك فلما رأين الكنيسة تحترق وفيها الإكليروس والمكرسون والمكرسات أسرعن إلى الكنيسة وهن يتنادين قائلات: «أيتها الصديقات، لنبتهج في تقدمة الكهنة العطرة». وهكذا وبأنفسهن اندفعن إلى داخل النيران واحترقن وهن على قيد الحياة.

## أليصابات

كانت أخت الشهيد القديس الأسقف بولس شماسة تدعى أليصابات، تختبئ في بيت كان المسيحيون قد أخفوها فيه سراً. فلما علمت أن البيعة تحترق وفي داخلها المكرسون والمكرسات ورفات أخيها، خرجت من المخبأ وذهبت مباشرة إلى البيعة وهي تصرخ: «سأذهب معكم إلى السيد المسيح، يا أخي، معك يا أخي ومع الآخرين جميعاً». هذا ما كانت تصيح لمّا وصلت إلى فناء البيعة. وعندما رآها اليهود هناك ألقوا القبض عليها قائلين: «أدوناي أدوناي، أدوناي... إنها نجت من النار، هزمت النار بالشعوذة وخرجت». لكنها أكدت لهم قائلة: «لم أغادر البيعة ـ حاشا، بل جئت من الخارج لكي أدخلها ولأُحرق مع عظام أخي ومع الكهنة أصحابه. أريد أن أحرق في البيعة حيث خدمت وأحرق مع عظام أخي». وكان عمرها حوالي سبعة وأربعين عاماً.

أمسك بها اليهود وأحضروا حبالاً دقيقة كالأوتار ولووا رأسها، ولفوا حول رأسها وركبتيها الحبال كما يقيد البعير وحنوا ذراعيها أيضاً ثم أدخلوا أوتاداً خشبية تحت الحبال وأداروها لتشد على الحبال حتى تغور في لحمها. فعلوا الشيء ذاته بصدرها وصدغيها ثم أحضروا بعض الطين وجعلوا منه إكليلاً ووضعوه على رأسها قائلين بهزء: «اقبلي إكليلك يا شماسة ابن النجار». ثم جعلوا من الطين إناءً في الأعلى وغلوا بعض الزيت في مقلاة سكبوه وهو يغلي على قمة رأسها. وعندما احترق رأسها كله من الزيت قال

لها اليهود: «ربما كان هذا بارداً نوعاً ما بالنسبة إليك؟ هل ترغبين في تسخينه ثانية»؟ لم يكن بمقدور المغبوطة أن تتكلم من شدة الألم ولكنها أومأت إليهم بصوت خافت: «نعم أريد».

كان ما يزال فيها رمق من حياة، فأخذوها إلى خارج المدينة وعرّوها، وهناك قيدوا قدميها بالحبال، وأحضروا جملاً برياً، ثم أخذوها إلى الصحراء وقد ربطوا الحبال بالجمل بعد تعليق بعض الأجراس الخشبية على الحبال ليصطدم بعضها ببعض فيهيج الجمل، ثم أطلقوا الجمل في البرية فخطفها بعنف وسحبها خلفه. وهكذا نالت أليصابات الطوباوية إكليل استشهادها.

أخبرنا القادمون من نجران أن ثلاثة من الشبان من أقارب الطوباوية جازفوا بحياتهم، وتدلوا بالحبال من سور المدينة ليلاً. واقتفوا آثار سحب الناسكة، تتبعوها طوال الليل. وفي الساعة التاسعة من اليوم التالي وجدوها. كانت الحبال المربوطة بقدمي الناسكة قد علقت بجذع شجرة عتيقة، والجمل الذي هُيّج بعنف في مساره قد اختنق على أثر شد الحبل حول عنقه.

اختبأ اثنان من الشبان هناك بينما عاد الثالث إلى البلدة ودبر أمر دخوله إليها عن طريق مجرور للماء القذر يتجمع من البلدة في أثناء الشتاء، وبلغ أفراد عائلته المختبئين في البلدة عنها سراً ثم أخذ هو ورجل آخر قماشاً نظيفاً من الكتان وعطوراً وكل ما يلزم للدفن وتزود أيضاً بخبز وخمر وماء وفأس، ثم تدلّيا من على السور بالحبل. وعند وصولهما إلى حيث زميلاهما ينتظران لفوا الناسكة بالكفن الكتاني وبالحنوط ودفنوها في مكان خاص حددوه بعلامة ليتعرفوه. وهكذا وضعوا الطوباوية لترقد فيه حيث لا يمكن أن يكشف المكان أي إنسان إلا أولئك الذين دفنوها هناك، ثم عادوا إلى البلدة بفرح عظيم. وقد علم عدد قليل فقط بهذا العمل السري.[6]

## تَهْنا وأمَة وحُذَيَّة

لدى سماع السيدة تهنا بخبر احتراق الكنيسة أمسكت بيد ابنتها بقوة (وكانت البنت تدعى أمة وهي من المكرسات). وذهبتا إلى الكنيسة لتحترقا مع الآخرين. فلما رأتهما أمتهما واسمها حذية قالت: «سيدتي سيدتي إلى أين تذهبين؟ إن البيعة تحترق والمكرسين والمكرسات يحترقون في النار» أجابت سيدتها: «وأنا أيضاً ذاهبة لأحترق معهم، أنا وابنتي، فهي من المكرسات». أردفت الخادمة: «أستحلفك بالمسيح يا سيدتي، خذيني معك لأستمتع أنا أيضاً بأريج الشهادة مع القساوسة، وهكذا قادتها سيدتها بيدها ودخلن الثلاثة البيعة، واحترقن حتى الموت مع القسس.

أما حذية الابنة الصغرى لتلك السيدة المغبوطة فلم تذهب إلى البيعة مع والدتها وأختها بل مكثت في البيت، فقبض عليها اليهود فأضرموا النيران في البيت وطرحوها في النار. فلما لذعتها قليلاً أخرجوها وأضرموها ثانية ورموها فيها مرة أخرى، وأعادوا هذه العملية مرة ثالثة حتى نالت الفتاة البتول إكليل الشهادة.

تم إحراق البيعة ومن فيها من الشهداء القديسين والأسقف بولس ورجال الإكليروس وسائر الناس كما ذكرنا سابقاً في الخامس عشر من تشرين الثاني وفي اليوم ذاته استشهدت الشماسة أليصابات ورفيقاتها كما ذكرنا سابقاً.(7)

## النساء الحرائر

التفت الملك إلى النسوة قائلاً: «لقد رأيتن بأم أعينكن موت أزواجكن لأنهم رفضوا أن ينكروا المسيح والصليب، ولأنهم ادّعوا مجدفين أن المسيح هو الله وابن أدوناي. فارأفن بحالكن الآن وبأبنائكن وبناتكن. أنكرن المسيح والصليب واعتنقن اليهودية مثلنا يكتب لكن الحياة وإلا فستقتلن حتماً».

أجابت النسوة: «المسيح هو اللّه وابن الله الرحيم. نؤمن به ونعبده

وسنموت من أجله. حاشا لنا أن نكفر به أو نعيش بعد موت أزواجنا. لا، سنموت مثلهم من أجل المسيح».

تلك السيدات اللواتي كن من (المكرسات) والراهبات لم يحترقن في البيعة مع رفيقاتهن فقلن للعلمانيات: «من العدل أن نقتل نحن أولاً». لكن العلمانيات أجبن: «لا، من العدل أن نقتل نحن أولاً بعد أزواجنا مباشرة».

أمر الملك بإحضار السيدات إلى الوادي وقتلهن هناك. هرعت السيدات معاً تدفع الواحدة الأخرى بمنكبيها وكل واحدة تريد أن تموت أولا. كان الملك الغاشم وأعوانه يسخرون منهن وهن يتسابقن إلى الموت. وهكذا نلن إكليل الشهادة بالسيف في يوم الأربعاء كما كتب سابقاً وفي شهر تشرين الثاني من عام (835 م) وفق التاريخ السكندري (الاثنين 16 تشرين الثاني في تأريخ الحِمْيَريين).

كان الملك قد وجه تعليماته بألا تقتل إحدى السيدات وهي رَهْم أو رومي ابنة أزمع من عشيرة جو وهي نسيبة الشيخ الشهيد حارث بن كعب، وكان سبب استثنائها من القتل رفعة نسبها وجمالها. ولأن الملك اعتقد أنه بملاطفتها يجعلها تكفر بالمسيح والصليب، وهكذا عادت فدخلت البلدة وهي آسفة جداً لأنها لم تمت.

## الإماء

أمر الملك بإحضار الإماء ثم تحدث إليهن قائلاً: «لقد رأيتن سيداتكن وأسيادكن وأنسباءكن أيضاً يموتون موتاً أليماً، لأنهم رفضوا إنكار المسيح والصليب، فأنقذن أنفسكن. استمعن إلي واكفرن بالمسيح والصليب فأطلق سراحكن وسأزوجكن من أزواج أشراف». لكنهن أجبنه: «حاشا لنا أن ننكر المسيح والصليب وحاشا أن نبقى أحياء بعد موت أسيادنا والأصدقاء. لا، سنموت معهم ومثلهم في سبيل المسيح، حاشا لنا أن نوافقك ونقبل عرضك».

فلما رأى الملك إصرارهن على عدم الكفر بالمسيح أمر بأخذهن إلى الأخدود لقتلهن هناك. ونفذ ذلك فنلن جميعهن إكليل الشهادة بالسيف.

## مَخيا

وفي اليوم ذاته بعد مقتل الإماء كانت مَخْيا، أمة الشريف العظيم، تختبئ في منزل خاص. كانت امرأة شرسة وقحة، مؤذية وغير محبوبة من الجميع بسبب سلوكها. كانت دوماً مسترجلة في تصرفاتها حتى أسيادها (مالكوها) كانوا يخافونها بسبب شخصيتها السيئة. فلما سمعت آنذاك أن أسيادها وأسرتها وأصدقاءها قتلوا، اندفعت إلى الشارع وقد تمنطقت بحزام كالرجال وجرت في شوارع المدينة وهي تصرخ: «أيها الرجال والنساء، أيها المسيحيون حانت الساعة لتردوا للمسيح ما تدينون له. اخرجوا وموتوا في سبيل المسيح تماماً كما مات من أجلكم، فمن يتخاذل عن الخروج إلى المسيح اليوم لا ينتمي إليه، ومن لا يستجب لدعوة المسيح فلن يُستجاب له غداً. إنها ساعة المعركة. تعالوا وآزروا سيدكم يسوع المسيح ففي غد سيغلق الباب ولن تتمكنوا من ولوجه. أعرف أنكم تكرهونني ولكن قسماً بالمسيح لن أكون عدوكم بعد اليوم، قسماً بالمسيح لن أؤذيكم. انظروا إلي، ما من إنسان سيئ مثلي فاتبعوني لئلا أذهب بمفردي، وإلا سيهرب اليهود مني كالعادة ولن يقتلوني».

هذا ما كانت تنادي به طوال الطريق حتى وصلت إلى حضرة الملك. فلما رآها بعض اليهود الذين كانوا يعرفونها، أخبروا الملك قائلين: «هذه المرأة هي شيطان المسيحيين نفسه، فما من شيطان إلا يسكن فيها».

ثم وجهت حديثها إلى الملك قائلة: «أقول لك أيها اليهودي جزّار المسيحيين. انهض واذبحني أيضا، لأني مسيحية من إماء الحارث بن كعب الذي قتلته البارحة. ولا تتخيل أنك انتصرت على سيدي. بل إن سيدي هو المنتصر عليك وأنت المهزوم. فأنت من خنت إلهك وغلبك سيدي، لأنه لم

يخن المسيح ويكفر به. أقول لك لو خرجت إلى سيدي بجماعة من اللصوص لقاتلتك بالرمح والسيف، ولركلتك بقدمي. ولو شاء سيدي قتالك لسحقك كالذبابة».

أمر الملك بتعريتها فلما فعلوا ذلك قالت للملك: «عار عليك وعار على كل رجالك اليهود أن تفعلوا هذا بي، لا يخجلني عربي لأني فعلت هذا عدة مرات بمحض إرادتي وقد خلقني الله هكذا». تعريت بحضرة الرجال والنساء دون أن أشعر بالخجل من أنوثتي، أما أنت، فجميع الحِمْيَرِيِين يعرفون الخزي الذي ألحقه بك جحشون التاجر من حيرة النعمان عندما نجاك من الموت على يد الأحباش في الحرب».

وجحشون هذا اتفق أن كان في أرض الحِمْيَرِيِين لما هاجمهم الأحباش وهزموهم، فقبضوا على ذلك اليهودي يرغبون في قتله. أما ذلك التاجر فقد أقسم لهم بالإنجيل أن ذلك اليهودي مسيحي. وبهذه الوسيلة خلّصه من الموت. ولكن لما أصبح ذلك اليهودي ملكاً فتك بالمسيحيين، أرسل بعض الغنائم المسلوبة من المسيحيين إلى ذلك اللص جحشون في حيرة النعمان مع رسالة شكر وامتنان وكان ذلك سببُ كره المسيحيين لهذا التاجر الذي أشارت إليه المرأة وعيرّت به الملك كما أشرنا.

أمر الملك فجاؤوا بحمار وثور وقيدوا ساقي المرأة وربطوا إحدى الساقين بالثور والأخرى بالحمار. ثم أخذ الأولاد اليهود عصياً وضربوا بها الثور والحمار فجرت الدابتان حول البلدة ثلاث مرات. وهكذا أسلمت الشهيدة روحها في سبيل المسيح.

ثم أحضروا جثتها إلى البوابة الشمالية للمدينة تجاه قصر سيدها حارث بن كعب. وكانت هناك شجرة ضخمة من الإثل فعلقوها منكسة الرأس حتى المساء، وجاء اليهود فرشقوها بالحجارة ورموها بالسهام. وفي المساء أنزلوها من على الشجرة وجروها وطرحوها في الأخدود.

## رَهْم

بعد ثلاثة أيام من مقتل النسوة الحرائر وإمائهن، في يوم الأحد، أرسل الملك رسالة إلى رَهْم بنة أزمع مفادها أنها إن أنكرت المسيح فيمكن أن تعيش، وإن لم تنكره فستُقتل. فلما سمعت الرسالة خرجت هذه المرأة التي لم يرَ أحد وجهها خارج باب منزلها والتي لم تمش قط في المدينة في وضح النهار حتى ذلك اليوم، وتوقفت هناك بحضور أهل المدينة كلهم حاسرة الرأس، وصرخت قائلة: «يا سيدات نجران، أيها المسيحيون واليهود والوثنيون، اسمعوا: تعلمون أني مسيحية وتعرفون نسبي وعائلتي ومَن أنا، وتعلمون أني أملك الذهب والفضة ولدي إماء من ذكور وإناث وتعرفون دخلي الخاص وأنه: لا ينقصني شيء. ولو أردت الآن لتزوجت ثانية بعد أن قُتل زوجي من أجل السيد المسيح ولَوَجدت زوجاً مناسباً. أخبركم في هذا اليوم بالذات أني أملك عشرة آلاف ديناراً مودعة بخزينتي غير ما هو لزوجي، ولدي المجوهرات من اللؤلؤ والعقيق اليمني في منزلي الذي لم تر مثلها بعضكن أيتها النساء ولا بناتكن. واعلمن أيضاً جيداً يا صديقاتي أن المرأة ليس في نظرها أجمل من أيام زفافها وبعد أيام زفافها، ليست ثمة بعد ذلك سوى الأحزان والآلام. فولادة الأطفال تقترن بالأوجاع وفقدهم يسبب المعاناة والأسى، وحين يدفنون يكون البكاء والنحيب».

«ولكن منذ هذا اليوم أصبحت حرة طليقة وسأبقى في فرح أيام زفافي: إن بناتي البتولات الثلاث لم يتزوجن بعد،(8) قد زينتُهن لأجل المسيح. تمعنوا بي لأنكم قد رأيتم وجهي مرتين: مرة في حفلة زفافي الأول والثانية اليوم يوم زفافي الثاني. دخلتُ بيت زوجي الأول حاسرة الرأس والآن إني ذاهبة إلى المسيح ربي وإلهي وإله بناتي، تماماً كما جاءنا أولاً. انظروا إلي وإلى بناتي، فلست أقل جمالاً منكم وأنا ذاهبة إلى المسيح ربي، ذاهبة بجمالي الذي لم يُشوه بإنكار اليهود للمسيح. جمالي

نفسه سيكون بمنزلة شاهد لي أمام ربي. هذا الجمال الذي لم يكن بإمكانه أن يضللني لإنكار السيد المسيح ربي. ذهبي وفضتي ومجوهراتي، خدمي وخادماتي وكل ما لدي سيشهدون لي بأنني لم أفضلهم وأنكر المسيح».

وقد بعث الملك الآن إليَّ رسالة يدعوني فيها أن أنكر المسيح لأنقذ حياتي ولكنني أجبته: «لو أنكرت المسيح سأموت وإن لم أنكره فسأحيا» حاشا لي أيتها النساء، حاشا لي أن أنكر المسيح إلهي لأني أؤمن به، وباسمه اعتمدت، واعتمدت بناتي أيضاً. أبجل وأكرم صليبه ولأجله نموت أنا وبناتي تماماً كما مات من أجلنا.

«أتركُ ذهبي الذي يخص الأرض للأرض. كل من يريد أخذ ذهبي فليأخذ، وكل من يريد فضتي ومجوهراتي فليأخذها. بمحض إرادتي أخلف ورائي كل شيء لأذهب وأتلقى البديل من ربي».

«طوبى لكُن أيتها النساء إن أصغيتن إلى كلامي، طوبى لكنّ إن علمتُن حقيقة من أجل من أموت أنا وبناتي. طوبى لكن إن أحببتن المسيح، طوبى لنا أنا وبناتي لأنه مبارك ذلك المكان الذي نذهب إليه».

«سيعم السلام والهدوء منذ اليوم على شعب المسيح. دم أخوتي وأخواتي الذين قتلوا في سبيل المسيح سيكون سوراً لهذه المدينة، إن تمسكت بشدة بالمسيح ربي. أغادر مدينتكن ووجهي سافر، مدينتكن التي عشت فيها، وكأني في إقامة مؤقتة، أغادرها مع بناتي إلى مدينة أخرى حيث خطبتهن».

«اضرعن إلى الله من أجلي أيتها السيدات ليتلقاني السيد المسيح ويصفح عني لبقائي في هذه الحياة ثلاثة أيام بعد مقتل والد بناتي».

ولما أنهت رَهْم الطوباوية حديثها ارتفع النحيب من نسوة المدينة كلهن، واهتز له الملك الطاغية وأولئك الذين كانوا معه خارج المدينة كما اهتز له كل من وصل إليه كلامها.

ولما عاد الموفدون من الملك لإحضار السيدة الطوباوية أخبروا الملك بكل ما قالته رَهْم الجليلة، وكيف كانت النسوة يبكين من أجلها. فأراد الملك أن يقتلهم لأنهم سمحوا لها بالكلام المسهب وبالتالي ضلّلت المدينة كلها بهرطقتها.

ثم خرجت رَهْم من المدينة حاسرة الرأس ومعها بناتها. جاءت إلى الملك ووقفت أمامه بوجه سافر دون الشعور بالخجل، جاءت وهي تمسك بأيدي بناتها اللواتي كن مرتديات ومزينات كأنهن ذاهبات إلى حفل زفاف. وأسدلت السيدة شعرها المجدول ثم كشفت عن نحرها ونحت عنه شعرها بطرف يدها، وأحنت رأسها للملك وأشارت إلى مذبح عنقها قائلة: أنا وبناتي مسيحيات وسنموت لأجل المسيح. فاقطع رؤوسنا لنذهب وننضم إلى أخوتنا، وإلى والد بناتي».

بعد هذا تحدث الملك إليها ملاطفاً: «قولي فقط إن المسيح الذي صلبوه على الصليب كان إنساناً ومن ثم اذهبي طليقةً إلى البيت أنت وبناتك».

واستجمعت إحدى بنات رَهْم الطوباوية ولم يتجاوز عمرها التاسعة كل ما في فمها من اللعاب وبصقت على الملك حين سمعته يطلب من والدتها أن تنكر المسيح وتبصق على الصليب.

وبالنسبة إلى هذه الواقعة يضيف الذين وفدوا إلى نجران من أحرارها أن الفتاة التي أهانت الملك لم تكن في الحقيقة ابنة رَهْم الطوباوية بل حفيدتها التي دعيت باسمها رَهْم. وكانت والدة الطفلة قد قتلت مع النساء اللواتي قتلن في اليوم السابق.

قالت الفتاة للملك: «بصقت عليك لأنك لم تخجل من أن تطلب من جدتي أن تنكر المسيح وتبصق على الصليب. أرفضك وأرفض كل اليهود مرافقيك، وأرفض كل من يرفض المسيح وصليبه كما فعلت. لأن السيد المسيح يعلم أن جدتي أفضل من والدتك وأسرتي أفضل من أسرتك، ومع

ذلك فقد تجرأت وطلبت منها أن تبصق على الصليب وتنكر المسيح. فضّ الله فاك أيها اليهودي الذي ذبح ربه».

ولما خاطبت الفتاة الملك هكذا أمر رجاله بإلقاء السيدة المسنة على الأرض. ثم لكي يخيف جميع المسيحيين، أمر بذبح الطفلة حيث يسيل دمها إلى فم الجدة. ثم قتلت الابنة الأخرى التي كانت تدعى أمّه، وأيضاً صُب بعض دمها في فم أمها. وبعد ذلك أوقفوا المرأة ثانية وسألها الملك: «هل استسغت دم ابنتك»؟ فأجابت: «إنه كتقدمة نقية بلا خطيئة، هكذا كان مذاقه في فمي وقلبي». فأمر الملك بأن تقتل في الحال.

ويضيف الذين وفدوا من نجران عند هذه النقطة ما يلي: «بعد مقتل رَهْم الطوباوية اقترب أعوان الملك وقالوا: هذه السيدة قدمت خدمات جليلة لكثير من الناس: «للملك وأعوانه والفقراء. وقد أسدت معروفاً لسلفك الملك معدي كرب في هذه المنطقة عندما وقع في محنة. كان قد اقترض منها اثني عشر ألف دينار فلما حان أمد تسديد الدين ولم يكن قادراً على الوفاء سامحته بالدين والفائدة المترتبة عليه. وقد أغنت الكثيرين بطرق عديدة. فنلتمس منك أن تسدي لنا هذا المعروف، من أجل وافر أفضالها على الجميع، أن تسمح بدفن هذه المرأة. فقد أدت أعمالاً خيرة متنوعة ليس لها أية علاقة بمسيحيتها».

وهكذا وجه الملك لدفنها. أخبرونا بأنها لُفت بقطع من الكتان المهلهل، ودفنت على حافة الأخدود الذي قتلت فيه صديقاتها. وذكر القادمون من نجران أيضاً أن الشيخ الحارث بن كعب دفن عند سور المدينة مقابل مدخل ساحته. فكل الشكر لالتماس أولئك الأعوان.

نالت رَهْم الطوباوية، ابنة أزمع وحفيدتاها أُمّة ورَهْم إكليل الشهادة يوم الأحد الواقع في 20 تشرين الثاني.

## ب) من كتاب الحميريين:[9]

### حبصة، حَيَّا وحَيَّا الأخرى

قصة تحكي عن إيمان السيدات الحرائر: حبصة، وحَيَّا، وحَيَّا الأخرى، بالمسيح ربنا، عن استشهادهن في سبيله.

من بين النساء الحرائر المؤمنات في نجران اللواتي لم يقبض اليهود عليهن لإجبارهن على إنكار السيد المسيح كانت المرأة الحرة حبصة من نسل آل حيان بن حيان، المعلم المذكور في بداية هذا الكتاب. (مما يدعو للأسف أن الفصل الذي يتناول سيرة ابن حيان قد فقد) المعلم الذي بجهوده نشرت المسيحية في نجران وفي ولاية الحِمْيَريين. عندما سمعت هذه المرأة الرائعة كل ما جرى للحرائر من قبل اليهود القتلة، كل ذلك بسبب إيمانهن بالمسيح رجائنا، ساءها جداً أن تحرم صحبة الشهيدات فحزنت وبكت وقالت: «ربنا يسوع المسيح لا تعتبر آثامي أو تستثنيني من مرتبة الشهادة من أجلك بل اجعلني أهلاً للسير على غرار أولئك اللواتي أحببنك وذبحن في سبيل اسمك المبجل».

وفي يوم الإثنين، بعد يوم من نيل نساء نجران الحرائر إكليل الشهادة أخذت هذه المؤمنة حبصة صليباً برونزياً صغيراً كان لديها وخاطته على غطاء رأسها تماماً فوق جبهتها. ثم خرجت إلى الشارع وبدأت تجاهر بنصرانيتها وتصيح: «إني مسيحية وأعبد المسيح». وانضمت إليها امرأتان حرتان إحداهن كانت امرأة عجوز تدعى حَيَّا، والأخرى كانت تسمى أيضاً حَيَّا ولكنها كانت شابة.

استرعت النسوة الثلاث اهتمام عدد كبير من رجال نجران ونسائها، ولمحت حبصة بينهم جارها اليهودي فصرخت قائلة له: «أيها اليهودي السفاح، أرفضك وأرفض جميع أصحابك المؤمنين، لأنك تنكر أن المسيح هو الله. أرفض ملكك الصالب ربه. اذهب وأخبره بأن حبصة ابنة حيان تجاهر بنصرانيتها في الشارع وأنها ترفضك وجميع أعوانك».

قال اليهودي لها: «لن يسمحوا لي بالاقتراب منه». فأجابت حبصة: «اذهب وأخبره كما قلت لك، فإن لم تذهب تأكد أني سأواجهه وأخبره أنني طلبت منك أن تخبره وأنك تخاذلت ولم تفعل». قال اليهودي: «أخاف الاقتراب منه». «إذاً» قالت حبصة: «اذهب وأخبر أحد قادته وسيتولى بدوره أمر إخباره». ذهب اليهودي حينئذ وأخبر (مسروق) أحد قادة الطاغية (هذا لقبه واسمه الحقيقي يوسف) عما قالته حبصة وصاحبتاها وكيف أنهن يجاهرن بنصرانيتهن ويرفضن بصوت عال كل اليهود على مسمع الجميع.

ولما سمع سافك الدم الزكي مسروق السفاح هذا الخبر، اضطرب وغضب كثيراً واغتاظ من تلك النسوة الحرائر فأمر بأن يقبض عليهن فوراً ويحضرن أمامه. نفذت أوامره حالاً وعندما وقفن أمامه، قال لهن بطريقته المتغطرسة: «من منكن حبصة»؟ أجابت حبصة: «أنا هي». ثم تابع مسروق الغاشم استجوابه: «ما اسم هاتين السيدتين»؟ أجابت حبصة: «كلتاهما تدعيان حَيًّا». ثم سألها مسروق الطاغية: «ابنة من أنت»؟ فأجابته: «أنا حبصة بنة حيان من آل حيان المعلم الذي على يده تم نشر المسيحية في هذه الأرض. وأبي هو حيان الذي أحرق مجامعكم». (تلميح إلى أن الصراع والخلاف بين اليهودية والمسيحية في نجران يعود إلى ما قبل اغتصاب مسروق العرش).

قال لها السفاح مسروق: «إذاً أنت تحملين معتقدات والدك ذاتها؟ وأقدّر أنك أيضاً مستعدة لإحراق مجمعنا تماماً كما فعل والدك، حسب ما تقولين». فأجابته حبصة: «لن أحرقه الآن لأني مستعدة كلياً لأسير سيراً حثيثاً بطريق الشهادة على غرار أخوتي في المسيح. ولكن لدينا الثقة بعدالة سيدنا وإلهنا يسوع المسيح وأنه سينهي حكمك ويمحوه من الجنس البشري. سيحطم كبرياءك وحياتك وسيقتلع مجامعكم من أرضنا ويبني مكانها كنائس مقدسة. ستنتشر المسيحية هنا وتسود بنعمة ربنا وبصلوات آبائنا

وأمهاتنا، أخوتنا وأخواتنا الذين ماتوا في سبيل المسيح ربنا، بينما أنت وكل من ينتمي إلى شعبك ستغدون مضغة في الأفواه، وموضع استنكار من الأجيال القادمة بسبب كل ما فعلته بالكنائس والذين يعبدون المسيح الله أيها الكافر عديم الرحمة الأثيم الخالي من الشفقة».

هيأ الثعبان الملعون مسروق سموم قلبه كالثعبان الذي يريد امتصاص دم الحمامة. ولأنه انزعج وغضب مما سمع من شفتي حبصة فقد فكر بابتكار طريقة موت مؤلمة تناسبها، وينهي بها حياة هذه المؤمنة التي تحدثت إليه بهذا الشكل.

أصدر تعليماته برمي الصليب على الأرض أمامه، وإحضار وعاء من الدم، تماماً كما فعل في حادثة أولئك الذين استشهدوا قبلها. ثم وجه كلامه إليها قائلاً: «بجراءتك تحدثت بالتفصيل عن كل ما أردت، وجعلتني أسمع أشياء عديدة وغريبة لم يتفوه بها أمامي حتى الرجال الذين سبقوك. لقد أدهشني كثيرا مدى الاحتقار الذي أبديته لي أو كما تتخيلين بالتحدث إلي بجسارة كهذه الطريقة. ولكن لأنك امرأة، فمن المناسب أن أطلب منك أن تحيدي عن غلطتك، ومن ثم، إن خذلت في الإصغاء إلي فسأهلكك بضراوة كما تستحقين. لذا اكفري بالمسيح في الحال وابصقي على هذا الصليب واغمسي إصبعك في هذا الدم وقولي كما نقول تماماً: إن المسيح هو إنسان فانٍ كأي واحد منا، ويهودي مثلنا، ومن ثم ستحيين وسأزوجك من أحد الأحرار وسأسامحك على كل ما تفوهت به».

قالت له حبصة: «فمك هذا الذي جدف على خالقه سيفضّ سريعاً ويحرم الحياة في هذه الدنيا ولن يبقى لك ذرية تخلفك لتشتم خالقها. أيها السفاح الذي صلب ربه، قد جهدت، كما تتخيل، لتقضي على الشعب المسيحي برمته في أرضنا. تأكد أني لست أرفض أن أقول إن المسيح إنسان عادي فقط بل إني أعبده وأشكره على كل النعم التي أنعمها علي. أومن

بأنه الله خالق كل المخلوقات، وأتخذ صليبه ملاذاً لي. فابتكر أنواع التعذيب التي تريد أن تفرضها علي، وكن على يقين بأني لن أحفل بأي نوع من أنواع تعذيبك».

أجابها السفاح مسروق: «أعرف الآن أن رغبتي في تجنيبك القتل القاسي لم تنجح. فمنذ الآن دمك يقع على رأسك لأني سرعان ما أقوم بعمل يجعلك تندمين في سرك لأنك لم تصغي إلى حديثي».

ثم سأل مسروق المرأتين الحرتين اللتين كانتا معها: «وماذا عنكما؟ أتنصتان إلى حديثي وتكفران بالمسيح؟ أم ستتمسكان بجنون هذه السيدة وترغبان في الانضمام إليها لمقابلة مصيرها المؤلم»؟

أجابت السيدتان المدعوتان حَيًّا: «كل ما قالته حبصة لك كان باسم ثلاثتنا. مع أن أفواهنا لم تتفوه بهذه الكلمات إلا أن قلوبنا متفقة معها بالرأي، حاشا لنا أن نختلف في معتقدنا، بل إننا على استعداد لتحمل أية آلام في سبيل الحق الذي نمتلكه. فافرض علينا إذاً كل أساليب التعذيب التي تريدها لأننا نعترف ونؤمن بأن المسيح هو الله، ونرفضك ونرفض كل من هو من رأيك».

فلما سمع قول السيدتين تفاقم غضب الغاشم مسروق، وبسبب حبّه للأذى أمر مباشرة أن تربط سيقان السيدات إلى أفخاذهن وتحطم كالجمال، ومن ثم ضربهن بالعصي وجلدهن.

شرعت النساء المغبوطات يصلين قائلات: «نشكرك يا ربنا لأنك أهلتنا للشهادة في سبيل اسمك. ربنا امنح السلام لكنيستك، واحفظ أولادها من الارتداد عن عقيدتهم. اقبلنا في سلامك واصفح عن كل ما أذنبنا بحقك». فلما نفذت أوامره كان يسمع صوت عظامهن التي كانت تتخلع، ومفاصلهن التي كانت تتفكك. وأزالوا الصليب أيضاً من على رأس حبصة ورموه بعيداً. قال لها الطاغية: «نظراً إلى أنك رجوت مساعدة الصليب فآمر

الآن أن تعذّبْن أنت وصاحباتك في المكان نفسه الذي خاطبت به الصليب، وستدركين أنه لن ينفعك فحسب بل كان أيضاً سبباً لهلاكك وهلاك هاتين السيدتين اللتين انضمتا إليك بجنونك».

ثم أمر بختمهن في وجوههن. فلما أُنفذ الأمر بلغت آلام إماء الله أوجها وضقن عن الكلام، ثم أمر السفاح مسروق بجلدهن على ظهورهن كالرجال وبلا شفقة. وتم تنفيذ ذلك أيضاً. فقال لهن القضاة القتلة ساخرين: «ألا تطعن الآن أمر الملك وتفعلن ما يقوله أم تطيب لكن هذه الميتة»؟. فأشرن بأيديهن وقد تعذر عليهن الكلام: «نعم، الموت أحب إلينا».

ولأن آلام المرأة الطوباوية المسنة حَيَّا كانت لا تضاهى فقد أسلمت روحها لربها، فنالت إكليل الشهادة لأجل اسمه. وعندما رأى القتلة أنها قضت نحبها رفعوا أصواتهم وانفجروا بالضحك قائلين بحماقة: «إن المسيح الذي تعبده أفادها كثيراً ـ خان في إنقاذها من هذه الآلام، انظروا فقط كيف طالها الموت كأي بهيمة».

أزالوا جثمان حَيَّا الطوباوية ورموها خارج المخيم. وفي تلك الليلة خرج بعض المسيحيين الذين كانوا يعيشون بخوف ولا يجاهرون بدينهم، فحفروا قبراً لحَيَّا الطوباوية، تلك المرأة الرائعة.

كانت أمتا الله حبصة وحَيَّا الأخرى تشعران بآلام مبرحة، عاجزتين عن النطق بسبب الضرب والجلد دون رحمة، فأمر مسروق السفاح بإحضار جملين من الإبل الصعاب، ورَبْط كلّ من المرأتين بجمل، ثم إطلاق البعيرين في الصحراء.

ونفذت أوامره للفور، وهكذا جرّهما الجملان حتى أسلمتا روحيهما إلى ربهما، ونالتا إكليل الشهادة وبموتهما شهدتا للرب.

وكان الرجل الحر أفعو الذي كتبنا عنه سابقاً، والذي دون لنا هذه الشهادة، صهر حبصة الطوباوية (زوج أختها) وقد رأيناه وتحدثنا إليه. فنقل

لنا أنه، مع رجلين آخرين، خرجوا يتتبعون آثار الجملين اللذين جرا خلفهما المرأتين الطوباويتين، وبعد اثني عشر ميلاً أو أكثر وجدوا جثة الطوباوية حَيًّا وقد انتزعت عنها الحبال التي كانت مربوطة بالجمل وقد شرّد أحد الجملين وتركها خلفه. وبإيمان نزع شعر الطوباوية تبركاً به، وحفر حفرة ودفن جثتها في المكان ذاته.

وتابع الرجال المسير فلمحوا آثار البعير الآخر فتتبعوها مسافة خمسة عشر ميلاً فوجدوا جثة أمة الله حبصة الفاضلة، وقد برك الجمل على الأرض، فلما رأى ذلك أفعو أسرع بهدوء وقطع الحبال بالسيف، فنهض الجمل وارتحل تاركاً خلفه جسد أمة الله الطاهر. أخذ أفعو وأصحابه جسد الطوباوية حبصة ودفنوه بجانب الطوباوية حَيًّا. وبإيمان قصوا شعرها وأخذوه مع شعر حَيًّا الجليلة بعد أن وسموا قبريهما بعلامة. ومن ثم عادوا خوفاً من اليهود الذين كانوا يسيطرون على تلك المنطقة.

أعطانا أفعو بعضاً من شعر السيدتين ذخيرة وبركة، ولكن عندما طلبنا منه أن يعطينا بعضاً من عظامهما قال لنا: «خوفاً من اليهود لم نحضرهما بعد إلى بلدتنا. نحن أيضاً لم نأخذ بعضاً من عظامهما لأنه إن كان مؤمناً يحمل عظاماً للشهداء الأجلاء فسيقتله اليهود مباشرة».

تلك النسوة الفاضلات تقبلن الشهادة الباسلة في سبيل ربهن يوم الثلاثاء من تشرين الثاني، فقدمن مثلاً رائعاً لأولئك الذين جاؤوا بعدهن.

# 5) من (سير القديسين الشرقيين):[1]

## مريم وأفاميا وسوسن

**مقدمة:**

إن القصص التالية مقتبسة من مجموعة قصص القرن السادس **سير القديسين الشرقيين** (الفصلان 12 و27) بقلم يوحنا الأفسسي. كان يوحنا راهباً ـ أسقفاً، مبشراً وكاتباً. ولد في أوائل القرن السادس من ولاية بيزنطية من ولايات ما بين النهرين. كان عمله المتنوع مكرساً لقضية واحدة عظيمة ألا وهي إيمان اللاخلقيدونيين.

كانت معارضة المجمع الخلقيدوني (451 م) قوية بصفة خاصة في سورية الشرقية، وقد ظهرت هذه المفارقة نتيجة الصيغة الأخيرة للتعريف القانوني التي صيغت في ذلك المجمع، والتي تصرح بأن يسوع المتجسد كان (واحداً في طبيعتين). فلما سمع المترددون كما سمَوا في أول الأمر، شعروا بأن هذا التعريف يجزئ وحدانية المسيح بالتمييز الحاد بين طبيعتيه البشرية والإلهية، واعتبروا أن التحديد المصاحب لأعمال المسيح المختلفة لصالح إحدى الطبيعتين (أي المعجزات للطبيعة الإلهية والآلام للطبيعة البشرية) جعل من الحقيقة الكاملة لسر التجسد سخفاً. أما الخلقيدونيون فمن جهتهم توهموا أن كل من رفض التعريف الخلقيدوني كان متعاطفاً مع موقف أوطاخي (المونوفيزيقي الحق) وهو أن جسد المسيح (أي الطبيعة البشرية) لم يكن من جوهر الطبيعة البشرية العادية نفسه النظرة التي أضعفت بشكل خطير فعالية سر التجسد وفي الوقت ذاته شملت بتجديف ـ الطبيعة الإلهية في تحمل الآلام. نرى أن كلاً من الخلقيدونيين واللاخلقيدونيين، بقلقهم الحقيقي بألا

يسقطوا في شرك لاهوتي معين، انتهوا إلى تشويه وسوء فهم الموقف الحقيقي لخصومهم الذين بإخلاص مساوٍ كانوا يجاهدون لتجنب شركٍ مختلف تماماً. في أواخر القرن الخامس أصبح النزاع نزاعاً سياسياً وفي أوائل القرن السادس تحول إلى أمر سياسي هام لدى الإمبراطورية البيزنطية. عندما اعتلى يوستنيان الأول العرش البيزنطي في عام (518 م) تحولت السياسة الإمبراطورية بشكل مفاجئ إلى مساندة الإيمان الخلقيدوني المصدق عليه رسمياً. تقريباً بدأ اضطهاد المعارضة الدينية مباشرة واستمر على نحو متقطع حتى القرن السابع. وإلى هذا اليوم، فالكنيسة السريانية الأرثوذكسية لا تشترك في القربان الإلهي مع تلك الكنائس التي تتمسك بالتعريف الخلقيدوني ـ أي الكنيسة اليونانية وجميع الكنائس الغربية.

عندما كتب يوحنا الإفسسي **سير القديسين الشرقيين** في النصف الثاني من القرن السادس (560 م) لم تكن نيته أن يكتب تاريخ اضطهادات معارضي المجمع الخلقدوني ـ فلقد كتب ذلك في مكان آخر ـ بل كانت السير عبارة عن مجموعة قصص حوالي (58) قصة لرجال ونساء من الشرق السرياني عرفهم بنفسه أو قابلهم، ممّن كانت رسالتهم النسكية ملهمة بشكل خاص. ولكن قصصه في الحقيقة تتركز في وطنه الأصلي ما بين النهرين، المنطقة التي عانت الاضطهاد الأكثر وحشية على يد الخلقيدونيين؛ واستجابة اللاخلقيدونيين في هذه المنطقة تثبت وتبرهن حماساً يساوي حماس المضطهِدين. إن سير القديسين بقلم يوحنا الأفسسي توضح هذه الاستجابة فقط، فهو لا يقدم عمله خصيصاً كدعاوة للاخلقيدونيين بل إن محتوياتها تمجد بسالة وإلهام الأفراد المكرسين لـ(الإيمان الحقيقي) في مجتمع منشق وعنيف، وقد وصلت رسالته إلى مستمعيه وقرائه ولم تذهب مع الريح.

تعتبر هذه القصص هامة أيضا، وذلك للتفاصيل الصحيحة عن حياة القرن السادس ـ سواء في وصف شيء عن الصناعة السياحية في هذا

العصر، أم الحياة اليومية لمدينة كبيرة كالقدس أو ديار بكر، أو الأشكال المختلفة التي اتخذتها الحياة في المنفى، وأكثر من ذلك المشكلات العادية التي تواجه الإنسان الاستثنائي.

## أ) مريم وأفاميا

تبدأ هنا القصة الثانية عشرة، قصة الأختين الطوباويتين المدعوتين باسم: (بنات غزالة).[2] كانت الأولى تخدم في آمد[3] والأخرى في تل موزلت (ويران شهر).[4]

مذ عرفنا من بولس اللاهوتي الذي قال: «في المسيح ليس ذكر ولا أنثى»[5] بدا لنا أن من الواجب أن نقدم قصة أولئك اللواتي هن بالطبيعة إناث، لأن ذكرهن لا يقلل على الإطلاق من قيمة هذه السلسلة من قصص القديسين. وأكثر من ذلك فنهج حياتهن لم يكن أقل من الطريق الممجد الذي سار عليه كل من هؤلاء القديسين، وحتى طريقة حياتهن كانت عظيمة وتفوق الوصف. إذاً كانت تلك السيدتان الطوباويتان الرائعتان أختين في الجسد؛ الكبرى تدعى مريم والصغرى أفاميا.

كانت مريم هذه عذراء طاهرة، ومن طفولتها اختارت لنفسها التقشف الهادئ، الصوم البطولي، السهر الطويل، الصلوات المستمرة، الجهد في الإحسان والتجول لأجل الأعمال الخيرية. أخيراً استقر أمرها على أن تذهب إلى القدس إلى الأرض المقدسة، أرض التجسد الإلهي الذي كان لخلاص الجميع، لكي تتعبد وتصلي ثم تعود إلى حياتها النسكية. وبعد أن وصلت، وقفت أمام موقع الجلجثة وقد غمرتها النشوة. وهناك بقيت واقفة ثلاثة أيام بلياليها. وفي أثناء ذلك جاء بعض الرجال ورأوها ورغب الحراس في إبعادها، ولكن عندما رأوها سيدة عجوزاً ضعيفة بالإضافة إلى أنها واقفة تصلي، تركوها وشأنها فأقامت بعد ذلك هناك في المزار.

ثلاث سنوات ومريم تصلي دون أن تدخل بيت أحد أو تكلم أحداً، لم تمر ليلة واحدة وهي خارج الكنيسة أو تطلب شيئاً من الناس. بل كانت تجلس بين الفقراء وتقضي الليل معهم في الكنيسة أو في أي مكان آخر. فإذا صادف أن جاء أحدهم ووزع حسنات في المكان الذي هي فيه، كانت تمد يدها للهبات وتأخذها. ولكنها تكتفي منها بقدر عشرين مينا(6) وتكف عن قبول المزيد. وإن حدث في مناسبة خاصة أن أعطيت أكثر من عشرين مينا فكانت تعطي المبلغ الإضافي إلى شخص آخر. فبالعشرين مينا هذه كانت تشتري خبزاً بخمسة عشر ميناً وبعض الخضار بمينين وحبوباً جافة بثلاثة مينات، كانت تأكل فقط إذا كان لديها ثمن الطعام، وتجلس ثلاثة أو أربعة أيام أو ربما أسبوعاً صامتة وقد استحوذت السماء على تفكيرها.

غالباً ما كانت تجلس أمام الجلجثة وعيناها شاخصتان إلى الأعلى تحدق بإعجاب ودموع وكأنها تنظر إلى الله المثبت على الصليب. كان أولئك الذين يشاهدونها جالسة هناك بذهول وإعجاب يعتقدون بأنها مجنونة أو خَرِفَة. وهكذا قضت هناك ثلاث سنوات وهي تصلي.

وبعد فترة وجيزة وصل رجال يعرفون مريم وهم على اطلاع تام بمسار حياتها المدهش. وجدوها جالسة أمام الجلجثة وقد رفعت عينيها تتأمل ذاهلة وتبكي. وللحال جثوا أمامها على الأرض يحيونها. لكن مريم حزنت كثيراً لأنها لم ترغب في أن يعرفها الناس هناك. وأخذ أولئك الرجال يخبرون كثيرين عن قداسة نهج حياة هذه المرأة الطوباوية، من طفولتها حتى شيخوختها، فدهش كثيرون وتعجبوا منها. أما أولئك الذين كانت في نظرهم عجوزاً سخيفة ـ أو امرأة تجلس هناك التماساً لصدقة لتسد احتياجات جسمها ـ فقد بدأوا الآن يكرمونها كامرأة قديسة وعظيمة راجين منها أن تصلي لأجلهم.

آنذاك خافت الناسكة من تكريم الناس إياها خشية أن تفقد ثمار

تنسكها، فلما رأت ذلك هربت للحال وهي حزينة جداً لاضطرارها مغادرة ذلك المكان المقدس، لأنها كانت قد قررت قضاء بقية عمرها فيه بتلك الطريقة، وغادرت متجهة جنوباً نحو الشرق، وقد صممت في أعماقها أن تقدم الصلوات مرة في كل عام طوال حياتها في هذا المكان حيث تألم الله.

ونفذت ما عزمت عليه، فكانت تسافر على ذلك الطريق في حمّارة القيظ لا تتذوق الطعام إلا مرة كل يومين، لا تحمل شيئاً على الإطلاق باستثناء سلة صغيرة تعلقها على ذراعها وصحن - وهكذا كانت طريقة ترحالها. وقطعت عهداً على نفسها أن تقوم بذلك الواجب كل عام ما دامت تحيا، تواظب على الصلاة بدموع صادقة طوال حياتها الهادئة. فإذا حان أمد رحيلها كانت تعود صاعدة أورشليم القدس فتفي بوعدها ثم ترجع إلى حياتها الجارية. إلى أن كان وجودها مصدراً لكثير من المعجزات العظيمة التي لم تتم بإرادتها أو طلبها. إذ كانت تنفر من أمور كهذه ولم يكن يسعدها أن يطلب أحدهم شيئاً منها. فإن صمم إنسان على أن يضغط عليها فإنها كانت تحجبه عن رؤيتها. كانت تلك المرأة المكرسة بالطبع حريصة على التواضع وقد حاربت المجد الفاني خوفاً من أن تفقد ثمار تنسّكها.

أما أختها الأصغر أفاميا فكانت متزوجة، وقد علّمت ابنتها التعاليم الدينية منذ نعومة أظفارها. وبعد أن توفي زوجها نظمت أفاميا وابنتها الشابة حياتهما، فشرعت أفاميا تبتعد كلياً عن الحياة الدنيوية مكتفية بعالمها الداخلي، وجارت نهج أختها فاتخذت[7] لحياتها نظاماً معيناً من التكريس، ولبست ثوب التدين، ترتل المزامير وتعلمها لابنتها التي كانت منذ صغرها، ترتلها مع النصوص الكتابية. ومنذ ذلك الوقت حددت أفاميا لنفسها فترة زمنية ثابتة لحفظ الطقوس الدينية والصلاة، ليل نهار. وكانت وهي تجاري نهج أختها تؤدي في الوقت ذاته دوراً آخر سامياً، فقد كانت تعمل على منهجين معاً: التنسك ومساعدة المرضى والحزانى.

قررت هذه المرأة الرائعة ألا يدخل بيتها أي خبز لم يشتر بعمل يديها. وبدلاً من ذلك، وبالعمل مع ابنتها بدقة وامتياز، كانتا تنسجان رطلين من الغزل من صوف الماعز بدينار واحد. وكانت أفاميا تتلقى أجر عملها من نبيلات المدينة، وتشتري بنصف المبلغ بعضاً من متطلباتها وتوفر النصف الآخر لراحة الفقراء والمرضى والمساجين.

وهكذا كانت في كل يوم تأخذ الطعام الذي تعده والخبز والخمر إلى المعوزين أو المساجين أو إلى أي محتاج إليه. وبالتأكيد كانت تتجول في جميع أحياء المدينة، وحيثما وجدت مريضاً أو مشلولاً أو أعمى أو مسناً عاجزاً عن السير، كانت تجلس قربه بدوره وتسأله: «ما حاجاتك اليوم يا عزيزي؟ أتريد أن أشتري لك خبزاً وبعض الخضار؟ أم تريد شيئاً آخر، أتريد أن أذهب وأشتري لك خبزاً أبيض جيداً»؟ ومهما كان الجواب وأيا كان مَن سأل فلم تكن تتركه إلا بعد أن ترضيه. (فإذا خرجت فإنها تخرج وقد حجبت رأسها بغطاء). وإن لم يتوافر لديها مبلغ زهيد كانت تسرع إلى البيت وتأخذ إحدى الأواني المنزلية وتخرج فترهنها لتسعف ذلك الإنسان المعوز.

والواقع أنه كان من المستحيل لمريض مسكين من بين أولئك المنطرحين في الساحات ألا يحظى بزيارتها مرة أو مرتين في اليوم، لأنها كانت قادرة على أن تتجول طوال النهار، فإذا ذهبت إلى الساحات الكبيرة كانت تسأل إن كان هناك يتيم فقير أو عجوز أرملة محتاجة ومريضة. كانت تشتري بما لديها خبز قمح وفواكه وخمراً، وهو طعام مناسب لمن تجده من المرضى، وكانت وهي تطوف توزع الطعام عليهم. لكن إن حدث أن استطاعت بأساليبها الخاصة أن ترضي شخصاً ما بطريقة مناسبة فأيا كان ذلك الإنسان فلا شيء يردعها من منحه التفاح أو الرمان أو السمك أو الخبز. ثم تجلس بجانبه وتأخذ يده وتسأل: «ما الخطب يا عزيزي» وتنصحه قائلة: «لا تكن معتقداً أن المعوزين أمثالك لا عزاء لهم؟ طوبى لك لأجل جميع الأمور

الحسنة المعدّة لك في العالم الآخر، لأجل تلك المصائب التي أصابتك والتي لا تحصى، انظر إلى أليعازر[8] الذي بمثابرته وصبره، ومن غير أن يتذمر ورث ملكوت السموات». ولهذا كان الفقراء يلقبونها بأوفيميا «زائرتنا ومعزيتنا» حقاً. طوبى لتلك المرأة لأجل القلوب الكثيرة المفعمة بالامتنان لها أو المثقلة ببركاتها كبركات طابيثا الأولى.[9] طوبى لها لأجل العديد ممن يبتغون بهذه الأعمال رضا الله الذي يرى الجميع ولذلك كله دعيت (طابيثا) في كل أنحاء المدينة.

وما أن رأى أعوان المدينة ونساؤهم جلدها واندفاعها وحزنها لعدم تمكنها من زيارة المعوزين بسخاء حتى ألح عليها كل من كان يتوق لسعادة نفسه وراحتها أن تدخل مساكنهم وتأخذ لأجل جولاتها أي شيء تحتاج إليه إعانة لنجدة المظلومين والمعوزين. وبذلك تحررت من قلقها إذ كانت حزينة جداً لأمرين، الأول: أنها كانت عاجزة عن إسعاف المرضى والمحتاجين بشكل يفي بالعمل القليل الذي كانت تديره مع ابنتها، والأمر الآخر أنها لا تجد فرصة إلا في الليل فقط لتقوم بالأعمال اليدوية التي كانت قد أخذتها على عاتقها.

كانت ابنتها، إذاً، تعمل ليل نهار بمفردها دون تذمر. وإن قالت لها إحدى صديقاتها أو أحد ما: «إن والدتك تتركك تعملين وحدك طوال النهار». كانت تجيبهم: «عمل والدتي أعظم من كل الأعمال، والله يقويني من خلال صلواتها». ولذا كانت المرأة الطوباوية معفاة قليلاً من القلق لأن ابنتها كانت تعمل لأجل احتياجاتهما، وبحسب إمكانيتهما كانت تعطي المحتاجين وباطمئنان كانت تؤدي خدمتها للمعوزين والمحتاجين والمتألمين طوال النهار، ثم كانت تجمعهم أيضاً في بيتها كل يوم، وتخفف عنهم بثمار عملهما. وبسبب هذا طلب منها الكثيرون برجاء لتقبل ما هو ضروري لها ولابنتها، لكنها رفضت قائلة: «ليحرمني الله إن كان علي أن استنفد طاقات الكائنات البشرية وأرضي حاجة جسدي من عمل الآخرين

في حين أن لجسدي طاقة للعمل، أو أتلقى دنس آثامهم وأضعه على نفسي». لكن إن أجبرها أحد ما بطريقة أخرى انزعجت جداً وقالت له: «من فضلك هل تريد أن تلوثني بدنس آثامك؟ بحسبي دنس آثامي، ليهبني الله القوة ولتلك الفتاة المسكينة التي معي لكي نعمل لأجل احتياجاتنا الخاصة ونخدم أخوتنا حسب طاقتنا». وهكذا رفضتا نهائياً أي طعام لم يكن من عملهما الذاتي في بيتهما. إلا إذا كانت إحداهما مضطرة أن تؤدي خدمة في مكان ما في يوم من الأيام فحينئذ كانتا توافقان على قبول المساعدات.

وهكذا ثابرتا على العمل والصيام والصلاة وتلاوة الطقوس الكنسية أيضاً، وعندما كانت تلك المرأة الطوباوية تولي اهتمامها خدمة المحتاجين تتلو الصلوات وهي تتجول، وهذا ما كانت تفعله ابنتها أيضاً في البيت. أما عند صلاة المساء وصلاة النوم وصلاة نصف الليل وصلاة الفجر فكانتا تتلوان الصلوات الفرضية معاً. بهذه الأعمال العظيمة إذاً وبهذا الأسلوب الرائع للحياة كانت تعيش تلك المرأة الطوباوية بكل قوتها، ولم تفقد مكافأتها العظيمة من أعمالها الأخرى، التي من خلالها تتحقق كلمة الله عن الإنسان الذي له خمس وزنات ـ ولا سيما أن: «من له فسيعطى».(10)

وعندما وقع الاضطهاد، طرد جميع الرهبان في المناطق المجاورة من أماكنهم إلى المدينة واحتل المعادون الأديرة. وكالمرفأ الذي يستقبل السفن من كل مكان لترسو وتتوقف بسلام كذلك كانت لهم تلك المرأة الطوباوية مرفأ فأنجدت المنفيين والمضطهدين من كل مكان. اضطروا للجوء إلى هذه المرأة التقية والمعروفة بنهج حياتها، إذ لم تكن لهم أية فرصة ليدخلوا الأديرة ثانية بسبب الهراطقة.

ثم دبرت أفاميا خطة، فاستأجرت لنفسها بيوتاً واسعة وحولت إحدى

هذه البيوت إلى مزار شهيد، ووضعت فيه الأيقونات والصور والخزائن والأشياء الأخرى من آنية الأفخارستيا، وكتب الليتورجية وكل ما يجده المرء ضرورياً للحياة في الدير، وبالإضافة إلى هذه الأمور فقد زودت المكان بحصر كبيرة وستائر وسجاد أما عنها وعن ابنتها فقد أعدت غرفة داخلية. ونظراً لحكمتها في كل الأمور فقد كرست نفسها لخدمة النساك فقط. وأما ابنتها فلأنها شابة بقيت في الغرفة الداخلية ليل نهار، خشية أن تسيء إلى أحد الرجال بمشاهدتها أو تصاب بأذى إن رأت أحدهم.

ومنذ ذلك الحين لم تؤوِ تلك الكنيسة الصغيرة أقل من عشرة أو خمسة عشر بل عشرين رجلاً في آن واحد. وبالعمل اليدوي الذي وزعته هي وابنتها خارج المكان كانت تشتري أفاميا القمح والعدس والخضار. وفي كل مساء كانت تخبز وتسلق العدس والخضار. وبهذا أسعفت الكثيرين في الوقت الذي كانت غارقة في خدمتها طوال النهار. فضلاً عن ذلك فأولئك الناسكون كانوا يرسلون إليها باستمرار أعمالاً. ولأنهم الآن أصبحوا يأتون إليها من كل مكان بسبب حبها لله فإن الذي كانت تقوم به هي وابنتها صار لا يفي باحتياجات الرجال، لذا أجبرت ـ من أجل هؤلاء ـ أن تقبل ما يحتاجون إليه من الآخرين لتتمكن من تخفيف آلامهم. وأما هي فقد رفضت أن تأكل معهم من هذا المورد. وإن حدث أن حضر بعض الرجال وأجبروها على المشاركة فكانت تحضر لهم خبزاً بمقدار ثلاثة أضعاف ما تحتاج إليه هي وتجلس أمام المائدة وتأكل من طعامهم.

وإن حدث أن جاءها بعض الغرباء وعلمت أنهم محتاجون، ولا يعرفهم أحد في المدينة، كانت تذهب إلى الموسرين وتطلب منهم بحماس قائلة: «ما العمل العظيم الذي ستقومون به لأجل المسيح الذي له كل ما تملكونه من أموال؟ أنتم ترمون إليه كل فائض لديكم وتعتقدونه إحساناً عظيماً. الويل لكم أيها الأغنياء ابكوا مولولين على شقاوتكم القادمة». (رسالة يعقوب 5: 1). لأنه مكتوب أن الصالح يجب أن يكون واثقاً كالأسد

(أمثال 23: 1). وهكذا وبثقة كانت هذه المرأة تؤنبهم جميعاً بغض النظر عن منزلتهم، إلى أن داخل أصحاب اليسار في المدينة، نساء ورجالاً، الذعر بسببها. وعندما كانت تدخل عتبات دورهم ويسمعون أن أفاميا قادمة يقولون: «الويل لنا ها قد أتت طابيثا لتعطينا درساً في الأخلاق». ومن ثم كانت بشجاعة وإقدام تأخذ كل ما تريد لتعطي من هو محتاج إليه، كالنساك المتنقلين أو الأرامل والأيتام المرضى أو المحتاجين والمرضى، وكانت تخرج لزيارتهم.

ولكن إن قدم أحدهم ولم يتصدق بفرح كانت تجعله يندم بمثل هذه الكلمات: «حَسَنٌ لك أن تجلس، وخدمك واقفون حولك يخدمونك، يحضرون لك وجبات متتالية من الأطعمة الشهية والخمر وأفضل أنواع الخبز الأبيض، وأفخر أنواع السجاد، بينما الله (مقهور) في السوق، محاط بسرب من القمل ومغمى عليه من الجوع. ألا تخافه؟ كيف ستدعوه فيجيبك، عندما تعامله بازدراء هكذا؟ كيف ستطلب الغفران منه أو تتوقع أن يخلصك وينجيك من جهنم؟ وهكذا كانت تدينه إلى أن يغضب منها نوعاً ما. فأولئك الدنيويون، يقول فيهم الكتاب المقدس: «لا يحب الأحمق الإنسان الذي يوبخه».[11] إلا أنها كانت تتقن تلبية حاجات الحزانى والمعوزين وتنجدهم هم وأولئك الذين فقدوا الراحة البشرية، بما يتوافر لديها.

ومن المؤكد أن المدينة كلها لم تكن كافية لعملها فقد كانت تخرج لتفتش بإتقان خارج المدينة في الفنادق والطرقات والأديرة خشية أن يكون فيها محتاج أو غريب مريض في أحد هذه الأماكن. وهكذا كانت تعثر على الكثيرين وتنجدهم، تأخذ بعضهم إلى بيتها، وتحمل بعضهم إلى المستشفيات حيث تقدم تعليماتها بشأنهم. وبسببها في أغلب الأحيان كان يُستقبل هؤلاء ويعنى بهم.

آنذاك أصبحت أفاميا معروفة لدى الكبار والصغار على السواء في لمدينة. وكان الجميع يعرفونها حتى عن بعد من مشيتها الطليقة. صيف شتاء، في الوحل والثلج والجليد، كانت تمشي حافية القدمين ولذلك، ترتطم أصابع قدميها وتتكسر أظافرها، ويتدفق الدم من جروحها. وما كانت ترضى أن تضمد جراحها مع أن كثيرين حزنوا من أجلها وهم يرونها على تلك الحال. نحن أيضاً قلنا لها مراراً متندرين: «لا تقتلي نفسك بعنف شديد يا طابيثا». ولكنها كانت تقول: «إن كانت نهاية كل شيء هي التعفن والديدان فلم نتجنبها».

حقاً كانت أفاميا نشيطة جداً في خدمتها الدينية حتى أن اللسان ليعجز عن التحدث عن عملها العظيم. وهكذا أيضاً كانت أختها مريم في مدينة تلاّ تنتصر في اختبارات الكمال القائمة على التقشف والصمت والفقر مثل أفاميا تماماً في مدينة ديار بكر. ولذلك اشتهرت هاتان الأختان في كل أنحاء الشرق وحظيتا بإعجاب الجميع حتى أن كلتيهما بنهج حياتها الذي لا مثيل له أجهدت نفسها بشجاعة لتبلغ الصلاح والاستقامة.

وبعد أن أمضت السيدة الطوباوية ثلاثين عاماً تقريباً في مثل هذه الممارسات وكان منزلها يضج ليلاً نهاراً بثناء النسّاك القادمين من كل مكان، لم يتردد الشيطان ـ الذي يغار من كل عمل حسن على الدوام ـ من أن يثير لهما تجربة لكي يحرمهما ويحجب عنهما ثمرة عملهما الروحاني العظيم. لذلك أثار ضدهما غيرة الهراطقة الذين كانوا قد استولوا على سلطة الكنيسة بعنف ووحشية وبدون رحمة. قالوا: «هاتان السيدتان تزعجان هذه المدينة ـ لماذا يحترمهما المواطنون ويكرمونهما أكثر من الأساقفة، لأن بيتهما أصبح وكراً للصوص[12] فهما تستقبلان وتؤويان المخادعين». ثم أمروا بالقبض عليهما وأخذهما إلى الكنيسة، وأرغماهما على تناول القربان من أيديهما غير الطاهرة. ولكن وعلى الرغم من تهديدهما السيدتين مرات عديدة ومجاملتهما مرات إلا أن المرأتين لم تخضعا

وكلمتهم أفاميا الطوباوية بقوة وببسالة وهي تجاهد الموت قائلة: «امنعني يا ربي يسوع المسيح من أن أتناول القربان مع أولئك الذين يقسمونك أو مع أولئك الذين ينادون بالرباعية بدلاً من الثالوث الأقدس». وعندما سمع أولئك الذين يستحقون هذا القول ثاروا بغضب شديد وأمروا بأن تقيد السيدة الطوباوية بزنزانة في أسفل السجن. وبسبب (هذه الإهانة) سجنت هناك ثلاثين يوماً.

في أثناء ذلك كانت المدينة برمتها تتوسل لإطلاق سراحها، ولكن المسؤولين أقسموا بأن تبقى هناك إلى أن تشترك بالقربان المقدس ولكن عند سماع هذا سخرت منهم قائلة: «إن عانيت فقط أشد الآلام في سبيل هذا الذي تألم على الصليب من أجلي، فأفضل أن أموت هنا من أن اكفر بربي والهي». فلما أعيتهم الحيلة لإقناعها، وكانت المدينة بأسرها في حالة هيجان لأجلها، أخرجوها ونفوها إلى خارج المدينة ـ تماماً كما خطط لهم الشيطان. فحزن لذلك وبكى بحرارة كل فقراء المدينة، وعم الحزن أيضاً أعيانها.

غادرت أفاميا وابنتها إلى أختها مريم تلك المرأة البارة، على أمل أن تزورا القدس وذهبتا فعلاً وعادتا. وهكذا قاومتا محنة الاضطهاد خمس سنوات. وبعد بقائهما هذه المدة في صحبة مباركة اعتقدتا بأن سورة الاضطهاد خَفّت وخمد الغضب عليهما، فغادرتا، إلى ديار بكر ودخلتاها سراً ومكثتا في منزل أحد الشرفاء.

فلما شاع أمر وجودهما في المدينة بدأ المعارضون يتكلمون عليهما، قلق الناس الذين كانتا تمكثان عندهم فتوسلوا بأن تغادرا خشية أن يُسلب منزلهم. كانت أفاميا البارة حزينة فبكت بصوت عال وقالت مناجية ربها: «رحمتك، يا ربي، تعلم أنني قد ضعفت وخارت قوتي، بحسبي هذا» واستجاب الله لدعائها. ففي الليلة ذاتها مرضت، وكان أهل البيت خائفين

وقلقين عليها، فطلبت الاجتماع بهم وقالت لهم: «لا تنزعجوا يا أبنائي، لأني سأترك منزلكم هذا الأسبوع إلى الأبد». غير أنهم لم يدركوا مغزى قولها وعن أي رحيل تكلمت.

ولما اجتمعت أفاميا بابنتها (وكانت تدعى ماريا) قالت لها: «يا بنتي، تعزي بالمسيح، وصوني نفسك بالطهارة لأجل الرب، ربك الذي أنت مخطوبة له. لا تحزني لأنني لن أتركك ـ لا سمح الله يا حبيبتي، ولكني أعهد بك إلى ابن سيدتنا مريم المباركة وللقديسة مريم، نفسها التي بصلواتها تُصانين وتصبحين هيكلاً لروح الله القدوس». آنذاك قدمت لها عدة تعليمات صارمة، قالت: «إني ذاهبة إلى المسيح». ثم أسلمت روحها للعناية الإلهية وهي تتكلم، بسطت يدها ورسمت إشارة الصليب باسم الرب يسوع المسيح، وبسطت جسدها وهي تنظر إلى السماء. فلما ارتفع نظرها إلى السماء خرجت روحها، ومَنْ حولها مأخوذون لرحيلها.

بقيت ابنتها وحيدة مفجوعة. ولكن بعد يومين من وفاة والدتها وفيما هي جالسة حزينة متألمة ـ تكاد تقترب من الموت ـ جاء رجل يحمل إليها رسالة تنبئها بموت مريم الناسكة التي رحلت عن العالم قبل عشرة أيام وذهبت إلى الله. عندما علمت صديقاتها بما حدث أخفوا الخبر عنها خوفاً من أن تموت من الحزن الشديد، لأنها ذهنياً كانت قد تهيأت للذهاب إلى خالتها الناسكة لتشاركها نهج حياتها حتى موتها. فلذلك منعوها من سماع الخبر مشفقين على حزنها المستفيض.

وهكذا ختمت هاتان السيدتان الطوباويتان في أقل من ثمانية أيام مسار حياتهما معاً بعد أن تحملت كل منهما أعباء العمل العظيم. عاشت مريم الطوباوية ستين عاماً في درب القداسة تسعى مجتهدة من مولدها حتى وفاتها حثيثاً على طريق الكمال وتكدح نحو الله. لقد سارت أفاميا الطوباوية أيضاً خمسة وثلاثين عاماً على طريق الكمال ـ أي الاستشهاد في

سبيل المسيح ـ بينما ما زالت ابنتها الناسكة محصنة بقوة نسكها وصلاتها، تتبع خطا السيدتين الطوباويتين، وتسلك مسلكهما بعد وفاتهما.

انتهت سيرة الأختين أفاميا ومريم.

## ب) سوسن

السيرة السابعة والعشرون الآن سيرة الناسكة سوسن عذراء المسيح.

تُمجد قوة المسيح العظيمة عادة وتتجلى في الضعف البشري لكي لا يفتخر كل ذي جسد أمام الله، مقوي الضعيف.[13] ولكن قوته لا تظهر لدى الرجال الأقوياء في مظهرهم وشدة بأسهم وفعاليتهم فحسب وإنما أيضاً في النساء الضعيفات، الواهنات، ضعيفات البنية. وهكذا، تحصنهن وتشجعهن كي يتحملن هن أيضاً الصراع بقوة باسلة وشجاعة ليس فقط مع الجسد والدم، والعواطف المغرية والشهوات الجسدية الخ، إنما مجاهدة الإمارات والسلطات وأولئك الذين يحكمون عالم الظلمة هذا، والأرواح الشريرة تحت السماء (أفسس 6: 12). ضد هؤلاء يمنحن الشجاعة ويسخرن من هؤلاء كذي سلطان يسخر من مجموعة من الأطفال والرضّع الذين يتأهبون ليأتوا ويقاتلوه. وقد كشف لنا بولس الحكيم هذا في كل الأمور، عندما قال: «ليس يهودي ولا يوناني، ليس عبد ولا حر، ليس ذكر وأنثى، لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع» (غلاطية 3: 28). هذه المرأة إذاً طوباوية وكالرجال في المسيح، أدهشني كثيراً مظهرها، كلماتها وقوتها بالمسيح حتى إنها بدت لي مناسبة ملائمة جداً لتذكر في هذه المجموعة من سير القديسين والنساك، فهي تجهد نفسها معهم لتدخل من الباب الضيق نفسه كما فعلت بالتأكيد.

كانت هذه المرأة الناسكة (كما اكتشفنا عندما علمنا التفاصيل منها) تنتمي إلى عائلة من أرزانين الفارسية (عبر نهر دجلة إلى الشمال الشرقي من ديار

بكر). عائلة نبيلة، ومنذ نشأتها، منذ أن كانت في الثامنة من عمرها، تألق في ذهنها نور حياتها حتى تعجب الناس من وعيها وتواضعها وتقاها. وكأنه من خلال النبوءة سماها أبواها بركةً، فهي التي تلقت حقاً بركة سماوية.(14)

قررت هذه الفتاة الفاضلة أن تذهب وتتعبد في الأماكن المقدسة، إذ فيها تم خلاصنا، فتوسلت إلى والديها. لكنهما سخرا منها لأنها محض طفلة، وقالا لها: «أنت لم تتعلمي بعد أن تتفهمي النصوص الكتابية ومع ذلك تريدين الذهاب إلى القدس» لذا صمتت وبقيت تترقب في قلبها، وفي أثناء ذلك صلّت وقالت: «إن أردت يا ربي خلاص نفسي البائسة فسهّل قدامي طريقك، وارحمني وخلص نفسي من نجاسة مستنقع هذا العالم القذر». ثم وهبت الطفلة الصغيرة (كما قصت علينا عندما ضغطنا عليها كثيراً) نفسها لله، وهربت.

بعد مسيرة ثلاثة أميال أو أربعة صادفت قافلة ضخمة من النساء والرجال تتجه إلى القدس. وبعد أن باسطتهم وسألتهم عن وجهتهم، قفزت ورقصت فرحاً وهي تسبح الله وتقول: «كم أنا مباركة حتى الله يريد خلاصي، كما طلبت، فقد استجاب لي ولن أعود، لا قدّر الله، إلى العالم وأسرتي ووالدي فأهلك، بل أذهب إليه هو الذي يرشدني، وهو أبي وأخي وقريبي في العالمين». وهكذا بلغت القدس مسرورة، وبعد أن تعبدت هناك، رغب مرافقوها في أن يعودوا ورجوها أن تعود معهم إلى بلدها قائلين: «لا نستطيع تركك هنا». لكنها افترقت عنهم ولم يروها ثانية.

آنذاك بحثت حولها عسى أن تجد ديراً تعيش فيه، فلما علمت بوجود جماعة من النساء بين عسقلان وغزة، تابعت سيرها إلى هناك، وأظهرت رغبتها للمرأة حارسة الدير، ولكن قالت لها العجوز بسبب قسوة نظام الدير: «لا يمكن يا بنتي أن تعيشي هنا لأنك طفلة. لا يمكن أن تتحملي قسوة الحياة والعمل المضني. وبالإضافة إلى ذلك فإن تربيتك الرفيعة اللطيفة لا تجعلك ملائمة للدير».

حزنت الفتاة الورعة كثيراً لأنها كانت غريبة في بلد غريب، فجلست عند البوابة تبكي سبعة أيام. وحاولت النسوة إبعادها لكنها رفضت أن تغادر المكان. فلما علمن أنها غريبة أدخلنها، فدخلت، ومع أنهن احتقرنها بسبب صغر سنها إلا أنهن لما علمن من أين أتت وإلى أين ذهبت قلن لها متظاهرات بالاهتمام بها: «ما الفائدة يا صغيرتي من أن تخرجي وتهلكي نفسك بهذه الطريقة في مستنقع الخطيئة؟ فأنت صغيرة السن وأكثر من ذلك وحيدة، وأنت التي يمكن أن يحتال عليك الشيطان ليدمرك ويهلكك قبل سن النضج». ثم (كما قصت علي النساء المتنسكات وهن أنفسهن قد علمن منها عند البداية) قالت: «لأجل ربنا صلوا لأجلي لأني أثق به، وله قد سلمت نفسي، إنه لم يتركني لأهلك ولن يتركني الآن». وهكذا سبحن الله.

ومنذ ذلك الحين تبنت سوسن الممارسات النسكية العظيمة والأعمال العفيفة: الحرمان، والتقى، وكانت الناسكات يردعنها ويوبخنها لطفولتها ولكي لا تكرس نفسها لهذه الأمور أكثر من المكرسات الأسن منها. ولكنها كانت تكافح أكثر فأكثر وتظل ساهرة طوال الليل منتصبة في زاوية. لا تنبس بكلمة واحدة، لمن كن معها، طوال اليوم، إلا إذا استجدينها، ومنذ وصولها إلى الدير لم تر أية سيدة من مرافقاتها وجهها مكشوفاً أو عينها بالكامل، ولم تندّ من فمها أي ابتسامة.

فلما رأين نهج حياة الفتاة الناسكة ـ جاهدن طويلاً لمنعها فقد كانت طفلة، وقد أمضت ببساطة عاماً أو عامين في هذه الممارسة المرهقة، وأولئك اللواتي كن يعاملنها بازدراء بسبب صغر سنها، وجدنها إنسانة رائعة، ثم غيرت اسمها الذي كانت تدعى به قبل دخول الدير خوفاً من أن يأتي أحد أفراد أسرتها ويستفسر عنها، فيجدها، ودعت نفسها سوسن.

بعد أن أمضت عشر سنوات في هذه الممارسات، وقع الاضطهاد على

الدير الذي تقيم فيه وأجبرت النسوة على الخضوع للمعتقد الخلقيدوني أو المغادرة، ولما كانت جماعتهن كبيرة ومعروفة. فقد قبض على أغلبهن ومن ثم خضعن للمضطهِدين، فتشتّت بعضهن هنا وهناك. وهكذا واجهت السيدة الناسكة خيارين: إما أن تغادر الدير أو تجازف بالسقوط في الإيمان بالمعتقد البغيض، لذا قررت أن تخرج من الدير وتتوغل في الصحراء إلى ما بعد الإسكندرية، وتعيش هناك. وغادرت ديرها للحال. لكن انقساماً كبيراً وقع بين تلك الأخوات اللواتي كن قد استسلمن وقالت بعضهن: «ما دامت سوسن قد رحلت فلن نبقى». ثم انضمت إليها خمس سيدات من اللواتي تركن أكثر شهرة ولم يستسلمن، مع أنها قد كانت نوت أن تذهب بمفردها فقلن لها: «لا يمكن أن نفترق عنك أبداً».

وكشفت لهن مقاصدها مكرهة بعد إلحاحهن فقالت: «لا تأتين معي. وأقول بإيجاز إن أفادني الله كما عودني إنني ذاهبة إلى الصحراء». وهن أيضاً صرحن بقرارهن قائلات: «نحن أيضاً سنأتي معك إلى الصحراء». ولأنهن لم يعدلْن عن قرارهن، ركبن السفينة معاً وعبرن إلى الإسكندرية.

وهناك سمعت المرأة الناسكة نبأ عن مكان في الصحراء يقع خارج دير مار ميناس فتوجهت إلى هناك ـ على بعد ميلين تقريباً من قرية تدعى منديس. وقد أصبح هذا المكان بالتالي مخصصاً للنساك السريان، ولكن سوسن هي التي بدأت. وكان هناك برج قد بني لمراقبة البرابرة، فدخلته بحماس وسكنت فيه والأخريات الخمس. ثم ذهبت إحداهن ودبرت لهن عملاً من القرية. وهكذا عملن بأيديهن لأجل احتياجاتهن، ودعمن أنفسهن، واعتنى الله بهن نظراً لحماسهن وثقتهن به.

بعيداً عن البرج كان كهف تحت الأرض عاش فيه رجل تقي ناسك وكان من عادة سوسن أن تترك سكنها البشري وتخرج متجولة تصلي في الصحراء. وفي إحدى المرات بينما كانت تتجول صادفت ذلك الكهف

وللحال قفزت إليه. لم تعرف صديقاتها ولا أي إنسان آخر ما فعلت ولم تكن قد أخذت معها أي طعام أو أي شيء آخر. فكما هو مكتوب عن إسماعيل بن إبراهيم «جلس في برية فاران وكان ينمو رامي قوس» (سفر التكوين 21: 20 - 21) وأيضاً يمكن أن نقول عنها إنها كانت تجلس في كهف صحراوي وقد شبت على مصارعة الشياطين الأبالسة بكل رجولة أولئك الذين يُظهرون شدة شرهم في البرية بشكل خاص.

وبعد أن مرّ يوم أو يومان ولم تعد، جلست صديقاتها يبكين بحزن وحرقة ليل نهار وقلن: «جئنا إلى هنا بإيمانها والآن تركتنا ورحلت». وبعد حوالي عشرة أيام علم بعض الناس من القرية ما حدث، فذهبوا إلى النسوة الناسكات ليتقصّوا الخبر. فلما رأوا حزنهن وبكاءهن تساءلوا إن كانت قد ذهبت إلى ذلك الكهف في البرية. ولأنهم كانوا يعرفون المكان خرجوا إليه فلما بلغوه، أنعموا النظر إلى الداخل فرأوا المرأة الناسكة منطرحة على وجهها تئن وتبكي. تحدثوا إليها لكنها ظنت بأنهم الشياطين الذين كانوا يُظهرون لها أشكالاً مخيفة وشنيعة، ولذا لم تكف عن الصلاة والبكاء. فلما رأوا أنها لا تجيب تركوها وذهبوا ليخبروا صديقاتها.

ومن ثم أسرع الجميع إلى الكهف فوجدوا الناسكة على وضعها تبكي وتصلي. بعد أن تحدثوا إليها في أمور عديدة اقتنعت أخيراً أنهم ليسوا الشياطين الذين جاؤوها قبل يوم متنكرين ليبعدوها عن المكان. وبالدموع الغزيرة توسلت إليها النساء وقلن: «ألا تعلمين أننا خرجنا إلى الصحراء مؤمنات بك بعد ربنا؟ فلم تلتمسين الآن هلاك أنفسنا جميعاً، وأنك طالبة الخلاص لك وحدك؟ ألا تعلمين أننا لا نستطيع العيش من دونك؟ لكن المرأة الصلبة قالت لهن وهي تبكي وقد تطامن رأسها: «يا أخواتي اتركنني وحدي. أنا معكن دوماً، ولأن الله أعد لي هذا المكان لأعيش فيه بسكون فاذهبن بسلام. وفي أيام الآحاد لتأتي إحداكن وترى إن كنت حَيَّة أم ميتة». ثم وقفت النسوة حولها ليرفعنها وحاولن المستحيل لتذهب معهن فأعيتهنّ.

أخيراً انتزعن منها وعداً بألا تغادر ذلك المكان أيضاً دون إعلامهن، وقد وعدتهن. فاستجدينها أن تسمح إليهن بإعداد صحن من العدس يحضرنه لها لأنها لم تذق طعاماً خلال الأيام العشرة، لكنها رفضت الإصغاء إليهن وقالت: «هل ترغبن في الاهتمام بطعامي وأنا منطرحة على وجهي وتجعلنني آكل عرق وجوهكن، حاشا، فلأجل تغذية جسدي يكفي أن تحضرن لي إبريقاً من الماء أيام الآحاد وقطعة صغيرة من الخبز اليابس لكل يوم».

وهذا ما فعلته ثلاث سنوات. ثم اشتهر أمر الناسكات وعلم الناس بمكان إقامتهن، فجاءهن كثيرون من الإسكندرية وقرى ليبيا. وكان ثمة رجل عظيم مسنّ، له حوالي عشرة تلاميذ كانوا يقيمون بجوار دير النسوة في فلسطين، فوقع عليه وتلاميذه اضطهاد شديد، واقتيدوا من مكان إلى آخر. لكنهم سمعوا فيما بعد عن الناسكات وأين كن وعن هدوء تلك البرية وعذوبتها، فشق الرجل طريقه مباشرة إلى ذلك المكان، فوصله هو وتلاميذه ـ وكان أحد التلاميذ شقيقاً للسيدة التي اختيرت رئيسةً للناسكات. وكان هو أيضاً متميزاً بنهج حياته، ويدعى صموئيل. وكان الكهل يدعى بمارو ونشأ في ديار بكر أما تلميذه صموئيل وأخته فكانا من ضواحي الرها.

فلما جاء هؤلاء الرجال اطمأنت الناسكات وفرح الرجال أيضاً وشكروا الرب لأنهم انتعشوا بسكون البرية. ثم بدأوا بتأسيس خلية في تلك البرية وخلايا أخرى أيضاً جاءت إلى هناك. كتبنا عن بعضهم في فصل سابق. وهكذا أصبح المكان آهلاً بهم وبالناسكات. لكنهم قرروا أن يعدوا مكاناً منفصلاً خاصاً بالنساء لئلا يفسحوا في المجال للدخلاء للإساءة إليهم، ولأنه كان من الصعب عليهم أن يتكلموا دون أن يجرحوا مشاعر سوسن. بالتأكيد كانت سوسن قلقة من الفكرة ذاتها: «لأن الله قد زود خدامه بهذا المكان ولكنه ليس بالإمكان لجنسنا الأنثوي أن يعيش بين الرجال ـ لأن مهاجمة الشر للنساك غالباً ما تكون من خلال النساء، حتى لو كن بعيدات

فكيف بشدتها إن كن قريبات؟ حتى لو حدث أن تابعنا الأمور الروحية بحذر. لنفترق إذاً ونتوغل في البرية إلى ما وراء هذا المكان».

ولأن أولئك الرجال النساك كانوا خجلين أمام وقار الناسكة فقد تحدثت هي بنفسها عن هذه الأمور. فلما سمعوا كلامها، سبحوا الله، وأخذوا على عاتقهم بناء وإعداد مكان للسيدات عند حدود تلك القرية، بينما استعدت سوسن للتغلغل في داخل الصحراء. فوقفوا يعارضونها قائلين: «ستكون المدينة صحراء بالنسبة لك يا أماه، إن عشت فيها. انظري إلى هذه النفوس التي تعتمد عليك». وهكذا اقتنعت سوسن. فبنوا ديراً مسيّجاً مع برج سكنت الناسكات فيه.

آنذاك كسبت الناسكة جولة ضد الشياطين من خلال عزيمتها التي جاءت من النعمة، فقد نظموا أنفسهم صفوفاً متتالية لمحاربتها على هيئة الرجال وهاجموها بجميع أنواع الأسلحة. لكنها سخرت منهم كأي رجل قوي يحتقر الرجال الضعفاء الذين يهددونه. شاعت أنباء قوتها في كل مكان، وبعد أن مكثت في تلك البرية خمسة عشر عاماً وردتنا أخبار قداستها، وتمنينا أن نراها والنساك الذين كانوا هناك أيضاً. ولما اعتبرنا مستحقين رؤيتها هي التي بالكاد أستطيع أن أدعوها امرأة، أدهشتني كلمات الألم وحكمة الله التي صدرت من فمها - ومكثتُ مع النساك عشرين يوماً أو أكثر، أذهب وأعود لأسمع حديثها اللطيف.

لم أستطع أن أرى رأسها مرفوعاً أو أي ملمح من وجهها عدا أرنبة أنفها، ولشدة ما بدت حزينة ودائمة البكاء. شرعت تحدثنا عن هذا العالم وقد تعلمت من أخطائها: كيف يرى الرجال أصدقاءهم يفسدون ويفنون في قبورهم والهوام تدب وتمتزج بعفونتهم؟ مع أن أولئك الذين يرون هذه الأشياء يضلون الطريق عبر العبث الفارغ في هذا العالم المخادع. وتحدثت أيضاً كيف أنه لا يخطر في قلوب الرجال أن الساعة المخيفة لهلاك هذا

العالم تقترب سريعاً، ساعة يقفون أمام قضاء الله المخيف. وقالت: «إنه لمن السخف أن نسمع عن ألسنة نار جهنم، وأعماقها اللاّهبة، عن الظلمة وبقية أنواع العذاب، ولا نفكر جدياً ونطلب الرحمة حيث الفرصة لدينا، لنتحرر من هذه الأمور». وحدثتنا المرأة التقية عن أمور أخرى أكثر روعة من هذه وبقينا مندهشين حيال كلماتها.

تلقت أيضاً موهبة الشفاء فكان بمقدورها أن تشفي من كل الأمراض أو الأسقام التي تمد يدها عليها. وعندما كنا هناك كان رجل طوباوي، عظيم ومحب لله، يعيش في مكان في البرية، ليس بعيداً عن مكانها، وكانت الشياطين تستعد علانية لمصارعته، وكان يرى معركة الشيطان مع الناسكة وترى بدورها معركته مع الشيطان ولأنها كانت أقوى منه فقد كانت تتغلب على الشياطين ولا تخافهم على الإطلاق. أصبحت قاسية صلبة لا يمكن زعزعتها حتى أن الشياطين كانوا يصرخون : «ما هذه امرأة بل صخرة أو حديد بدل اللحم». بمثل هذه الأمور كانت الشياطين تخاطبها.

كانت ثابتة لا تتزعزع إلى درجة أن الناسك كان يذهب إليها حين كانت رؤياه تنتصر وكأنه يذهب إلى امرأة عظيمة. وبينما كنتُ هناك جاءها شاحب الوجه مضطرب التفكير، مذعوراً. فلما رأته أدركت حاله وسألته: «ما سرّ إرهاقك يا أبتاه»؟ فأخبرها: «إن الشياطين قد قويت عليه وسلبت أحاسيسه». وقال: «كنا طوال الأسبوع مشغولين في معركة معهم تتصاعد متنامية، وفي الليلة الماضية واليوم أظهروا لي أشكالاً مخيفة تثير الهلع فارتعش قلبي واستولوا على عقلي وارتبكت. وهربت من الخوف وأنا مضطرب جداً فلم أقو على الدخول إلى صومعتي بسبب الظهورات التي رأيتها. ولن أعود إلى ذلك المكان ثانية».

لكنها عندما سمعت ذلك هزت رأسها قائلة: «تعال نلق نظرة على أمثالك من الناس الذين يدعون أنهم رجال، ليسوا رجالاً فحسب بل خداماً

لله. هل تستحقون اسم خدام المسيح؟ هل تعتقدون أن المسيح إلهكم واهن ضعيف؟ هل تُظهرون لضعفكم الذاتي أن قوة الله العظيمة لا تقهر، الله الذي رمى ودمر وألغى سلطة إبليس، في الحقيقة أضعف من قوة الشياطين؟ هل تظاهَرَ السيد المسيح بالهرب والغلبة أمام الشياطين؟ هل أصبحت الشياطين منتصرة على قوة الله؟ كيف يمكن أن تكون من تلاميذه وقد قال: ها أنا أعطيكم سلطاناً لتدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو ولا يضركم شيء (لوقا 19:10). اسمح لي يا أبتِ لقد أحزنتني لأنك فرّحت قلوب الأبالسة. سمعتُ الليلة الماضية الأشكال والأصوات التي تجسد معارك الشياطين فاستغربت. ولكنني أعرف تماماً أن قوة الرب تحيط بضعفي كسور من البرونز وليست هناك قوة أخرى يمكن أن تقف ضدها». ولما فاهت المرأة الضعيفة أمامنا بهذه الكلمات وبشجاعة وبساطة، تبادلنا النظرات مع أنها لم ترفع نظرها إلى أحدنا. ثم خاطبت الناسك بثقة: «باسم الرب يسوع المسيح قف، اذهب إلى صومعتك. فكما اعتاد الله سيذلل قوة الشيطان بأسرها». خجل الناسك مما قالته السيدة فوافق على الذهاب إلى حجرته وهو يرتعش منكسفاً.

ثم تنحينا عنها وتحدثنا فيما بيننا معجبين بقوتها وشجاعتها الروحية، وسألته: «لم لا يستطع أحد أن يرى وجه هذه المرأة»؟ فأجابني: «في أحد الأيام بينما كنا نتحدث، سألتها: ’لمَ تخفين وجهك عني‘؟ فأقسمت قائلة: ’الله الذي أوثقني برباط نعمته يعرف، وأنا مذ قبلت نيره يا أخي قبل خمسة وعشرين عاماً لم أر وجه رجل. هل تريد مني أن أنظر إلى وجهك الآن‘؟ لذا قلت لها: ’من أجل ربنا، قولي الحقيقة. هل أنت خائفة من أن تتعرضي للتجربة لدى رؤية رجل، أو أن ذلك سيغريه لرؤيتك‘؟ فأجابت: «بسبب الأمرين». وغادرنا المكان معجبين أيما إعجاب بتصرف الناسكة سوسن وإخلاصها كعذراء للمسيح ونحن نسبح الله.

انتهت سيرة الناسكة عذراء المسيح التي كان اسمها سوسن.

# 6) أنستاسيا

**مقدمة:**

الأصل اليوناني لهذا النص يشكل جزءاً من مجموعة قصصية لها علاقة بالراهب دانيال من أسقفية الأسقيط الصحراوي (وادي النظرون) موطن العديد من الرهبان (والأديرة الواقعة بين القاهرة والإسكندرية) أواخر القرن السادس.

في أغلب الأحيان تتخذ هذه القصص شكل حكايات هدفها السمو الخلقي وربما تكون قيمتها التاريخية ضئيلة إلا أن بعض الشخصيات التي ظهرت فيها غالباً ما وجدت بالجسد.

في واقع الأمر تجمع هذه السيرة بين حادثتين منفصلتين تماماً: الأولى عن زيارة دانيال أحد الأديرة وسط مصر حيث يتلقى صداً ناعماً ومفرحاً من رئيسة الدير ومن ثم يكشف عن شخصية راهبة طاهرة ورعة تفتعل الجنون ـ نقية حمقاء لأجل المسيح، والثانية: قصة راهب خصي في الظاهر وهو في الحقيقة امرأة نبيلة تدعى أنستاسيا، هربت من القسطنطينية إلى مصر لتنجو من عروض للزواج وتلميحات من الإمبراطور جوستنيان، ثم أصبحت «راهباً» وتم كشف النقاب عن حقيقتها عند وفاتها فقط.

إن مؤلف السِّيَر الذي يزعم أنه تلميذ دانيال حلّ محله واقتبس مادة قديمة وطبقها على بيئة جديدة، فالراهبة المجنونة قد صوّرت بوضوح على غرار أونيسيمه التي تظهر في **هيستوريا لوسياكا** لبلاديوس[1] بينما موضوع

التنكر في زي رجل (والذي سبق أن رأيناه في سيرة بلاجيا) كان على الدوام موضوعاً مشهوراً في سير القديسين.

تقدّم الترجمة السريانية (وليس الأصل اليوناني) أنستاسيا هذه على أنها أنستاسيا الشماسة ذاتها التي راسلها البطريرك سويريوس الأنطاكي (538 م). ربما لا يكون ذلك أكثر من تخمين وبالرغم من أن هذه السيرة بدأت في مصر وليس سورية إلا أنها تنتمي إلى مجموعة القصص التي ثبت أنها مشهورة ومؤثرة في الوسط السرياني لذا تضمنتها هذه المجموعة . فالعلاقة الحميمة بين سورية ومصر في القرن السادس وخاصة بين الجماعات الرهبانية قد تظهر بوضوح في سيرة سوسن (5 ب).

## قصة أنستاسيا

**1)** غادر الراهب دانيال الناسك وادي النطرون مرة مع تلميذه، ليذهبا إلى دير للراهبات يدعى تبانسي، كان يقع في الصحراء الداخلية. فلما علم متوحدو الصحراء بذلك خرجوا ليقابلوه مجتمعين كقطيع من الخراف ينتظر راعيه، فلما رأوه عن بعد جثوا أمامه على الأرض سبع مرات. فخاطبهم بكلمات مفيدة وختمهم بإشارة الصليب قائلاً: «استمروا في التخلي عن الممتلكات، والتنزه عن الدنيويات، فبهذه الأساليب سيعاين الإنسان وجه الله». ثم باركهم واستأنف طريقه.

**2)** وعند المساء بلغا الدير الذي تحدثنا عنه سابقاً، فقال الناسك لتلميذه: «اذهب يا بني وأخبر رئيسة الدير أن معك رجلاً عجوزاً من الأسقيط وأننا نرغب في المبيت لديكم هذه الليلة». وقد جرت العادة ألا يدخل رجل ذلك الدير.

ذهب التلميذ وقرع باب الدير، فسألته راهبة مسنّة: «عذراً ماذا تريد»؟ فأجابها قائلاً: «استدعي رئيسة الدير». فلما خرجت إليه الرئيسة قال لها:

«معي رجل عجوز من وادي النطرون ونطلب المبيت عندكم هذه الليلة لئلا تفترسنا الوحوش البرية». قالت له مبتسمة: «خير لكما أن تفترسكما الوحوش البرية خارج الدير من أن تفترسكما من في داخله، يا بني». ثم أخبرها قائلاً: «إن دانيال الطوباوي معي».

3) فلما سمعت ذلك لم تنتظر لحظة بل فتحت دفتي باب الدير وأخرجت كل الأخوات لمقابلته ففرشن ملاءاتهن على الأرض من باب الدير إلى المكان الذي كان يقف فيه، فدخل الدير وهو يسير على تلك الملاءات.

وبعد أن أتموا صلاتهم وضعت رئيسة الدير بعض الماء في حوض وغسلت قدمي الناسك ونالت البركة منه. ثم أخذت بعضاً من ذاك الماء الذي غسلت به قدمي الطوباوي وسكبت منه على رأس كل أخت من الأخوات تبركاً، وصبت ما بقي منه فوق رأسها وصدرها. وجعلت من زيارته مناسبة عظيمة للدير بأسره وبسطت مائدة أمام الطوباوي وقد وضعت فُتات الخبز المبلل أمام دانيال، وحساء العدس أمام تلميذه مع قليل من الخبز

أما الأخوات فكانت قد أعدت لهن طعاماً بالزيت، وقليلاً من الخمر وبعض الأشياء الأخرى. وبعد أن استمتعوا بالطعام قال الطوباوي: «ما هذا الذي فعلته، فقد أحضرت لنا طعاماً متواضعاً في حين قدمت الأفضل لكُنَّ»؟ فأجابت الرئيسة: «سيدي: أنت ناسك متوحد لذا أعطيتك طعام النساك، وأعطيت تلميذك طعاماً يليق بتلميذ ناسك متوحد، جرياً على العادة، أما نحن فقد تناولنا الطعام الأفضل لأننا ضعيفات». فقال الناسك لها: «لك ذلك». كان تصرفها مثار إعجاب ودهشة وذهول من تلك الأخوات فقد عشن في صمت مطبق، ودققن في كل الأمور شأن خدماتهن والعناية بكل احتياجاتهن بوساطة الإشارات. آنذاك كان في الدير

أكثر من ثلاثمئة امرأة. فقال الطوباوي للرئيسة: «هل الأخوات هن دوماً هكذا أم أنهن يتظاهرن به أمامنا»؟ فأجابت الرئيسة: «خادماتك يتصرفن دوماً هكذا».

4) صلى الناسك عليهن، وقدم التسابيح لله. ثم نهض من بين صفوف الأعمدة ودخل الساحة حيث لمح أختاً منطرحة على الأرض وسط الساحة فسأل الرئيسة: «من هذه يا أماه»؟ فقالت له: «سيدي هذه المسكينة ʼساذجةʼ وقد جُنّت، وهي ترتمي هنا وهناك أينما كانت». طلب الناسك من تلميذه أن يأخذ بعض الماء الذي كان في الدلو ويرميه عليها، وعندها نهضت الفتاة كأنها ثملة وذهبت إلى مكان آخر. ثم قال الكهل لتلميذه: «قدم لي خدمة يا بني، أذهب وجد المكان الذي تنام فيه هذه الفتاة المجنونة المسكينة». فذهب التلميذ ووجدها نائمة عند مراحيض الدير. فعاد وأخبر سيده، قال الطوباوي لتلميذه آنذاك: «قدم لي معروفاً يا بني واسهر معي هذه الليلة».

فلما هجع الجميع ذهب الطوباوي مع تلميذه ووقفا في مكان يشاهدان منه الفتاة المختلة دون أن تنتبه لهما. أما هي فعندما رأت أن جميع الأخوات قد رقدن وقفت تصلي باسطة يديها إلى السماء وصدر من يديها شيء كشرارة ولهيب النار وهي تركع ثم تنتصب طوال الليل، ودموعها تنهمر على الأرض كجداول المياه. كانت تلك عادتها كل يوم.

قال الطوباوي لتلميذه: «اذهب يا بني بهدوء وادع لي الرئيسة ومساعدتها». فلما مثلنَ بين يديه أراهما الفتاة فقال: «هل تريان هذه الفتاة المختلة؟ إن الله حقاً يحب المجانين مثلها». في تلك اللحظة دعي الجميع لصلاة منتصف الليل وانتشر الخبر بين الأخوات، وعم الهيجان بينهن وهن ينحن ويبكين بسبب كل الإساءات التي وجهنها لتلك الفتاة المختلة معتقدات أنها كانت فعلاً ساذجة فاقدة العقل.

وظلت الأخوات مستيقظات واستلقى الطوباوي وتلميذه عل الأرض فترة قصيرة واستراحا. فلما علمت الفتاة الناسكة أن سرها قد افتضح نهضت في الليلة نفسها وذهبت إلى حيث كان الطوباوي راقداً فأخذت قلنسوته وعصاه وكتبت رسالة قصيرة على لوحة وعلقتها على باب الدير وغادرت. إلى أين ذهبت؟ وأين ماتت؟ هذا ما لم يعرفه أحد. وقد كتبت على اللوحة ما يلي: «وداعاً يا أخواتي في المسيح، صلوا من أجلي في سبيل ربنا. اغفروا لي لأني سببت لكم مثل هذا الإزعاج».

وفي الحال جمع الطوباوي كل الأخوات وكلمهن عن سر الخلاص معزياً إياهن وقال: «قد رأيتن تلك الفتاة المجنونة، إن الله يحب أمثال هؤلاء من المجانين، المجانين بمحبته المتقدة». ثم ختمهن بإشارة الصليب وغادر المكان مع تلميذه.

5) فلما وصلا إلى سقيط قال الناسك العجوز لتلميذه: «اذهب يا بني وزر ذلك العجوز الذي يعيش في البرية في مكان أبعد مما نحن فيه» فقد كان هناك عجوز خصي يعيش على بعد ثمانية عشر ميلاً عن سقيط داخل الصحراء. وكانت زيارة الأخ لهذا العجوز كما يلي: كان يحضر جرة واحدة مليئة بالماء ويضعها أمام مدخل الصومعة، ويقرع الباب ثم يعود دون أن يتفوه بكلمة واحدة. ويعيد معه أخرى فارغة. هذا ما كان يقوم به مرة في الأسبوع.

في أحد الأيام قال الناسك الشيخ لتلميذه: «أنظر يا بني وابحث إن كان هناك أي شيء بجانب كهف ذلك العجوز، إن وجدت محاراً مكتوباً عليه فأحضره معك». فلما وصل إلى الكهف وجد حقاً محاراً مكتوباً عليه: «أَحضِر أدوات عملك وتعال مع تلميذك». فحمله إلى الناسك. وما أن قرأ الناسك ما كتب على المحار حتى بكى بكاء مراً وقال لتلميذه: «وا أسفاه للبر الداخلي، إنه اليوم يفقد ركناً. ثم قال تلميذه: «أحمل يا بني هذه

المعدات المعدنية (معولاً ومجرفة) ولنذهب سريعاً لندرك العجوز قبل أن يموت وإلا حرمنا بركته فهو سيغادر ليذهب إلى ربنا».

6) بكى الرجلان وجاءا فوجدا العجوز مستلقياً وقد أصابته حمى شديدة. فارتمى دانيال الناسك على صدر معلّمه وبكى بحرقة قائلاً: «طوبى لك يا أبتاه لأنني حتى هذه الساعة تجاهلت ما يخص هذه الأرض واهتممت فقط بالأمور السماوية». فأجابه الخصي: «طوبى لك، يا إبراهيم الجديد، لأن الله سيتلقى على يديك الكثير من الثمار الرائعة». قال العجوز الناسك: «ارفع الصلوات لأجلنا يا أبتاه». فأجاب الخصي: «إنه أنا المحتاج إلى الصلوات الكثيرة في هذه اللحظة». قال العجوز الناسك: «لو وصلت إلى ساعتي الأخيرة قبلك، لكنت مضطراً أن أوافق على طلبك». آنذاك جلس الخصي على القش الذي كان مستلقياً عليه، وعانق العجوز وقبّل رأسه قائلاً: «ليتم الله الذي قادني إلى هذا المكان بنعمته ورحمته وليمد في عمرك كما فعل مع أبينا إبراهيم».

ثم قاد الناسك تلميذه ووضعه عند ركبتي الخصي وقال للخصي: «صلِ على ابنك أيضاً يا أبتاه». فقبّله وقال: «ليجعل الله الذي صيّرني أهلاً لهذه الساعة التي فيها يفصلني عن جسدي وضعفه والذي يعرف كم مرة تنقل هذا التلميذ بتواضع إلى هذه الصومعة في سبيل اسمه تعالى، ليجعل روح هذا المعلم يحل على هذا التلميذ وليدعى باسمه وباسم آبائه، تماماً كما جعل الله روح إيليا يحل على أليشع».[2]

بعد ذلك قال الخصي للطوباوي: «من أجل ربنا يا أبت قدم لي معروفاً وهو ألا تجردني مما ألبسه، بل ترسلني إلى ربنا تماماً كما أنا لئلا يعرف الآخرون سري، إلا أنت وتلميذك». ثم قال الخصي لدانيال الناسك: «ناولني سر القربان المقدس يا أبت». وبعد أن تناول السر قال لهما: «امنحاني السلام بقبلة المسيح المقدسة». فصليا عليه فنظر صوب الشرق

والجنوب وبسط يديه وقال: «حسناً فعلتما إذ أتيتما فهيا نخرج». وأشرق وجهه كبرق سماوي وقال: «يا الله: أستودع روحي بين يديك».

ورسم إشارة الصليب على فمه وأسلم روحه.

7) وبعد أن بكى الناسك وتلميذه حفرا حفرة أمام باب الكهف. وخلع الناسك دانيال رداءه الذي كان يرتديه وقال لتلميذه: «يا بني: ألبسه هذا الرداء فوق ما يلبسه». وكان الخصي يرتدي قطعة ضيقة من سعف النخيل ورداءً خارجياً بأكمام قصيرة. وفيما الأخ يلبسه لاحظ ثديي امرأة فوق صدره يتدليان كورقتين ذابلتين. فظل صامتاً ولم يقل شيئاً.

وبعد أن دفناه وأدّيا الخدمات الروحية والصلوات قال الناسك دانيال لتلميذه: «يا بني لنقطع صومنا ونكسر الخبز لراحة الرجل العجوز». وبعد أن تناولا سر القربان المقدس وجدا بضع قطع من الخبز المرقوق وبعض كسر الخبز اليابسة منقوعة بالماء. فلما أكلا وشربا أخذا زنار العجوز وعادا إلى صومعتهما وهما يسبحان الله ويشكرانه.

8) وفي طريقهما سأل التلميذ العجوز: «هل تعلم يا أبت أن الخصي الذي دفناه كان امرأة؟ إذ بينما كنت ألبسه رداء الدفن أحسست ولاحظت أن له ثديين يتدليان كورقتين ذابلتين»؟ قال العجوز: «نعم يا بني كنت أعلم أنه حقاً امرأة. فإن أردت حدثتك قصتها، فأصغ: «كانت سيدة 'نبيلة' من أرقى الطبقات في إمبراطورية جوستنيان. وأراد الإمبراطور أن يدخلها إلى القصر بسبب جمالها وفضائلها العظيمة. فلما علمت الإمبراطورة ثيودورا بهذا، طردت السيدة من القصر وأرادت نفيها. فلما علمت أنستاسيا بهذا قامت في إحدى الليالي واستأجرت قارباً، وأخذت بعضاً من ممتلكاتها المختلفة وجاءت إلى الإسكندرية حيث حلت في أناطون (المحلّة التاسعة في الإسكندرية حيث تقع عدة أديرة) وبنت هناك ديراً يدعى دير النبيلة حتى يومنا هذا. ولما علمت بموت ثيودورا وأن الإمبراطور جوستينان يريد أن

يرسل في طلبها ليدخلها إلى القصر الملكي، هربت من الإسكندرية ليلاً وجاءت إلى هنا، وطلبت مني أن أعطيها صومعة خارج سقيط، وروت لي قصتها كاملة. فأعطيتها هذا الكهف وغيرت ملابسها بملابس الرجال. وهي اليوم هنا منذ ثمانية وعشرين عاماً دون أن يعلم أحد حقيقتها سواك وسواي وسوى عجوز آخر - مع أن الإمبراطور أرسل وفداً ملكياً للبحث عنها. بل ليس الإمبراطور وحده وإنما البطريرك أيضاً وكل أهل الإسكندرية لكنهم لم يجدوها حتى يومنا هذا. تصور يا بني، كم من أناس ترعرعوا في القصر الملكي لكنهم قاوموا إغراءه وشوهوا أجسادهم وعاشوا كالملائكة على الأرض. أما نحن النساك لما كنا في العالم مرة لم نجد حتى ما يكفينا من الخبز ولكن عندما تحولنا إلى الحياة النسكية أصبح لدينا الكثير من الطعام والشراب لكن كنا عاجزين عن بلوغ مسلك للعفة والطهارة كهذه المرأة. لنصلّ إذاً يا بني، ليجعلنا الرب أهلاً لمجاراة سلوكها ونهجها في الحياة، ولنجد مع هذا الأب الطوباوي الناسك الرحمة في ذلك اليوم، ومعاً مع هذا الأب والأخ أنستاسيوس الخصي لنكون أهلاً للملكوت الذي لا يزول».
كان اسمها إذاً أنستاسيا.

9) ثم ذهب التلميذ الناسك إلى صومعته، فجلس ودون كل ما سمع ورأى. كانت هذه النبيلة أنستاسيا شماسة في عصر مار سويريوس الطوباوي، وكتب لها رسائل عديدة حاملة بالإيضاحات عن الأمور التي كانت تسأله عنها، عندما عاشت في دير مع الأخوات قبل وصولها إلى برية سقيط.

هذه هي نهاية سيرة حياة أخت عاشت في دير، واعتبرت مجنونة، مختلة عقلياً، وأيضاً سيرة حياة الشماسة أنستاسيا النبيلة.

# 7) فَبْـرُونْيَا

**مقدمة:**

من المعروف أن القديسة فَبْرُونْيَا استشهدت في نصيبين في عهد ديوقلتيانوس (284 ـ 305 م) إلا أننا أدرجنا هذه السيرة في هذه المجموعة لأنها تنتمي بوضوح إلى نوع من أنواع السير الملحمية البطولية للقديسين وقد وصفها هلكين بأنها نوع هادف من القصص بالرغم من عدم وجود أهمية تاريخية لها. ربما عاشت شهيدة في التاريخ اسمها فَبْرُونْيَا وأن هذه السيرة نسجت حول اسمها (قد يعود تاريخها إلى أواخر القرن السادس أو أوائل القرن السابع الميلاديين).

وبالرغم من الشخصية الأسطورية لصاحبة السيرة إلا أن القصة لها أهمية عظيمة، على الأقل بسبب الإدعاء بأنها كتبت بقلم امرأة، وهي الراهبة تومايس صديقة فَبْرُونْيَا. وبالرغم من أنه من المستحيل تصديق هذا الإدعاء بالذات، إلا أنه من المحتمل أن تكون المؤلفة فعلاً امرأة. وليس من غير المعقول أن يحتزر الإنسان من أن (تومايس) كانت بالفعل راهبة من دير القديسة فَبْرُونْيَا في نصيبين. على كل حال فالتمحيص في الصداقة بين هيريا الأرملة وفَبْرُونْيَا الراهبة الشابة قد يشير إلى أن تكون مؤلفتها امرأة أخرى.

قد يكون هناك بعض الشك بأن العمل أنجز في نصيبين. وبالرغم من وجود مفارقات زمنية واضحة (خاصة وجود دير مزدهر للراهبات أيام ديوقليتيانوس قبل وصول الرهبانية النسكية إلى شمالي ما بين النهرين بزمن

بعيد (فلو عاشت فَبْرُونْيَا ضمن جماعة دينية لكانت هذه الجماعة مؤلفة من عذارى مكرسات). إلا أن المؤلفة تجنبت بحذر ترك أية إشارة أو تلميح إلى أن التخلي عن نصيبين والانتقال إلى بلاد الفرس في عام (363 م) قد حدث في عهد كتابة السيرة. وكذلك فإن أسماء الضباط الرومان بأكملها معقولة جداً - مع أنه لا ضرورة للقول بأنه من العبث أن يبحث المرء عن أي تأكيد لوجود هؤلاء الأشخاص.

ويبدو أن جماعة القديسة فَبْرُونْيَا قد اشتهرت في أواخر القرن السادس الميلادي وما بعده، ففي قصيدة: سيرة الراهب السرياني الشرقي الربان بارعدتا، يشار إلى أنه في عام (563 م) بَنَت أخته ديراً للراهبات باسم الشهيدة فَبْرُونْيَا التي استشهدت في أيام ديوقلتيانوس. لم يكن هذا الدير في نصيبين ذاتها بل عبر دجلة في مرجا. وفي القرن السابع وصلت الجماعة إلى القسطنطينية حيث أصبحت مرتبطة بجماعة القديس أرتميوس، وربما من المفيد أن نذكر أن ابنة الإمبراطور هرقل (610 - 641 م) من زوجته الثانية مارتينا، كانت تدعى فَبْرُونْيَا أيضاً، وكان للقديسة فَبْرُونْيَا مصلى أيضاً في مذبح كنيسة يوحنا المعمدان المشهورة في حي أوكسيا في القسطنطينية. ومن المعقول جداً أن الجماعة والترجمة اليونانية لسيرة حياتها قد وصلتا إلى القسطنطينية في آن واحد تقريباً. وما أن ترجمت لليونانية حتى استخدمت سيرتها كمصدر لعدة قصص بطولية أخرى وانتشرت جماعتها من العاصمة إلى إيطاليا (عن طريق نابولي) وفرنسا.

وتؤكد سيرة القديس شمعون الزيتوني مطران حرّان للسريان الأرثوذكس (734 م) صحة وجود كل من دير وكنيسة باسم القديسة فَبْرُونْيَا في نصيبين بالذات (المذكوران في السيرة). فما ذكر في هذه السيرة عن «أطلال كنيسة القديسة فَبْرُونْيَا التي استشهدت في نصيبين» يشير إلى أن الكنيسة كانت قد بنيت منذ أمد بعيد. ويقال أيضاً بأن القديس شمعون أحيا دير القديسة فَبْرُونْيَا وزوده بقوانين جديدة.

والكنائس السريانية الأرثوذكسية والكنيسة الشرقية تحتفل بذكرى القديسة فَبْرُونْيَا.

إن الوصف المسهب للعذاب الذي كابدته الشهيدات مثل فَبْرُونْيَا أو (أناهيد) سيبدو للقارئ المعاصر مثيراً للاشمئزاز، وسيصرف النظر عنه عادة كنتاج للخيال السقيم. ولكن من الضروري أن نتذكر بأن ما يحرض مؤلفي هذه السير الملحمية ليس التمتع السقيم بهذه التفاصيل المروعة للقتل، بل الحاجة للتعبير عن ذلك الوعي العميق الموجود في التاريخ الديني للبشرية بأسره، ألا وهو أن المعاناة، بشكل أو بآخر حالة ضرورية مصاحبة لأي طقس أو مبادرة، وأنه كلما ارتقى المستوى الذي يبادر به الفرد زادت معاناة المبادر، ومكافأة هؤلاء الشهداء لم تكن إلا الخدر العرائسي للمسيح.

## فَبْرُونْيَا

1) في أيام الإمبراطور ديوقليتيانوس مرض أحد الحكام وهو أنثيموس وأشرف على الموت، فدعا أخاه سيلينوس وقال له: «يا أخي إني على وشك مغادرة الأمور الدنيا وشؤونها، لذا أضع بين يديك ابني ليسيماكوس. وقد رتبنا خطوبته من ابنة السيناتور بروسفوروس، ليكن موضع رعايتك، فإن مُتُّ فرتب حفلة الزفاف وتصرف كأنك والدهما».

وبعد ثلاثة أيام من إصدار تعليماته مات الحاكم، فاستدعى الإمبراطور ابن أنثيموس الشاب ليسيماكوس وعمه سيلينوس معاً، وخاطب الشاب قائلاً: «أيها الشاب لأنني متهم بصداقة والدك أنثيموس فقد قررت بعد موته أن أعينك في منصبه، ولكن، بما أنني سمعت أنك تُسر بخرافة المسيحيين، فقد استغنيت حالياً عن فكرة ترقيتك إلى منصب حاكم وبدلاً عنه أريد أولاً أن أرسلك إلى المشرق لتقمع خرافة المسيحيين، ثم لدى عودتك إلى هنا سأرقيك إلى هذا المنصب السامي وستكون حاكماً».

2) لما سمع ليسيماكوس كلام ديوقليتيانوس لم يجرؤ أن يقول أي كلمة جواباً لذلك، فقد كان شاباً في عقده الثاني . لكن عمه سيلينوس سقط عند قدمي الإمبراطور ورجاه قائلاً: «أتوسل إلى جلالتك أن تمنحنا مهلة بضعة أيام فقط لنرتب حفل زفاف الشاب، وبهذه الطريقة سأرحل أنا أيضاً معه وسننفّذ ما تأمر حكمة جلالتك».

«أولاً: اذهبا إلى المشرق» أجاب الإمبراطور، «وتخلصا من خرافة المسيحيين. ومتى عدتما إلى هنا انضممت إليكما بلهفة في أفراح الاحتفال بزواج ليسيماكوس». فلما سمعا هذه الكلمات من الإمبراطور لم يجرؤا أن ينبسا بكلمة أخرى. وأخذا التعليمات الملكية للحال وبدأا برحلتهما إلى المشرق مع قوة كبيرة من الجنود. أخذ ليسيماكوس معه القمص بريموس، ابن عمه، وعينه قائداً للقوات العسكرية.

3) ولدى وصولهم إلى ما بين النهرين (المشرق أو منطقة تدمر وما بين النهرين). في عام (297 م) كانت هذه المقاطعة تنقسم إلى ولايتي: أسروين ومركزها الرها حتى الغرب، وما بين النهرين ومركزها نصيبين حتى الشرق) تعهد سيلينوس أن يحرق أو يقتل بالسيف كل من وجده يعترف بأنه مسيحي، ويأمر برمي جثثهم للكلاب.

أصاب الخوف والهلع سائر المشرق من قسوة سيلينوس عديم الرحمة ووحشيته.

في إحدى الليالي استدعى ليسيماكوس بريموس وقال له: «سيدي بريموس أنت تعرف أن أبي توفي وثنياً، وأمي توفيت مسيحية وكانت تلهف بأن أعتنق المسيحية أنا أيضاً. إلا أني لم أستطع أن أنفذ هذا خوفاً من والدي والإمبراطور. لكن والدتي أمرتني بألا أؤذي أي مسيحي بل بالأحرى أكون صديقاً للمسيح. وها أنذا أرى المسيحيين يقعون بين يدي سيلينوس القاسي ويقتلون بلا رحمة. يتألم قلبي كثيراً لأجلهم ولذلك أريد أن يبعد

سراً كل مسيحي هنا قبل أن يسقطوا بين يدي عديم الرحمة سيلينوس.

فلما سمع بريموس هذا، أوقف إصدار الأوامر بالقبض على المسيحيين وبدلاً من ذلك أرسل رسائل إلى الأديرة يخبرهم بأن يلوذوا بالفرار من قبضة الظالم سيلينوس.

4) وفي أثناء سفرهم وانتقالهم بين هذه المناطق أرادوا أن يدخلوا نصيبين، وهي بلدة على حدود الإمبراطورية الفارسية كانت تحت الحكم الروماني. وفي هذه البلدة دير للنساء يحتوي خمسين راهبة برئاسة الشماسة براين. كانت براين تلميذة من تلاميذ بلاتونيا التي كانت أيضاً شماسة من قبلها. وحافظت براين على التقاليد والقوانين التي تسلمتها من بلاتونيا منذ البداية، وكان من عادة بلاتونيا ألا تسمح للأخوات أن يقمن بأي عمل على الإطلاق أيام الجمعة، حيث كانت الأخوات يجتمعن في مكان الصلاة ويصلين بدل العمل ويحتفلن بصلاة منتصف الليل أو الفجر. ومن الفجر حتى الثالثة (التاسعة صباحاً) كانت بلاتونيا تختار كتاباً وتقرأ لهن. وبعد صلاة الثالثة كانت تعطي الكتاب إلى براين وتطلب منها أن تقرأ للأخوات حتى صلاة المساء. فلما تسلمت براين رئاسة الدير ثابرت على تلك العادة. وكان لديها شابتان رعتهما بنفسها، وكانتا متمكنتين جيداً من الحياة الرهبانية النسكية. وكانت إحداهما تدعى بروكلا والأخرى فَبْرُونْيَا. كانت بروكلا في الخامسة والعشرين من عمرها وفَبْرُونْيَا في العشرين.

5) كانت فَبْرُونْيَا ابنة أخي براين، وكانت أيضاً بهية الطلعة جداً وملامحها ساحرة للغاية، كذلك وجهها فلا تشبع العين من النظر إليها. بسبب جمالها الفتان كان على براين مهمة صعبة وهي أن تعنى بالفتاة. ولهذا السبب أمرت فَبْرُونْيَا أن تتناول الطعام مرة واحدة في كل يومين بينما الأخريات يأكلن كل مساء. فلما وجدت فَبْرُونْيَا نفسها في هذا النظام من الحمية لم تستجب لشاهيتها حتى بالخبز والماء.

كان لديها مقعد بقياس ثلاثة أذرع ونصف بذراع واحد ترتاح عليه عندما يحين النوم. أحياناً كانت ترتمي على الأرض لها مهملة جسدها. وإن حدث أن جربها إبليس بالهلوسات كانت تنهض مباشرة وتتضرع إلى الله وسط الدموع الغزيرة لتبعد الشيطان المجرِّب عنها. فتفتح الكتاب المقدس وبمحبة تتأمل كلماته الروحية الحية. وكانت أيضاً تحب التعليم كثيراً، لذا كان كثيرون، وضمنهم رئيسة الدير، يدهشون لمعرفتها الواسعة.

6) وفي أيام الجمعة، عندما تجتمع كل الأخوات في مكان الصلاة، كان من عادة براين أن تطلب من فَبْرُونْيا قراءة الكلمات الإلهية. ولكن، لأن الشابات المتزوجات اللواتي كن يأتين إلى مكان الصلاة ليسمعن كلمة الله أيام الآحاد والجمعة، أمرت براين فَبْرُونْيا أن تجلس خلف ستارة وتقرأ من هناك.

لم تر قط أي ملابس فاخرة دنيوية ولم تر قط وجه رجل، وكانت مدار الأحاديث في مختلف أنحاء البلدة - تحدث الناس عن تعليمها، وجمالها، تواضعها ولطفها. فلما سمعت هيريا عنها وكانت متزوجة من سيناتور اضطرمت بالحب الإلهي وتلهفت لرؤية فَبْرُونْيا. لم تكن هيريا قد تعمدت بعد بل كانت ما تزال وثنية، ولأنها لم تعش مع زوجها إلا سبعة أشهر لأنه مات وترملت[1] عادت لهذا السبب إلى والديها اللذين كانا أيضاً ما يزالان وثنيين.

لذا جاءت هيريا إلى الدير، وعلمت براين بوجودها من حارسة الباب. فلما خرجت إليها براين خرّت عند قدميها وانحنت لها بإجلال، متعلقة بقدميها وهي تقول: «استحلفك بالله خالق السماء والأرض ألا ترديني بسبب أني ما زلت وثنية دنسة وألعوبة الشياطين، فلا تحرميني فرصة الحديث إلى فَبْرُونْيا والتعلم منها. ومن خلالكن أيتها الراهبات سأعرف طريق الخلاص، وبينما أسير عليه سأكتشف ما هو مدَّخر لأجل المسيحيين.

أنقذيني من حماقة هذا العالم ومن عبادة الأوثان النجسه. وأنت تعلمن أن والديّ يجبراني على الزواج ثانية، فيكفيني عذاب الخطأ الذي ارتكبته سابقاً، وما زلت أعانيه وعليّ أن أتغلب عليه: من فضلك، دعيني أكتسب حياة جديدة من خلال تعليم أختي فَبْرُونْيَا وإرشادها».

7) وبينما كانت هيريا تتكلم بللت قدمي براين بدموعها. قالت براين وقد تأثرت جداً: «سيدتي هيريا يعلم الله أنني استقبلت فَبْرُونْيَا وهي في الثانية من عمرها، وقد قضت في الدير ثمانية عشر عاماً، لم تر وجه رجل واحد أو أي ملابس دنيوية فاخرة. حتى مربيتها لم تر وجهها منذ تلك اللحظة، مع أنها غالباً ما تتوسل إلي أو تنفجر بالبكاء لأسمح لها بنظرة. لن أسمح لفَبْرُونْيَا أن تبني أي علاقة مع العلمانيات. ونظراً لمحبتك الله ولها سأدخلك إليها. ولكن يجب أن ترتدي ثوب راهبة».

فلما قدمت براين هيريا وهي متنكرة، جثت فَبْرُونْيَا أمام قدمي هيريا معتقدة أنها راهبة قادمة من مكان آخر. وبعد تبادل التحيات جلستا. طلبت براين من فَبْرُونْيَا أن تأخذ الكتاب المقدس وتقرأ لهيريا. وفيما هي تقرأ امتلأ قلب هيريا بالأسى ووخز الضمير بسبب رؤيتها فَبْرُونْيَا وسماعها تعاليمها فأمضتا الليل كله ساهرتين. ولم تتوقف فَبْرُونْيَا أو تتعب من القراءة ولم تكتفِ هيريا وهي تصغي إلى تعليمها، وبالدموع كانت تئن وتتأوه.

8) وعند انبلاج الصباح استطاعت براين أن تقنع هيريا أن تنزل وتعود إلى والديها. وبعد أن ودعتها غادرت هيريا وعيناها طافحتان بالدموع.

ذهبت هيريا إلى البيت وحثت والديها للتخلي عن عبادة الأوثان، ذلك التقليد الأحمق الذي تحدّر إليهم من الآباء وبدلاً منه دفعتهم إلى معرفة الله خالق الجميع.

وبعد ذلك سألت فَبْرُونْيَا تومايس التي كانت مسؤولة بعد رئيسة الدير:

«أتوسل إليك يا أماه أن تخبريني من هذه الأخت الغريبة التي تبكي كثيراً وكأنها لم تسمع قط عن كتاب الله»؟

«ألا تعرفين مَن هذه الأخت»؟: أجابت تومايس.

«كيف لي أن أعرفها وأنا أرى أنها غريبة»؟: قالت فَبْرُونْيَا.

«إنها هيريا زوجة سيناتور، جاءت تواً لتعيش هنا»: أجابت تومايس. ثم قالت فَبْرُونْيَا: «لم خدعتموني ولم تخبروني؟ لقد خاطبتها وكأنها راهبة».

أجابتها تومايس: «كانت هذه تعليمات رئيسة الدير».

وحدث في ذلك الوقت أن فَبْرُونْيَا مرضت مرضاً شديداً واستلقت على فراشها الذي كان من القش وقد أشرفت على الموت. فلما سمعت هيريا بالخبر أسرعت إليها ولازمتها حتى شفيت من مرضها.

**9)** وفي أثناء مرضها وصل خبر إلى المدينة بأن سيلينوس وليسماكوس كانا على وشك الوصول ليجبرا المسيحيين على تقديم القرابين للأوثان، ولذلك ترك كل المسيحيين في البلدة، كهنة ورهباناً، بيوتهم وهربوا، حتى مطران المدينة اختبأ خوفاً. فلما علمت الأخوات في الدير بهذا، اجتمعن أمام شماسة الدير وسألنها: «ماذا يجب أن نفعل يا أماه؟ هؤلاء الرجال القساة قد أتوا إلى هنا أيضاً وهرب الجميع لدى تهديداتهم». فأجابت براين: «ماذا تريدون مني أن أفعل لأجلكن»؟ فأجابوا: «مرينا أن نختبئ لفترة وجيزة لننقذ حياتنا».

«تُفكِّرْن في الهرب قبل أن تنكشف المعركة»؟: سألت براين. «لم تدخلن ساحة الكفاح بعد، فهل هزمتّن قبل أن تشاركن فيها؟ لا يا بناتي لا. أرجوكن؟ من الأفضل أن نقف ونقاوم، ولنمت في سبيل ذاك الذي مات من أجلنا لكي نعيش معه».

**10)** لدى سماع هذه الكلمات صمتت الأخوات. وفي اليوم التالي قالت إحداهن وكان اسمها إيثيريا: «أعرف أن الأم الرئيسة لن تدعنا نرحل

بسبب فَبْرُونْيَا. هل تريدنا جميعاً أن نهلك لأجلها فحسب؟ لدي اقتراح، لنذهب إليها وسأتحدث بالنيابة عنكن وأقول ما هو مناسب».

فلما سمعن هذا وافق بعضهن على مقترح إيثيريا، واعترضت أخريات عليه. فوقع جدال كبير بينهن، وأخيراً ذهبت الأخوات جميعاً إلى الشماسة لمعرفة النصيحة التي ستقدمها لهن. كانت براين تعرف مقترح إيتاريا لذا نظرت مباشرة إليها وسألتها: «ما الذي تريدينه يا أختي إيثيريا»؟ فأجابت: «أريدك أن تأمرينا بالاختباء لننجو من هذا الغضب الشديد الذي حل علينا، لسنا أفضل من الكهنة والمطران. ويجب ألا تنسي الواقع، فبيننا بعض الصغيرات ولا تريدين أن يؤخذن عنوة من قبل الجنود الرومان ليعنف بأجسادهن وبذلك يفقدن ثواب حياتهن النسكية. وهناك خطر إنكار المسيح عند عجزنا عن تحمل آلام التعذيب، في تلك الحالة سنغدو سخرية للشياطين، ونفقد نفوسنا. أما إن أصدرتِ أمر إنقاذ حياتنا فسنأخذ معنا فَبْرُونْيَا أيضاً ونلوذ بالفرار».

11) فلما سمعت فَبْرُونْيَا هذه الكلمات أعلنت قائلة: «بما أن المسيح حي - المسيح الذي أنا مخطوبة له وإليه قدمت نفسي - فلن ألجأ للهرب، بل لتكن إرادة الله». فقالت براين: «إيثيريا، أنت تعرفين ما قد اكتسبت، أسامحك على ذلك». ثم التفتت إلى الأخوات الأخريات وقالت: «تعرف كل واحدة منكن الأفضل لها، فاخترن ما تشأن». وبعد أن صلين وودعن براين وفَبْرُونْيَا، غادرن الدير جميعاً من الخوف وهن يبكين ويضربن صدورهن بحزن شديد.

بروكلا، التي تربت مع فَبْرُونْيَا، انكبت على عنقها متأوهة وقالت: «إلى اللقاء يا فَبْرُونْيَا صلي لأجلي». فأمسكت فَبْرُونْيَا بيديها ولم تدعها ترحل قائلة: «خافي الله يا بروكلا، على الأقل لا تتركيني، ألا ترين أني ما زلت مريضة. ماذا يحدث لو متُّ؟ لا تستطيع الأم الرئيسة حملي إلى القبر

بمفردها. ابقي معنا، فلو حدث أن متُ وأنت هنا لساعدت في حمل جسدي إلى القبر».

«أمرك يا أختاه. لن أتركك وأرحل»: أجابت بروكلا.

«والآن قد وعدتني أمام الله بألا تتركيني». ولكن عند المساء غادرت بروكلا واختفت.

12) عندما رأت براين أن الدير خلا من الأخوات، دخلت مكان الصلاة وارتمت على الأرض تئن من الحزن. أما توما يس نائبتها فجلست معها تحاول مواساتها: «كفي عن البكاء أماه. الله قادر أن يجد لنا مخرجاً من الأسى والتجربة وسيمكننا من التحمل والصبر. من آمن بالله وندم؟ من ثابر في خدمته ثم وجد نفسه قد تخلى عنه الله»؟

قالت براين: «نعم يا سيدتي توما يس، أعرف أن الأمر كما تقولين تماماً. ولكن ماذا علي أن أفعل بفَبْرُونْيا؟ أين يمكنني إخفاءها لأحافظ على سلامتها؟ كيف لي أن أنظر إليها ثانية إن أسرها البرابرة»؟

أجابت توما يس: «أنسيت ما أخبرتك؟ إن الذي يستطيع إقامة الموتى فبالتأكيد يستطيع أن يقوي فَبْرُونْيا وينقذها. كفي عن البكاء ودعينا نذهب ونبهج فَبْرُونْيا فهي ما زالت مريضة».

13) في اللحظة التي وصلت براين إلى علية فَبْرُونْيا بكت بحرقة عالياً. نكست وجهها وقد غلب عليها الحزن والتنهد، فلما رأتها فَبْرُونْيا هكذا سألت توما يس: «أتوسل إليك يا أماه ما سبب دموع الأم الرئيسة؟ فقبل برهة وجيزة عندما كانت في مكان الصلاة سمعت صوت نحيبها أيضاً».

أجابت توما يس وهي تبكي: «ابنتي فَبْرُونْيا، إنه لأجلك تنوح الأم الرئيسة وتبكي، بسبب كل الأمور المريعة التي ستحل بنا على أيدي هؤلاء الطغاة. إنها تتعذب وتحزن كثيراً لأنك شابة وجميلة».

قالت فَبْرُونْيا: «أتوسل إليكما أن تصليا فقط لأجل خادمتكما، لأن الله

قادر على أن يراقب وضعي الراهن ويقويني، سيُصبرني، تماماً كما يفعل مع جميع خدامه الذين يحبونه».

14) قالت توما يس: «ابنتي فَبْرُونْيَا، إن ساعة المواجهة قريبة جداً، فإن قبض الجنود علينا فالطغاة سيقتلوننا سريعاً لأننا عجوزان تالفتان، ولكنهم سيقبضون عليك نظراً لأنك شابة وجميلة وسيزعجونك بعروضهم وبكلمات الإغراء. فلا تصغي إليهم، ولو حاولوا استمالتك بالذهب والفضة، وتأكدي ألا تعيريهم انتباهاً يا ابنتي وإلا فسوف تفقدين ثواب حياتك السابقة بأسرها، وستغدين سخرية للأبالسة والوثنيين، لأنه لا شيء أنبل وأفضل اختياراً أمام الله سوى البتولة: عظيم هو الثواب الذي ستناله البتول. إن عريسها خالد ويهب الخلود لمن يحبونه. يا فَبْرُونْيَا: كوني متلهفة لرؤيا من خطبت نفسك له. لا تخذليه أو تخوني عربون مودته لك وعهدك معه. ما أرهب ذاك اليوم الذي يكافأ فيه المرء بحسب أعماله».

وبينما كانت فَبْرُونْيَا تستمع إلى هذه الكلمات استجمعت القوة والشجاعة لمواجهة قوات الشيطان، وقالت لتومايس: «حسناً تفعلين يا سيدتي بتشجيع أمتك، قد قويت نفسي جداً بكلماتك. لو رغبت في الهرب من هذه المعركة لغادرت أيضاً مع بقية الأخوات الأخريات واختبأت. ولكن، بما أني أتعشق المسيح وقد وهبته نفسي فإني متلهفة لآتي إليه إن وجدني أهلاً لأتألم وأتحمل الكفاح من أجله».

15) ولما سمعت براين كلامها أضافت بضع كلمات في تحذيرها، ولكي تحتاط للأمر قالت لفَبْرُونْيَا: «تذكري كيف اتبعت تعليماتي، وتذكري أنك أنت أيضاً علمت الأخريات، تذكري أني أخذتك من مربيتك لأرعاك بين يدي مذ كنت في الثانية من عمرك، وحتى هذه اللحظة لم تقع عيني رجل على وجهك ولم أسمح لأية امرأة علمانية أن

تتحدث إليكِ. حتى هذا اليوم بالذات صنتك يا بنتي كما تعرفين. والآن ماذا يمكن أن أفعل بشأنك يا بنتي؟ لا تهيني شيخوخة براين، ولا تفعلي ما يذهب جهد أمك الروحية هباء. تذكري المجاهدين الذين ذهبوا قبلك، والذين تحملوا الاستشهاد المجيد وقد نالوا إكليل النصر من رب الجهاد السماوي. لم يكن هؤلاء رجالاً فقط بل نساء وأطفالاً أيضاً. تذكري لوبى وليونيدا: نالت لوبى إكليل الشهادة موتاً بالسيف، وليونيدا حرقاً. تذكري الفتاة أوتروبيا التي، في الثانية عشرة من عمرها، استشهدت مع والدتها في سبيل اسم ربنا. ألم يدهشك دوماً ويثير إعجابك خضوع أوتروبيا[2] وصبرها؟ عندما أصدر القاضي أوامره برمي السهام عليها لدفعها إلى الهرب، فسمعت أمها تنادي: «لا تهربي يا بنتي أوتروبيا، فوضعت يديها خلف ظهرها ولم تهرب، فأصيبت بسهم وسقطت ميتة على الأرض. أظهرت الطاعة التامة لأمر والدتها. ألم تكن مثابرتها وطاعتها محط إعجابك على الدوام؟ لم تكن سوى فتاة أمية، أما أنت ففي الحقيقة قد علمت الأخريات».

وهكذا انقضى الليل وهن يتحدثن، وأكثر من ذلك تتحدثان إليها.

16) في الصباح التالي، عندما أشرقت الشمس، كان هناك ضجيج صاخب يصدر عن أهالي البلدة: كان سيلينوس وليسيماكوس قد احتلا المدينة، وقبض الجنود على عدد كبير من المسيحيين وزجوا بهم في السجن. تقدم بعض الوثنيين وأخبروا سيلينوس عن الدير. فأرسل للحال بعض الجنود إليه، فحطموا الباب بالبلطات. وعند دخولهم الدير قبضوا على براين وسحب بعض الجنود سيوفهم يريدون قتلها على الفور، ولكن فَبْرُونْيَا، عند مشاهدة الخطر، نهضت من فراشها وارتمت عند قدمي الجنود وهي تصيح بأعلى صوتها: «أستحلفكم بإله السموات، أن تقتلوني أولاً لئلا أرى موت سيدتي».

ما أن وصل القمص[3] بريموس ورأى ما فعله الجنود حتى أمرهم مغضباً

أن يخرجوا من الدير. ثم خاطب براين قائلاً: «أين النساء اللواتي كن يعشن هنا»؟ فأجابت براين: «لقد غادر الجميع خوفاً منكم».

قال بريموس: «أتمنى فقط لو هربتن أنتن أيضاً. وما زالت الفرصة متاحة أمامكن، فاذهبن حيثما تشأن وأنقذن أنفسكن».

وعند ذلك مباشرة أخلى الدير من القوات العسكرية الرومانية، وغادره دون أن يقيم حارساً عليه.

17) فلما وصل إلى المعسكر دخل إلى ليسيماكوس الذي سأله: «هل صحيح ما عرفناه عن ذلك الدير»؟

«ما سمعناه كان صحيحاً»: أجاب بريموس الذي انفرد به وأضاف: «قد هربت كل النسوة اللواتي كن يعشن في الدير، ولم نجد إلا عجوزين وشابة واحدة. ويتملكني الإعجاب إن أخبرتك عما رأيت في الدير: رأيت شابة لم تقع عيناي على واحدة مثلها، لا لم أر قط مثل هذا الجمال والهيئة الحسنة لدى أية امرأة أخرى. تعرف الآلهة أنها أذهلتني لما أبصرتها مستلقية على فراش من القش ولو لم تكن فقيرة وبائسة لغدت زوجة مناسبة لك يا سيدي».

أجاب ليسيماكوس: «إن كان علي ألا أسفك الدم المسيحي بل أكون صديقاً للمسيح فكيف يمكن أن أؤذي من ينتمي للمسيح؟ لا بالتأكيد لا، لكني أتوسل إليك يا بريموس أن تبعد النسوة من الدير وتتصرف كأنك الحامي لهن خشية أن يقعن ين أيدي عمي الطاغية سيلينوس». آنذاك أسرع أحد هؤلاء الجنود الأشرار إلى سيلينوس وأخبره قائلاً: «وجدنا امرأة في غاية الجمال في الدير، والقمص بريموس تحدث عنها إلى ليسيماكوس كزوجة مناسبة له».

لدى سماع هذا، امتلأ سيلينوس غضباً وغيظاً. فأرسل بعض الرجال لحراسة الدير لمنع النساء من الهرب، ثم أرسل رسلاً ليعلنوا في جميع أنحاء

البلدة أن: «اجتماعاً عاماً سيعقد غداً. وبكلمات أخرى كانت فَبْرُونْيَا ستحاكم علانية في الحلبة».

فلما سمع أهل المدينة ومن حولها النبأ أتوا جميعاً محتشدين رجالاً ونساء ليشاهدوا محاكمة فَبْرُونْيَا.

**18)** وفي اليوم التالي عاد الجنود إلى الدير وقبضوا على فَبْرُونْيَا وهي مستلقية على فراش القش المرتفع فكبلوها بإحكام ووضعوا طوقاً حديدياً ثقيلاً حول عنقها ثم جروها إلى خارج الدير.

تعلقت كل من براين وتومايس بفَبْرُونْيَا وتضرعتا إلى الجنود بالدموع والأنين ليمهلوهما فترة قصيرة ليتسنى لهما التحدث إليها فوافقوا على توسلاتهما ومنحوهما بعض الوقت. بعد هذا طلبت السيدتان من الجنود أن يأخذوهما إلى حلبة المحاكمة لئلا تُترك فَبْرُونْيَا وحيدة، إذ ربما تخاف إن تركت وحيدة مع نفسها، ولكن الجنود أجابوا: «ليس لدينا تعليمات لإحضاركما أيضاً أمام المحكمة، إلا فَبْرُونْيَا».

ثم بدأت السيدتان بتشجيع فَبْرُونْيَا وتحذيرها، قالت براين: «يا بنتي فَبْرُونْيَا، إنك تذهبين إلى المحاكمة. تذكري أن العريس السماوي يراقب محاكمتك هذه، وحشود الملائكة يقفون هناك أمامه حاملين إكليل النصر وهم ينتظرون نهايتك. حاذري من أن تخافي ـ سيمنح الخوف السعادة للشيطان. لا تشفقي على جسدك عندما ينهار تحت الضربات، لأن هذا الجسد شاء أم أبى سيتفسخ قريباً ويغدو غباراً في القبر. سأظل في الحداد في الدير وأنا أنتظر وصول خبر عنك إن كان خيراً أم شراً.

أرجوك يا بنتي، ليكن الخبر الذي اسمعه خيراً، ليخبرني أحدهما أن فَبْرُونْيَا قد سلمت روحها في التعذيب، ليعلن أحدهم أن فَبْرُونْيَا قد لقيت حتفها وَعُدّت من بين شهداء المسيح».

**19)** قالت فَبْرُونْيَا: «إيماني بالله يا أماه كما كان في الماضي تماماً، لم

أخالف أوامرك قط والآن أيضاً لن أخالفها أو أكون ناكرة تحذيراتك ونصحك. بل ليرَ الشعوب ويتعجبوا، وليهنئوا العجوز براين ويقولوا لها: حقاً هذه نبتة من نبتات براين: في جسم امرأة سأظهر إيماني الراسخ إيمان رجل مقدام. والآن اتركاني أرحل».

قالت توما يس: «بحق الله الحي، يا ابنتي فبرونيا، سأرتدي ثياب امرأة علمانية وآتي لأرى محاكمتك».

ولأن الجند كانوا على عجلة من أمرهم، قالت لهم فَبْرُونْيَا: «لو سمحتم دعوني أرحل على طريقي بالبركات وادعوا لي. دعوني أذهب الآن».

بسطت الأم براين يديها نحو السماء وقالت بصوت عال: «ربي يسوع المسيح الذي ظهرت لخادمتك تقلا (متنكراً) في زي بولس، التفت نحو هذه الفتاة المسكينة في ساعة محاكمتها».

بهذه الكلمات عانقت فَبْرُونْيَا وقبلتها. ثم دعتها تذهب في طريقها فأخذها الجنود ورحلوا. عادت براين إلى الدير، وارتمت على الأرض في مكان الصلاة وناحت بعمق وهي تتضرع إلى الله بالدموع نيابة عن فَبْرُونْيَا.

**20)** ارتدت توما يس ثياب امرأة علمانية وخرجت لتشاهد المحاكمة كما فعلت جميع النسوة العلمانيات اللواتي كن يأتين إلى الدير أيام الجمعة للاستماع إلى النصوص الكتابية مثلها، وكن يبكين ويضربن على صدورهن وهن يركضن صوب مكان المحاكمة، كن يبكين لفقدان معلمتهن.

لما علمت هيريا، زوجة السيناتور أن الراهبة فَبْرُونْيَا ستحاكم أمام القضاء، نهضت وولولت بصوت عال. فسألها والداها وكل من في البيت باستغراب عن السبب، فأجابت: «أختي فَبْرُونْيَا قد ذهبت لتحاكم سيحكمون معلمتي لأنها مسيحية». حاول والداها تهدئتها لكنها انتحبت وبكت أكثر من ذي قبل وتوسلت إليهما قائلة: اتركاني وحدي لأبكي بمرارة لأجل أختي ومعلمتي فَبْرُونْيَا.

أثّرت كلماتها بوالديها كثيراً حتى إنهما بدأ يبكيان فَبْرُونْيَا، وبعد أن استأذنتهما للذهاب ورؤية المحاكمة انطلقت مع عدد من الخدم والوصيفات. وفيما كانت قادمة بالدموع مسرعة إلى الحلبة قابلت حشداً من النسوة يركضن باكيات أيضاً. وصادفت توما يس أيضاً ولما كانت تعرفت عليها قدمتا معاً تبكيان وتنوحان إلى موقع الحلبة.

21) اجتمع جمهور كبير وجاء القضاة أيضاً. ولما أخذ سيلينوس وليسيماكوس أماكنهما على المنصة أمرا بأن تحضر فَبْرُونْيَا. فأحضروها ويداها مقيدتان والطوق الحديدي الثقيل حول رقبتها. وما أن رآها الجمهور حتى خف بكاؤهم ونحيبهم.وعندما وقفت في الوسط أمر سيلينوس أن يكفوا عن الصخب، وحين ساد صمت عظيم قال سيلينوس لليسيماكوس: «ضع الأسئلة وسجل الأجوبة».

خاطبها ليسيماكوس قائلاً: «أخبريني يا شابة هل أنت عبدة أم حرة»؟

فأجابت فَبْرُونْيَا: «عبدة».

سألها ليسيماكوس: «عبدةُ من أنت إذاً»؟

«عبدة المسيح»: قالت فَبْرُونْيَا

«ما اسمك؟»: سأل ليسيماكوس

«المرأة المسيحية المسكينة»: أجابت فَبْرُونْيَا.

«أريد أن أعرف اسمك»: قال ليسيماكوس.

«قد أخبرتك تواً»: أجابت فَبْرُونْيَا: «المرأة المسيحية المسكينة. ولكن إن أردت معرفة اسمي فأنا دعيت بفَبْرُونْيَا من قبل أمِّي».

22) وعند ذلك طلب سيلينوس من ليسيماكوس أن يتوقف عن إلقاء الأسئلة، وبدأ بنفسه يستجوب فَبْرُونْيَا: «تعرف الآلهة جيداً أني لم أرغب أن أمنحك فرصة الاستجواب، ولكن تصرفك الحليم واللطيف ومنظرك

الجميل، قد غلبا شدة غضبي عليك، لن أستجوبك وكأنك مذنبة بل سأجادلك وكأنك ابنتي الحبيبة. لذا أصغي إلي يا بنتي. تعلم الآلهة بأنني وأخي أنثيموس قد رتبنا خطوبة زوجة لليسيماكوس تشمل نقل أموال وممتلكات كثيرة. أما اليوم فسألغي وثائق الخطوبة التي عقدت مع ابنة بروفوروس وسنعقد اتفاقاً ثابتاً ونهائياً معك وستكونين زوجة لليسيماكوس الذي ترينه جالساً هنا الآن عن يميني. إنه وسيم تماماً مثلك. لذا أصغي إلى نصيحتي وكأني والدك، سأجعلك تتألقين على الأرض. لا تخافي بسبب فقرك: ليس لي زوجة في الحياة ولا أولاد وسأنقل إليك كل ما أملك، سأجعلك سيدة كل ما أملك، وسيكون كل هذا مدوناً في مهرك. وستكونين موضع الإطراء في جميع أنحاء العالم وجميع النساء سيعتبرنك محظوظة لنيلك هذا الشرف. سيسعد إمبراطورنا الظافر وسيغدق عليكما الهدايا. لأنه قد وعد أن يرقّي سيدي ليسيماكوس إلى أرفع منصب ملكي - منصب الحاكم العظيم وسيقبل ليسيماكوس هذا المنصب. والآن وقد سمعت كل هذا، أعطيني جواباً، لوالدك، جواباً يسعد الآلهة ويبهجني. أما إن عارضت رغباتي ولم تصغي إلى كلماتي، فتعرف الآلهة جيداً أنك لن تبقي على قيد الحياة بين يدي لثلاث ساعات أخرى. لذا أجيبي كما تشائين».

23) بدأت فَبْرُونْيَا: «أيها القاضي، لدي عرس في السماء ليس مصنوعاً بالأيدي، ولي حفلة زفاف لن تنتهي أبداً، وقد أعدت لأجلي. إن مهري هو ملكوت السماء بأسره، وعريسي خالد لا يفسد ولا يتغير. سأستمتع به في الحياة الأبدية، ولن أفكر بأمر العيش مع زوج بشري معرض للفساد. لا تضيع وقتك يا سيدي، لن تحقق أمراً بملاطفتي ولن تخيفني بالتهديد».

فلما سمع القاضي هذه الكلمات غضب غضباً شديداً، فأمر جنوده بتمزيق الثياب عنها، وربطها بأسمال بالية وتركها واقفة هناك بلا ثياب،

مثار عارٍ أمام الجميع. «دعوها ترى نفسها عارية وتبكي حماقتها، الآن وبعد أن سقطت من الشرف والاحترام إلى العار والخزي».

مزق الجنود عنها الثياب سريعاً وربطوها بأسمال بالية، وجعلوها تقف بلا ثياب أمام الجميع.

سألها سيلينوس: «ماذا تقولين يا فَبْرُونْيَا؟ هل ترين أية فرصة جيدة أضعتها، وإلى أي خزي هبطت»؟

أجابت فَبْرُونْيَا: «اسمع أيها القاضي، حتى لو عريتني تماماً فلن أفكر في هذا العري، لأن ليس هناك سوى خالق واحد للذكور والإناث. في الحقيقة لا أتوقع فقط تعريتي وتجريدي من ثيابي بل أنا مستعدة للتعذيب بالنار والسيف، وأعتبر نفسي أهلاً لأتألم من أجل ذاك الذي تألم عوضاً عني».

**24)** «أيتها المرأة الوقحة»: صرخ سيلينوس: «أنت تستحقين كل أنواع الإهانات. أعرف جيداً أنك فخورة بملامحك الجميلة، ولهذا السبب لا ترين عاراً أو إهانة في وقوفك هنا متجردة، حتى أنك تتخيلين أن عريك يضفي على سنائك جمالاً».

أجابت فَبْرُونْيَا: «اسمع أيها القاضي، ربي وإلهي يعرف أني لم أر قط وجه رجل حتى هذه اللحظة، فقط لأني وقعت بين يديك أدعى سيدة وقحة وبلا حياء. أيها الرجل الأبله، الذي لا يفهم ولا يدرك، أي رياضي دخل إلى حلبة المصارعة في أولمبيا نزل إلى المباراة وعليه ثيابه؟ ألا يدخل ميدان المصارعة عارياً إلى أن يفوز على خصمه؟ إني أنتظر في ترقب التعذيب والحرق بالنار. فكيف أقاتل هؤلاء وأنا أرتدي ثيابي؟ ألا يجب أن أقابل التعذيب بجسم عار حتى أتغلب على والدك الشيطان وأهزأ بكل عذاب تهديداتك.

قال سيلينوس: «لأنها ستجلب العذاب إلى نفسها، وتجعل من لهيب

النار نوراً، ابسطوها بين أربعة رجال واجعلوا النار من تحتها، ليقف أربعة جنود فوقها ويمزقوا ظهرها بالقضبان».

نُفذت أوامره واستمروا يضربونها زمناً طويلاً وترقرقت قطرات دمها من على جانبي ظهرها إلى الأرض كالمطر. وأُضرمت النار فأحرقت أحشاءها. وأضافوا الزيت إلى النار فحمي اللهب أكثر من ذي قبل وبدأ يتلف جسدها.

بعد أن ضربوها بلا شفقة هكذا لفترة لا بأس بها، توسل جميع الناس إلى القاضي قائلين: «أيها القاضي الرحيم، أرحم الفتاة». لم يهتم القاضي بل أمرهم أن يستمروا في ضربها، وعندما رأى أن جسمها تمزق كلياً وبدأ اللحم يتساقط مزقاً مدماة، طلب منهم أن يتوقفوا عن الضرب. فرموها بعيداً عن النار معتقدين أنها ماتت.

**25)** عندما رأت تومايس الأمور المريعة التي تصيب فَبْرُونْيَا، أغمي عليها منهارة على الأرض عند قدمي هيريا. وهيريا نفسها صرخت بصوت عالٍ: «وا حسرتاه! يا فَبْرُونْيَا، أختي، واحسرتاه! سيدتي ومعلمتي. اليوم قد حُرمنا تعليمك، بل أيضاً تعليم السيدة تومايس، فها هي ذي ميتة أيضاً».

لما سمعت فَبْرُونْيَا صوت هيريا وهي مستلقية على الأرض، طلبت من الجنود إحضار بعض الماء لأجل وجهها. أحضروا الماء في الحال وصبوه على وجهها. فانتعشت للحال وطلبت أن ترى هيريا. لكن القاضي أمرها أن تقف وتجيب عن أسئلته.

«ماذا لديك لتقوليه الآن يا فَبْرُونْيَا؟»: سأل سيلينوس: «ماذا كان نصيبك في الجولة الأولى من القتال»؟

«لقد تعلمت من هذه المحاولة الأولى أنه لا يمكن أن أُغلب وأنني أستخف بعذاباتك»: أجابت فَبْرُونْيَا.

وجّه سيلينوس أوامره فقال: «ابسطوها على لوح خشبي ثقيل وامشطوا

جانبيها بالمسامير الحديدية ثم استعملوا النار حتى تحرقوا عظامها».

بعد أن فعل الجنود كما أُمروا، بدؤوا يمشطونها بالمسامير حتى سقطت مزق مدماة من لحمها على الأرض. ثم استعملوا النار وأحرقوا جانبيها. ظلت فَبْرُونْيَا شاخصة نحو السماء وهي تقول: «هلم ساعدني أيها الرب. لا تتركني في هذه الساعة». وعندما فاهت بهذا سقطت صامتة وقد احترقت بشدة.

26) غادر كثير من المشاهدين مسرح التعذيب وقد صدموا بقسوة سيلينوس عديم الرحمة. وصرخ آخرون قائلين للقاضي: «أبعدوا النار عنها».

وبعد أن أمر القاضي بإبعاد النار، أراد أن يستجوبها وهي معلقة على اللوح الخشبي، فلما لم تتمكن من الإجابة، أمر بأن تنزل من على الخشبة وتشد على دكة خشبية نظراً لعجزها عن الوقوف. واستدعى القاضي أيضاً طبيباً وقال له: «إن هذه المرأة اللعينة الداعرة لن تستجيب للسلطة القضائية فليقطع لسانها». مدت فَبْرُونْيَا لسانها وأشارت إلى رجل يحمل سيفاً ليقطعه فاقترب الرجل لينفذ ذلك، لكن الجماهير صرخت تطالب القاضي وتناشده ألا يقطع لسانها.

فأصدر سيلينوس اللعين أمره الغاشم بقلع أسنانها بدل ذلك، فأخذ الطبيب أداة حديدية وبدأ يقلعها ويرميها على الأرض.

وبعد أن اقتلع سبعة منها والدم يسيل بغزارة من فمها ويجري على الأرض أمر القاضي الطبيب أن يوقف الدم لأنها أصيبت بالإغماء لاستنزاف دمها. فاستعمل الطبيب بعض الأدوية وأوقف النزف.

27) بدأ سيلينوس الشرير يستجوبها ثانية: «ماذا تقولين يا فَبْرُونْيَا؟ هل تستطيعين السلطة القضائية الآن؟ وهل ستعترفين بالآلهة»؟

أجابت فَبْرُونْيَا: «عليك اللعنة أيها الرجل المنحوس اللعين، لأنك تعوّق رحلتي وذلك بعدم السماح لي بالذهاب فوراً إلى خطيبي. أسرع وحررني

من حمأة هذا الجسد لأن حبيبي يراقبني وينتظرني». قال سيلينوس: «سأهلك جسدك شيئاً فشيئاً في النار وبالسيف. أعلم أن نضارة شبابك ساعدتك على الاستمرار في وقاحتك ولكن لن تفوزي بهذا، لأن إباءك كفيل بأن يجلب لك أموراً أسوأ ستحل بك».

لم تستطع فَبْرُونْيَا الإجابة بسبب الألم الشديد. وهذا وحده جعل غضب القاضي سيلينوس يتفاقم، فأصدر تعليماته للطبيب قائلاً ليقطع ثديا تلك المرأة الوقحة مصدر حليبها من جسدها، ولتلق على الأرض.

أخذ الطبيب مشرط الجراح فوراً واقترب من فَبْرُونْيَا. عند هذا أصدر الجمهور صيحات الألم وتضرع إلى القاضي بهذه الكلمات: «سيدي القاضي، نتوسل إليك أن تستثني الفتاة من هذا العذاب». وبينما هم يصرخون ويتوسلون إليه، قال للطبيب مغضباً: «اقطعهما أيها الرجل اللعين الغريب عن الحياة التي مبعثها الآلهة». فأخذ الطبيب مشرط الجراح ولما شرع يجتث ثدي الفتاة الأيمن، رفعت صوتها نحو السماء وشهقت شهقة الموت قائلة: «ربي وإلهي أنظر إلى بلواي المريعة، أسلم روحي بين يديك، وصمتت عن الكلام نهائياً.

28) بعد قطع ثدييها ورميهما على الأرض أمر القاضي باستعمال النار لوقف النزيف فاستخدموها زمناً طويلاً حتى اشتعلت بها ولم تتحمل جمهرة الناس هذا التعذيب القاسي عديم الشفقة فغادرت الحلبة وهي تردد: «اللعنة على ديوقليتيانوس وآلهته».

أرسلت توميس وهيريا فتاة إلى الدير تعلمان براين بكل ما حدث. فلما وصلت الفتاة إلى الدير قالت لبراين بصوت عال: «تبلغك الأختان هيريا وتومايس ألا تدعي يديك المشرعتين إلى السماء ترتاحان ثانية واحدة، ولا تدعي قلبك يكف عن التضرّع إلى الله في صلاتك».

لما تلقت براين النبأ صرخت إلى الله: «ربي يسوع المسيح هلم إلى نجدة

خادمتك فَبْرُونْيَا». وارتمت على الأرض تصلي زمناً طويلاً وهي تبكي وتقول: «ابنتي، ابنتي فَبْرُونْيَا، أين أنت»؟

عادت الفتاة الرسول إلى الميدان بينما استمرت براين بالنحيب، ويداها مشرعتان نحو السماء: «ربي، أنظر إلى حال خادمتك فَبْرُونْيَا المريعة تعال إلى نجدتها، لتر عينى فَبْرُونْيَا وقد تكللت وأصبحت في عداد الشهداء الطوباويين».

29) بعد ذلك أمر القاضي بأن يحل وثاق فَبْرُونْيَا من على الخشبة. فتهاوت حين فكت على الأرض عاجزة عن الوقوف. ثم سأل بريموس ليسيماكوس: «لِمَ يجب على هذه الفتاة الشابة أن تموت»؟ فأجاب ليسيماكوس: «ليستجب الله ويصفح عنا، فإن معاناتها العسيرة كانت لمغفرة خطايا كثيرين، ربّما ليصفح الله عني بالذات، وقد اعتدت أن أسمع أموراً كهذه من والدتي. على أية حال ليس من اختصاصي أن أطلق سراحها وأنقذها، فلتنل نصرها، لأنها دخلت هذه المواجهة لخلاص كثيرين».

نهضت هيريا وصرخت بالقاضي: «أنت عدو التوازن في الطبيعة البشرية. ألم ترض بعد بالأمور الشائنة التي مارستها على الفتاة البائسة حتى الآن؟ ألم تتذكر أن لك أماً لها مثل جسدها، وتسترها بثيابها؟ ألم تفكر في اليوم المنحوس الذي ولدت فيه، كيف تلقيت أنت أيضاً الحليب من ثديي أمك الدافقين؟ أتعجب من قلبك الوحشي عديم الشفقة الذي لم يتأثر بمثل هذه الأمور. وأدعو الله الملك السماوي ألا يصفح عنك، تماماً كما لم تصفح عن هذه الفتاة المسكينة».

غضب القاضي وثار من كلمات هيريا فأصدر أوامره بأن تُحضر هي أيضاً وتقيد. فلما سمعت هيريا أمره هبطت مسرعة مفعمة بالسعادة وهي تقول: «يا إله فَبْرُونْيَا، اقبلني أيضاً، أنا الوثنية المسكينة، اقبلني مع أمي فَبْرُونْيَا».

30) وفيما هي تشق طريقها إلى الميدان فإن أصدقاء سيلينوس نصحوه بألا يحضرها علناً، وإلا فالمدينة بأسرها ستنضم إليها في الاستشهاد وستضيع به. فقبل سيلينوس النصيحة، وهكذا لم يجعلها تقف متحدية بالعلن بل انفجر غضباً وخاطبها ببساطة قائلاً: «أصغ يا هيريا بحق الآلهة، فقد أصبحتِ مصدر آلام أكثر لفَبْرُونْيا». وهكذا أمر بقطع يدي فَبْرُونْيَا وقدمها اليمنى. فأحضر الجلاد فوراً كتلة خشبية ووضعها تحت يدها اليمنى وقطعها بضربة فأس واحدة، وفعل الشيء ذاته بيدها اليسرى. ثم وضع الكتلة الخشبية تحت قدمها اليمنى وأسقط الفأس لكنه أخفق في قطع القدم، وضرب ثانية لكنه أخفق أيضا. آنذاك سمعت هياج الجمهور مستنكراً متألماً. فلما ضرب بالفأس ثالثة استطاع أن يستأصل قدم فَبْرُونْيَا. كان جسد الناسكة المتعبدة يرتعش كلياً وهي على شفا الموت، لكنها حاولت أن تضع ساقها الآخر على الكتلة الخشبية طالبة قطعها أيضاً. فلما رأى القاضي مسعاها، صرخ: «انظروا إصرار تلك المرأة الوقحة». وبغضب شديد قال للجلاد: «هيا استمر في قطع القدم الثانية».

31) وبعد قطع قدمها الأخرى نهض ليسيماكوس وقال لسيلينوس: «ماذا تدخر بعد لهذه الفتاة الشقية؟ هيا حان الوقت لنذهب ونأكل».

قال سيلينوس الشرير: «بحق الآلهة لن أتركها على قيد الحياة: سأمكث هنا حتى تموت».

وطال أمد عذاب فَبْرُونْيا، فسأل سيلينوس الجلاد: «هل المرأة اللعينة ما زالت على قيد الحياة»؟ أجاب الجلاد: «نعم. نأسف أن نخبرك أنه ما زال فيها رمق من الحياة».

فأصدر أوامره بأن يقطع رأسها فتناول الجلاد سيفاً، وأمسك بشعرها الطويل - كمن يذبح حملاً - وهكذا قتلها قاطعاً رأسها الطاهر.

نهض القضاة مباشرة وخرجوا ليأكلوا. أما ليسيماكوس فخرج باكياً،

بينما اندفع الحشد إلى الأمام يريدون اختطاف جثة فَبْرُونْيَا. لذلك أمر ليسيماكوس بعض الجنود ليمكثوا هناك ويحرسوا جسدها. كان حزيناً يبكي فلم يستطع الآكل أو الشرب بل لازم غرفته وهو يرثي لموت فَبْرُونْيَا.

لما علم عمه سيلينوس بأنه حزين جداً، لم يستطع هو أيضاً أن يأكل أو يشرب بل نهض وشرع يمشي في الساحة. فقد سيطر عليه اكتئاب مؤلم، وفجأة، وفيما هو يتمشى، نظر إلى السماء، وراح يحدق فيها لحظات من ثم زمجر كالثور وقفز فضرب رأسه بأحد الأعمدة فسقط ميتاً.

32) ولما علا صراخ الناس أسرع ليسيماكوس ووقف فوق الجثة وهو يسأل عما حدث. فلما أخبروه هز رأسه وأعلن بقوة: «عظيم هو إله فَبْرُونْيَا: لقد ثأر لدمها الذي أريق بلا خوف أو جزع». بعد هذه الكلمات أمر بأن يُخرج جثمان سيلينوس. فلما حملوه استدعى ليسيماكوس القمص بريموس وقال له: «استحلفك بإله المسيحيين ألا تخالف أوامري. أولِ اهتمامك للحال بإنشاء تابوت لفَبْرُونْيَا، وليكن من أفضل أنواع الخشب الصلب، وأرسل وفوداً إلى كل صوب ليعلنوا في جميع أنحاء البلدة أن كل من يرغب من المسيحيين في حضور جنازة فَبْرُونْيَا فليأت وليشارك دون خوف. وأردف: «وفوق ذلك فإن عمي القاسي قد مات. خذ يا بريموس من تريد من الجنود وأجعلهم يحملون جسد فَبْرُونْيَا وينقلونه إلى ديرها حيث براين. لا تدع أحداً من الحشد يخطف أي قطعة من جسدها أو طرف من أطرافها المبتورة، ولا تدع أي كلب أو حيوان نجس يجد الفرصة ليلعق من دم السيدة الطوباوية المسفوك، واجمع التراب حيث سفك دم فَبْرُونْيَا وانقله إلى ديرها».

33) ولما تلقى القمص بريموس هذه الأوامر من ليسيماكوس، نفذها حرفياً. كلف بعض الجنود حمل جسد فَبْرُونْيَا، وأخذ هو ذاته رأسها وقدميها ويديها وكل أجزاء جسد الفتاة التقية المبتورة ولفها بعباءته، وهكذا

جاء إلى ديرها. بينما أسرعت الحشود محاولة اختطاف بعض أطرافها المبتورة، لذلك كان القمص بريموس في مأزق عظيم بسبب عنف الحشود، وفي النهاية كان على الجنود أن يبعدوا الناس بسيوفهم.

ولما بلغوا الدير، زاد تدافع الحشود، استطاعوا أن يُدخلوا جسد القديسة دون أن يسمحوا لأي إنسان آخر بالدخول، ما عدا تومايس وهيريا، واحتجز الجنود الجماهير المحتشدة خارج الدير، ومنعوها من الدخول إليه.

**34)** فلما رأت براين جسد فَبْرُونْيَا مشوهاً بهذه الطريقة سقطت مغمى عليها وبقيت على الأرض زمناً. أما بريموس فبعد أن عين حراساً لحماية الدير عاد إلى ليسيماكوس في معسكره. وبعد أن استفاقت براين من غيبوبتها الطويلة نهضت وعانقت جثة فَبْرُونْيَا، قالت نائحة: «أواه يا بنتي فَبْرُونْيَا، اليوم قد أُبعدت عن نظر أمك براين. من سيقرأ الكتاب المقدس للأخوات؟ أية أصابع ستلمس كتبك»؟

وبينما كانت براين تتكلم عادت كل راهبات الدير ومعهن إيثيريا فارتمين أيضاً على الجسد الطوباوي وبكين، وبكتها إيثيريا بحرقة وهي تقول: «مرحى لهذين القدمين النقيين اللذين داستا رأس التنين» (مزامير 74:13). «ولأقبل الجراح الهينة والبليغة في هذا الجسد الطاهر، فبها برئت ندوب جراح قلبي، ولأتوج بأزهار المديح والتمجيد هذا الرأس الذي توج جنسنا بجمال منجزاته العظيمة».

هكذا كانت كلمات إيثيريا وهي تبكي وتتنهد مع بقية الأخوات.

وحان وقت صلاة الساعة التاسعة (الثالثة بعد الظهر) وصرخت رئيسة الدير: «ابنتي فَبْرُونْيَا، حان وقت الصلاة». ثم بدأت تنادي فَبْرُونْيَا بالسريانية قائلة: «أين أنت، يا ابنتي فَبْرُونْيَا، ابنتي الصغيرة، انهضي يا طفلتي الصغيرة انهضي وتعالي».

فردت عليها تومايس قائلة: «أختي فَبْرُونْيَا، أنت لم تعص قط أمر سيدتنا الرئيسة، فلمَ لا تصغينْ الآن»؟

**35)** وفيما هن يندبنها، حدث اضطراب عظيم بين الأخوات وبكين بحرارة ولما حلّ المساء، غسلن جسد الناسكة الطوباوية الطاهر ووضعنها على نعش. وأعدن كل طرف من أطرافها إلى مكانه، ومن ثم أصدرت براين أمرها بفتح أبواب الدير للجماهير المحتشدة. فلما دخلوا مجدوا الله كانت جميع السيدات العلمانيات يبكين وينحن لفقد معلمتهن.

حضر بعض الآباء الأفاضل وحشد من الرهبان، وأمضوا الليل كله بالصلوات واستدعى ليسيماكوس القمص بريموس وقال له: «يا بريموس إني أعلن عن ارتدادي عن دين أجدادي وتقاليدهم وأتخلى عن أرفع ممتلكاتي. وسأقبل المسيح». فأجابه بريموس: «وأنا أيضاً يا سيدي ألعن ديوقليتيانوس وحكمه، وأعلن عن براءتي من كل ما يتعلق بوالدي وسأقبل المسيح أيضاً». فتركا المعسكر وانضما إلى الجماهير المحتشدة في الدير.

**36)** وعند الصباح أُحضر التابوت. جاهزاً فذهبوا بموكب مع جسد فَبْرُونْيَا الطاهر، بالصلوات والدموع، ثم وضعوه في التابوت ونظموا بترتيب كل طرف من أطرافها في مكانه المناسب ـ أي رأسها، قدميها، يديها والأعضاء الأخرى، بينما وضعت أسنانها على صدرها. ملأت الحشود التابوت بكثير من المر والمسك والدهون الطيبة حتى أن جسدها لم يعد يرى بسبب الطيوب.

كان الصخب والضجيج يعم صفوف الناس الذين لم يسمحوا بإغلاق التابوت. وحاول مطران البلدة وبقية الرهبان طلب الأذن من الناس بوضع الغطاء فلم ينجحوا. ثم صعدت براين إلى مكان مشرف بارز وتوسلت إلى الحشود قائلة: «أرجوكم يا أخواتي وأخوتي اسمحوا أن تذهب إلى مكانها الحق». وهكذا انصاع الشعب كله لأوامر براين، ووسط الصلوات والدموع

وأناشيد التمجيد والتسبيح ساروا في الموكب مع جسد القديسة، فوضعوه في مكان طاهر في الدير والجميع يمجدون الله.

37) حشود كبيرة من الوثنيين آمنوا بربنا واعتمدوا. واعتمد ليسيماكوس وبريموس وتخلوا عن العالم ورحلوا مع رئيس الدير ماركلينوس ليعيشوا حياة ترضي المسيح، يمضون بقية أعمارهم بسلام. آمن كثير من الجنود بربنا واعتمدوا وكذلك هيريا ووالداها. تركت هيريا والديها، تخلت عن العالم وانضمت نهائياً إلى الدير الذي تبرعت له وقفاً بكل ما تملك، وطلبت من براين قائلة: «أتوسل إليك يا أماه أن تسمحي لخادمتك أن تحتل مكان الأخت فَبْرُونْيَا: سأعمل كما كانت تفعل». لذا تخلصت من مجوهراتها وطلبت تغطية تابوت الفتاة الطوباوية بالذهب واللؤلؤ من كل جوانبه.

38) وفي ذكرى انتصار الفتاة الطوباوية واستشهادها، تحيي راهبات الدير وأناس آخرون أيضاً ذكرها، ويعود ذلك الاحتفال إلى المعجزة التي تقع في منتصف الليل: ففي هذه الصلاة الليلية تظهر فَبْرُونْيَا الطوباوية واقفة في مكانها المعتاد حتى صلاة الساعة الثالثة: فيسيطر على الجميع خوف عظيم آنذاك، ولا يجرؤ أحد أن يقترب منها أو يسألها. لأنه في العام الأول الذي ظهرت فيه، وبينما كانت جميع الأخوات خائفات جداً صرخت براين: «إنها ابنتي فَبْرُونْيَا» وأسرعت لتعانقها ـ فاختفت فَبْرُونْيَا. وهكذا لم يجرؤ أحد بعد أن يقترب منها، وكانت الدموع الغزيرة تسيل من مآقيهن فرحاً برؤيتها.

39) وشيد مطران البلدة مزاراً جميلاً وفخماً للمرأة الناسكة المتعبدة، وأُنجز خلال ست سنوات. فلما تمّ بناؤه دعا المطارنة من المدن المجاورة والمحيطة وأقام استقبالاً كبيراً، صلى فيه الناس عشية العيد في الرابع والعشرين من حزيران. واجتمع خلق كثير حتى غص المزار والدير بالحضور. ولذلك أقيمت الصلوات في أماكن عديدة في آن واحد. وفي الصباح أتموا

التراتيل مع النور فقدم المطارنة إلى الدير لأخذ رفاتها ووضعه في المزار المبنّي حديثاً. وتبعهم حشد كبير، بالشموع والمشاعل والمباخر. فلما بلغوا الدير وصلّوا هناك، جلسوا واستدعوا براين قائلين: «إن ثمار منهجك في الحياة النسكية وأعمالك العظيمة قد عرفت في جميع أنحاء العالم ولا أحد يستطيع أن يوفيك حقك من المديح. وإنه لمن اللائق لكل راهبة تعيّن رئيسة لدير أن تقدم لله ثماراً مشابهة. ولأننا عاجزون عن التعبير والتكريم المناسب لهذه الشهيدة البارة فسنصمت، لأن اللسان يعيا عن إنشاد المدائح لها. ولأننا لا نستطيع فعل أو قول أي شيء تستحقه فقد أتينا إليك وأنت بمنزلة الأخت طالبين منك أن تشاركينا في تكريم الشهيدة البهية واسمحي لنا بجسدها ليرقد في المزار الذي بني باسمها».

**40)** فلما سمعت الأخوات هذا، ارتمين عند أقدام المطارنة يتضرعن إليهم وقلن: «نتوسل إليكم أن تشفقوا علينا نحن المسكينات لا تحرمونا جوهرتنا». وبعد فترة من البكاء المتواصل والتوسل إلى المطارنة، تحدث مطران نصيبين إلى براين قائلاً: «اسمعي يا أختاه: أنت تعلمين أي حماسة كانت لدي لبناء هذا المزار على شرف هذه القديسة المزودة بثياب النصر وتمجيداً لها. وقد مرت ست سنوات الآن ونحن نعمل على تشييده فلا تجعلي من رغبتك ما يثبت أن كل ما عملناه كان عبثاً لا فائدة فيه ولا ثمرة منه». فلما سمعت براين هذا قالت: «أرجوكم يا سادة إن كان هذا حسناً في نظركم وكذلك في نظر الطوباوية نفسها، فمن أنا حتى أمانع؟ أدخلوا إذاً، وخذوها خارجاً».

نهض المطارنة ودخلوا ليقوموا بالمراسيم الدينية المناسبة، بينما بدأت هيريا بالنحيب وهي تصرخ قائلة: «واحسرتاه علينا، أنتم اليوم تحرمون ديرنا بركة عظيمة. واحسرتاه علينا فقد حل بديرنا اليوم بلية وحرمان وسلب! واحسرتاه علينا، اليوم، نسلم باليد جوهرتنا»! ثم جاءت إلى براين وهي تتنهد فقالت لها: «ماذا تفعلين يا أماه؟ لمَ تحرميني أختي التي من أجلها

تركت كل شيء لألجأ إليك هنا»؟ فلما رأت براين هيريا بهذه الحال سألتها: «لِمَ تبكين يا ابنتي هيريا؟ إن أرادت الذهاب فستذهب».

41) ولما أتم المطارنة الصلوات ولفظ الجميع كلمة: «آمين». اقتربوا ليرفعوا تابوت الفتاة الطوباوية فسمع في تلك اللحظة قصفُ رعد من السماء وسقط جميع الناس خوفاً. وبعد فترة مدوا أيديهم ليأخذوا التابوت، فوقع في هذه المرة زلزال عظيم حتى تخيل الناس كأن المدينة بكاملها ستُدمر.

وهكذا أدرك المطارنة والناس جميعاً أن الشهيدة الطاهرة لا تريد مغادرة ديرها. قال المطارنة لبراين في أسف: «إن لم يكن لدى الناسكة الرغبة في مغادرة الدير فلتهبنا فقط أحد أطرافها التي قطعت، بركة لنا: فسنأخذها ونرحل».

فأخذت براين مفتاحاً وفتحت التابوت: كان جسد فَبْرُونْيَا كشعاع الشمس وكأن ناراً وبرقاً يشعان منها. وبخوف وارتعاش مدت براين يدها ولمست يد فَبْرُونْيَا تريد أن تعطيها للمطران، ولكن يدها تسمرت بقوة وهي تحاول أن تلتقطها. فتوسلت براين بالدموع: «أتوسل إليك، سيدتي فَبْرُونْيَا، لا تغضبي من أمك، تذكري الصعوبات التي مرت بها براين، فلا تخزي شيخوختي». قالت ذلك وأعادت اليد إلى مكانها السابق. ثم بسطت يدها ثانية وهي تلهث وقالت: «امنحينا بعض البركة، يا سيدتي، ولا تخيبي رجاءنا». فأخذت سناً من أسنانها الموضوعة على صدرها ثم أعطتها للمطران وأغلقت التابوت في الحال.

42) تلقى المطران هذه الجوهرة على صحن من ذهب ورحل مبتهجاً، يتقدمه حشد كبير ينشدون المزامير ويحملون الشموع والمباخر. عندما وصلوا إلى المزار صعد المطران إلى منطقة مرتفعة وعرض الذخيرة على الناس، فشفي جميع العميان والعرج والذين بهم مس من الشيطان. فلما

انتشر هذا الخبر، جاء الصبيان مسرعين يحملون المرضى على أكتافهم أو على الأسرة، بينما أُحضر الآخرون على ظهور الدواب، فشفي الجميع من أمراضهم، ولم تسمح الحشود بوضع الجوهرة في مكانها المناسب حتى توقف الناس عن إحضار المرضى. وشفي الناس من الأمراض المختلفة وقدموا التسابيح لله، فأعيدت الجوهرة إلى مكانها. حدث هذا في الخامس والعشرين من حزيران.

بعد أن استمتع الناس بمثل هذه الهبات الرائعة عادوا إلى بيوتهم بسلام، وهم يهللون ويسبحون: «سيدنا يسوع المسيح الذي له المجد إلى أبد الآبدين، آمين».

**43)** وعاشت براين لمدة عامين بعد رعايتها لمقام المرأة المباركة. وبعد أن رتبت الأمور كافة، أغلقت عينتيها في سلام.

بعد موت سيدتي براين، أنا، المسكينة تومايس، أخذت مكانها. بسبب معرفتي كل ما حدث لفَبْرُونْيَا الطوباوية منذ البداية، وعرفت الباقي من سيدي ليسيماكوس فقد كتبت عن هذا الاستشهاد تسبيحاً وتمجيداً للمرأة العظيمة، وللخلاص وتشجيع الذين يسمعونه، على أمل أن تستيقظ عقولهم لدى هذا الصراع من أجل الإيمان وليستحقوا هم أيضاً ملكوت السماء، بالمسيح يسوع ربنا، له المجد والقوة إلى أبد الآبدين آمين.

# 8) شيرين

**مقدمة:**

خلال كتابه عن الكمال، يسرد سهدونا (مرطيريوس) وهو راهب[1] من الكنيسة السريانية الشرقية في القرن السابع، عن امرأة متميزة، كان لها تأثير بالغ في تنظيمه الروحاني. ونظراً لأنها كانت في الثمانين من عمرها وكان مرطيريوس آنذاك طفلاً في نهاية القرن السادس فمعنى ذلك أن حياتها امتدت تقريباً على مدى القرن السادس بكامله. لا يصفها مرطيريوس أبداً على أنها راهبة على وجه الدقة، لذا ربما كانت امرأة علمانية عاشت وكأنها تحت القسم الرهباني وتلت الصلوات النسكية - كابنة روحية للمكرسات من الكنيسة السريانية القديمة، وإن كانت هذه هي الحال فشخصية سيرتها شبيهة في كثير من الأحوال بشخصية (بياتا)[2] في إسبانيا القرن السادس عشر. والشيء الوحيد الذي يدرك من وصف مرطيويوس أنها عاشت في قرية والديها ذاتها، وتلك القرية تعرف من مصادر أخرى أنها قرية (هالمون) في مقاطعة تعرف ببيت نوهادري (في شمال العراق).

ربما يكمن أهم مظاهر التشويق في العرض القصير لمرطيريوس في وصفه شيرين كمرشدة روحية لرهبان ولنساء علمانيات أيضاً. وتعتبر هذه صورة لقداسة أنثوية قلما يجد الإنسان لها ذكراً في أدب سير القديسين.

ويجب ألا يخلط بين شيرين هذه وشيرين الشهيدة التي وردت سيرتها حتى الآن باللغة اليونانية.

## شيرين

**64)** ولكن لِمَ علي أن أتكلم على الرجال فحسب؟ فلنتفحص الطبيعة الضعيفة للجنس الأنثوي الضعيف وسهل الانكسار لنرى ما إذا كان جمال الحياة الفاضلة في النساء اللواتي يحملن بعض صفات الله، واللواتي دسن وسحقن الخطيئة والشيطان.[3] أنا نفسي أخجل من النظر إلى أعمالهن الجبارة حين أفكر بالقيود التي قيدناهن بها نحن الرجال. ويحق لهذا الجمال أن يتباهى لتمجيد أولئك النساء.[4]

**69)** من بين جميع هذه السيدات أنموذج واحد يفي بهذا الغرض، التقية الورعة شيرين، الطوباوية بين النساء. مثل ياعيل، التي استجاب لها الله[5] فاقتلعت الشر من خيمة جسدها مثلما يقتلعون وتد الخيمة، هددته وطرحته عند قدميها عند ذلك العدو الخفي الذي يحاربه القديسين: بمشقات ظاهرية وصلوات خفية أذلت كل شجاعته وصرعته على الأرض. قد أُخزي الشرير خزياً عظيماً، في أول الأمر أغوى المرأة واستطاع أن يزرع إثمه فيها، والآن هو نفسه مُهدد من النساء، الشكر كل الشكر لمن ولد من عذراء ومنح القوة لطبيعة النساء.

**70)** كانت شيرين هذه امرأة مسنة، رأيتها بنفسي عندما كانت في حوالي الثمانين من عمرها. إن ذكر الأعمال التي انهمكت فيها، من صباها حتى السنوات الأخيرة من مسيرة حياتها، مهمة صعبة تتطلب كتاباً ضخماً بمفردها. وليس في نيتنا أن نفعل ذلك هنا، بل سوف نورد بعض الأمثلة من جمال فضائلها كشهادة وتوضيح لما نريد أن نقول. عن طريق وصف القداسة الكاملة لطريقة حياتها، ولكي يرى الجميع، سنلقي الضوء على عدد من التفاصيل المتعلقة بجمالها الروحاني لنعزز قصتنا، تماماً كما فعلنا من قبل حيال وضع الرجال البررة الذين سلطنا الضوء على جمال حياتهم كتحريض لنا لكي نقتدي بهم (في أوضاعهن أيضاً يحتاج

المرء إلى آلاف من الفقرات الطويلة ليسرد بكمال قصة مآثرهن).

71) ومنذ أن رغبت تلك المرأة المقدّسة في محاكاة أعمال الرجال بدأت تظهر في شخصيتها صورتهم. رؤيتها وحدها أثارت تساؤل الجميع وإعجابهم، كانت أعمالها الرائعة سبباً لتسبيح الله وتمجيده. كانت مكرمة مقدرة من الجميع إلى حد كبير حتى أن رؤساء الأديرة في ذلك العصر ـ الأبرار الذين تحدثنا عن أمجادهم سابقاً ـ اعتبروها أماً روحية بارّة جديرة بالنعيم السماوي. كانوا يحيونها عن بعد، ويستعطفونها لتصلي لأجلهم، وأحياناً حين كانت تذهب لترى من كانوا يعيشون في الجوار، وتنال البركة منهم وفق قانون المحبة، كانوا يمدونها بكل ما تحتاج إليه مثل الرسل المتلهفين، متمسكين لها باحترام كبير لها لأنها مكرمة كثيراً من الله.

72) احتقرت العالم كله بسبب محبتها الله[6] معتبرة إياه محض قمامة، لتربح المسيح.[7] رفضت وأبعدت كل شيء آخر، مرتبطة به كلياً بالحب الذي لا مكر فيه ولا خداع.[8] تجاوزت الحياة المثالية للرهبنة والنسك في كل قساوتها وصرامتها. والأمور التي كانت تشق على الآخرين ـ حتى أولئك المتمرسين في الفضيلة ـ كانت سهلة وواضحة المعالم، هي التي كانت منذ البداية على اطلاع جيد يهدف القداسة والكمال.

73) ولأنها أماتت تماماً رغبات بطنها (التي أثبتت بأنها مزعجة جداً لأغلب الناس) عن طريق الترويض المطلق، طبقاً لإرادتها القوية الرائعة أشبعت جوعها المتواصل بما يقوم بأود جسدها، وليس على الإطلاق، استجابة لرغباتها، كانت كل مساء تتقوى بكعكة صغيرة مصنوعة من الحبوب وبعض الخضار المسلوقة. وبهذا الطعام مع قليل من الماء ضمن لجسدها الاستمرار، حيث كان وجهها يشع بنعمة الروح القدس الذي أنعشها ـ لذا تخيل الجميع بأنها كانت تعيش على ألذ الأطعمة وهي في

الحقيقة لم تكن تأكل في أغلب الأحيان إلا مرة كل أربعة أيام، بل مرة واحدة في الأسبوع.

**74)** كإنسانة اختارت طريقة حياة دانيال وأصحابه، كانت جديرة بأن تتلقى هي أيضاً قوة النعمة مثلهم؛ لأن وجوههم فاقت في الإشعاع والجمال وجوه جميع أصحابهم.[9] وكان من يراها تقف ساعات طويلة في القداس الإلهي على الرغم من تعب الشيخوخة يشعر على الفور أنها ولا ريب محصنة بنعمة الروح القدس لمقاومة شهوات نفسها. أنا نفسي ذهبت لزيارتها عدة مرات لأنال البركات منها، وكنت أحدق النظر فيها وأنا مندهش من طريقة إنجازها أصعب المهمات بيسر.

**75)** وما كان أشد تلهفها للصلاة وأشد يقظتها في أثناء المراسم التي تستمر طويلاً! حتى لو أن المرء قال إنها كانت مستغرقة في الصلاة على الدوام لما ابتعد عن الحقيقة.[10] كان جهدها المتواصل يتوقف على قراءة المزامير والصلوات التأمليّة الممزوجة بالبكاء إلى حد كبير، حتى إنها كانت تقضي معظم الليالي بلا نوم لاستغراقها في إنشاد المزامير بلا انقطاع والصلاة. لكنها كانت أثناء النهار تقسم وقتها بين هذا وقراءة النصوص الكتابية، وسير الأبرار والأعمال الجيدة المكتوبة للإرشاد والنهوض بالحياة الرهبانية وتعليم الإيمان الحق.

**76)** من رآها حقاً يستطيع وحده أن يعرفها حق المعرفة، كم كانت رضية لطيفة نقية وبسيطة! وكم كانت طافحة بالحب الحنون تجاه الجميع! كم كان فرحها من أعماقها وهي تستقبل الغرباء وتعنى براحتهم.

**77)** كان يزورها الرهبان والغرباء عن هذا العالم من كل مكان ويقاسمونها تبجيل ربنا لأنهم كانوا يعتبرونها أماً روحانية بارة. كانوا يتجمعون من أماكن مختلفة كأولاد قادمين لتلقي دروس في القداسة معها، يطلبون بركتها والاستفادة منها. أما هي فقد كانت تستقبلهم بمحبة وتمدهم

بما يحتاجون إليه، مزودة إياهم بالغذاء الجسدي والروحي أيضاً، ومع عنايتها براحتهم الجسدية كانت في الوقت ذاته تُدخل البهجة والسرور إلى نفوسهم بكلماتها وأفعالها.

وهكذا كانوا يغادرونها شاكرين الله، حاملين معهم جميع أنواع المؤن المفيدة نتيجة ما رأوه وسمعوه.

**78)** كانت النسوة بشكل خاص يترددن عليها نظراً لأنهن وجدنها إنسانة يمكن النفاذ إليها بسهولة نظراً لوضعهن المشترك. فاستفدن منها كثيراً ومن مكالمتها، فكن ينجذبن إليها ما أن يرينها ويقلدنها ويجارينها قدر المستطاع. وهذا ما يمكن ملاحظته في أمي البارة التي أضرمت فيها نار الإيمان مذ رأتها فأضناها حماسها لتتبع طريقة حياتها قدر استطاعتها. ومنذ أن كنت صبياً كانت تنصحني أن أختار نمطاً للحياة يماثل حياة شيرين.

**79)** كانت أمي خائفة جداً من أن يؤدي بي ولعي وحبي جسدي إلى الانزلاق نحو العالم لذا كانت تقول لي دوماً: «أفضل الموت من أن أعيش وأراك ـ حاشا لله ـ متورطاً في العالم مثل كثيرين». كانت تأخذني لأرى هذه السيدة البارة بانتظام منذ أن سكنت في قريتنا، وبهذه الطريقة استطاعت أن تنتزع لي بركات السيدة البارة، وتغرس في قلبي الحماسة الشديدة لحياة الكمال بالاستماع إليها ورؤيتها. قويت هذه الحماسة يوماً بعد يوم حتى استنفدت رغباتي في أيام شبابي تلك الرغبات التي نشأت من ذلك المصدر.

# الملاحق

# ثيودورا: الملكة المؤمنة

## دراسة في علم التأريخ السرياني[1]

### 1) لذكرى ثيودورا:

يعد القرن السادس هدية للباحثين في مجال التاريخ البيزنطي، باعتبار أنه أحد أعظم العصور التي عرفتها البشرية، وذلك نتيجة الحكم المميز للإمبراطور يوستنيانوس الأول (العظيم) وزوجته ثيودورا. طال حكم يوستنيانوس واستمر رسمياً من عام (527 م) حتى وفاته في عام (565 م) ولكن يعود إليه الفضل في تحمل أعباء الإمبراطورية خلال حكم سلفه، عمه يوستين الأول الذي كان إمبراطوراً من عام (518 م) إلى عام (527 م). خلال حكم هذا الأخير عبّر يوستنيانوس عن رؤيا يطمح من خلالها لإعادة الإمبراطورية الرومانية إلى سابق عهدها، وليجعل منها إمبراطورية قوية تعيد توحيد الشرق والغرب، سياسياً، من خلال غزو جديد للأراضي التي خسرتها، ودينياً، من خلال إيجاد حل للانقسامات المريرة التي تلت المجمع الخلقيدوني الذي انعقد في عام (451 م). وحكمت ثيودورا كونها زوجة يوستنيانوس وشريكته حتى وفاتها في عام (548 م) وكانت وفاتها خسارة كبيرة يبدو أن يوستنيانوس لم يستطع تعويضها أبداً.

بمساعدة ثيودورا، طالت جهود يوستنيانوس كل نواحي الحياة الإمبراطورية، فلم تقتصر جهوده هذه على الحملات العسكرية وإرساء العلاقات الدبلوماسية مع الدول الأجنبية، بل شملت أيضاً الإصلاحات القانونية، والتطورات في مجال الهندسة، وتحسين المؤسسات المعنية

بالاستشفاء ورعاية المعوزين، إضافة إلى الإنجازات الأدبية والحوارات اللاهوتية الأكثر تعقيداً. إن قانون يوستنيانوس وكنيسة آيا صوفيا وعدداً من المباني الأخرى المميزة، وكذلك فن الشاعر السرياني رومانوس ميلودوس(2) في نظم الترانيم الممجدة لله، كلها آثار تشهد على الأعمال المجيدة لحكم يوستنيانوس ورعاية ثيودورا. وقد شهد حكم يوستنيانوس في الوقت نفسه إخفاقات ذريعة، فإعادة غزو إيطاليا وشمالي إفريقية كان جزئياً ولم يدم طويلاً، والخزينة الإمبراطورية أفلست، وفوق ذلك كله، كان الانشقاق المفجع للكنيسة الذي جاء نتيجة تشكيل سلطات كنسية شرقية أرثوذكسية منفصلة.

في التقليد السرياني، يتداخل هذا الكم من الإنجازات والإخفاقات من أجل التركيز على نقطة معينة. ذلك أن القرن السادس بقي في الذاكرة على أنه زمن النكبات (جفاف، مجاعات، أوبئة وحروب) زمن عمَّ فيه الاضطهاد الذي تعرض له أولئك الرافضون للمجمع الخلقيدوني، وانقسام الكنيسة الذي نتج عنه، فتأكدت تلك المأساة التي استمرت فيما بعد.

في حين حدث كل هذا قبل أن يستتب انقسام السلطات الكنسية إلى كنيستين منفصلتين بزمن طويل (يشار إليهما اليوم بالكنيسة الأرثوذكسية الخلقيدونية والكنائس الشرقية غير الخلقيدونية) إلا أن ذاكرة علم التأريخ كان لها ثقلها في تحديد القرن السادس وحكم يوستينيانوس وثيودورا على أنهما نقطة حاسمة في تلك المسيرة. لقد أعطى علم التأريخ السرياني شكلاً مختلفاً لهذه التجربة، شكلاً ظل يذكر يوستينيانوس على أنه السبب وراء ذلك الانقسام الذي جاء نتيجة لسياسة الاضطهاد التي تعرض لها كل من رفض مجمع خلقيدون. أما ثيودورا، فيذكرها التأريخ السرياني على أنها (الملكة المؤمنة) البطلة، وحامية الكنيسة اللاخلقيدونية المنشقة.

إن نسبة الإنجازات والآلام، الطموحات والخسائر كانت هائلة. لكن

الشخصية القوية التي يتمتع بها كل من يوستينيانوس وثيودورا أضفت على القرن السادس تألقاً رومانسيا فظلت هاتان الشخصيتان شامختين شموخ إنجازاتهما.

لقد اعتمدت الدراسات الغربية التي تناولت القرن السادس، وأشهر إمبراطور وإمبراطورة عرفهما هذا القرن، اعتماداً كبيراً على المؤرخ اليوناني بروكوبيوس. كان هذا الأخير مؤرخاً رسمياً أيام حكم يوستينيانوس، وكان مطلعاً على أسرار البلاط الإمبراطوري وذلك على مختلف المستويات. إن كتاب بركوب: **تاريخ الحروب**[3] يتناول جميع الحملات ضد الفندال والقوط والفرس، ويزودنا بالرواية الأكثر تفصيلاً عن حملات يوستينيانوس العسكرية. كما يقدم كتابه: **أبنية**[4] تقريراً رسمياً ومفصلاً عن الإنجازات التي تمت في مجال الهندسة، الزخرفة الفنية، والجهود التي بذلها الإمبراطور والإمبراطورة في حقل الإعمار. لكن، في غالب الأحيان، كان أكثر ما يسترعي انتباه الباحثين والطلاب الغربيين على حد سواء، هو كتاب أصغر حجماً من كتاب أبنية وعنوانه: **نوادر أو تاريخ سِرّي.**[5] وهو كتاب لا مثيل له في الهجاء القديم، كما أنه حملة ذم ضد إمبراطور وإمبراطورة يتمتعان بإمكانيات مذهلة، كل ذلك في نص فريد من نوعه من نصوص التاريخ البيزنطي.

إن الدراسات الحديثة ركزت بشكل خاص على الطابع الأدبي لكتاب **نوادر** وما يتميز به هذا العمل من أسلوب بلاغي منمق، ومن فن الهجاء الأدبي؛ أسلوب يقدم وجوهاً بلاغية وأنواعاً متعددة من الشخصيات الموجودة أساساً من أجل الحط من قدر شخصيات بارزة، تتمتع بنفوذ سياسي كبير، ولم يستثن حتى الأباطرة من ذلك.

لقد تركزت الحيل في مثل هذه الجهود على تصوير النساء «السيئات» بشكل كاريكاتوري، وفي غالب الأحيان لم يكن يرتكز إلى أساس واقعي

أو ربما ارتكز إلى أساس واقعي ضعيف. كما قدمت النساء في جميع الأحوال كأفراد لهن شخصيات مستقلة. بل إنهن صورن بطريقة نافرة على أنهن مجرمات يغتلن الرجال. يتوجه هذا العمل وجهة غير اعتيادية لما يصوره من وجوه الضغائن بالإضافة إلى النقد اللاذع والشامل لحكم يوستينيانوس، ومع ذلك، فإن كتاب نوادر يتبع من الناحية الأدبية الأساليب التقليدية التي يعرفها جيداً كل طالب يدرس أساليب البلاغة القديمة. ولكونه ينتمي إلى نمط الكتابات التاريخية، فإنه يعرض وجهة نظر معينة حول يوستينيانوس وثيودورا ووجهة النظر هذه مختلقة كلها تقريباً، إلا أنها نافعة كدراسة حول تطور الأساليب البلاغية والمواضيع الثقافية الطاغية، إلا أنها من جهة أخرى لا تقدم سوى القليل من المعلومات الأساسية حول الإمبراطور والإمبراطورة.

رغم ذلك، فإن كتاب نوادر بأسلوبه الخاص في تقديم يوستينيانوس وثيودورا، ظل يسيطر بأسلوبه على مخيلة الغرب لمدة طويلة. لدينا هنا بالتالي صورة ثابتة لا تمحى لثيودورا تظهر أن رغبتها الجارفة للإثارة الجسدية والقوة السياسية لا يمكن كبحها. فأساس خبرة ثيودورا في الحياة يعود إلى عملها كطفلة غانية وكبهلوانية مثيرة في السيرك؛ كما أن ما طبع فترة حكمها كإمبراطورة هو الجشع، الشعوذة، الغش، المكائد السياسية واللامبالاة المتعمدة حيال الهواجس التي تسكن كل مواطن يتمتع بالأخلاق والاحترام. بالمقابل، فإن كتاب **نوادر** يقوّم يوستينيانوس استناداً إلى اختياره لزوجته، فيصفه على أنه رجل مسيّرٌ في أعماله، يستبطن الشر كله في ذاته، يستولي عليه الطموح. رجل يخلو من الحد الأدنى للشعور الإنساني في تطلعه إلى السلطة، يستعبده تفانيه العاطفي الذي لا مثيل له حيال زوجته الخسيسة.

لقد كان وصف الشخصيات في **نوادر** قاسياً للغاية، لدرجة يصعب فيها تفهم كيف يمكن لكاتب واحد أن يؤلف مثل هذا الكتاب، بالإضافة إلى كتب أخرى أكثر رسمية واتزاناً وإطراءً «**تاريخ حروب وأبنية**». لذلك،

استمتع الباحثون والطلاب على حد سواء بلغز استنتاجاته غير المتوازنة.

استناداً إلى الدليل الوافي الذي بقي من ضمن مصادر أخرى يونانية وسريانية تعود إلى تلك الفترة، اتفق علماء التاريخ على أن ثيودورا استطاعت أن تخرج من وضعها كطفلة ممثلة في القسطنطينية لتجد لنفسها حياة هادئة ومحترمة في الإسكندرية في بداية سن الرشد. على ما يبدو، فإنها تعلمت هناك على يد شخصيات لامعة كعالم اللاهوت، البطريرك مار سويريوس[6] الأنطاكي. وخلال إقامتها في الإسكندرية، التقت يوستينيانوس الذي كان آنذاك في رعاية بلاط جوستين[7] الإمبراطوري. بعد ذلك صدر مرسوم يسمح للغانيات التائبات أن يعقدن قراناً رسمياً وإذا ما وصلن إلى مكانة محترمة، سمح لهن بالزواج من رجال يشغلون أعلى المناصب. وهكذا، تزوج يوستينيانوس وثيودورا في عام (525 م) في القسطنطينية وأخلص الواحد منهما للآخر كل الإخلاص حتى آخر العمر. وإلى أن وافت ثيودورا المنية في عام (548 م) فإنهما قاما بكل الأعمال معاً كزوجين.

إن المصادر الأدبية التي انتقدت الإمبراطور والإمبراطورة، وتلك التي أيدتهما، تدعم الصورة التي ظهر فيها الزوجان، وتشير إلى أن ثيودورا الإمبراطورة مارست سلطة لا مثيل لها، كما كان لها تأثير يفوق تأثير كل اللواتي شغلن هذا المنصب من قبل. في حين أن القانون البيزنطي لم يحدد بوضوح نطاق سلطة الإمبراطورة، إلا أن ثيودورا استطاعت أن تخلق لنفسها دوراً كان في الوقت عينه تقليدياً (كانت إحدى النشاطات المحترمة التي تقوم بها امرأة رومانية موقرة هي تقديم الرعاية وبالنسبة إلى الإمبراطورة كانت الأعراف والتقاليد) وواسع النطاق من حيث تأثيراته. كان لها تأثير واضح على نطاق واسع، لكن في الحقيقة، لم تحاول يوماً أن تعارض سياسات زوجها مباشرة، ولا أن تقلل من نفوذه. وبالتالي، فقد بقيت السلطات التي تمارسها محدودة، لكنها كانت شخصية مؤثرة ومسيطرة.

إلا أن كتاب **تاريخ مار ميخائيل الكبير السرياني**[8] لمار ميخائيل السرياني، والذي كتب بعد ذلك بستة قرون، يعرض وصفاً مختلفاً تماماً لثيودورا؛ مغايراً للبحث الدقيق من أجل إعادة بناء تاريخية أخذها على عاتقهم باحثون عصريون، ومبايناً لكتابة بروكوبيوس اللاذعة. لقد روى مار ميخائيل أن يوستينيانوس، لما كان في خدمة عمه يوستين الأول، حمل على الفرس المحاذين للإمبراطورية الشرقية. وقد كانت ثيودورا ابنة كاهن أرثوذكسي (غير خلقيدوني) لم يتقبل في البداية زواجها بيوستينيانوس خوفاً من أن تختلط بمن اتبعوا مجمع خلقيدون، إلى أن تعهد يوستينيانوس (أقيم قيومو)[9] بأنه لن يجبرها على الاعتراف بسينودوس خلقيدون. نتيجة لذلك، وبحسب رواية مار ميخائيل، جعلت ثيودورا لنفسها مكانة خاصة كإمبراطورة من خلال حرصها على سلام الكنيسة وأقنعت يوستينيانوس بالعمل من أجل هذه الغاية. فاستقبلت المنفيين المضطهدين من الأرثوذكس الشرقيين في القسطنطينية وأعدت لهم مساكن وزودتهم بالمؤن، كما كانت تزورهم باستمرار. وقامت ثيودورا خصوصاً بمناصرة ثلاثة بطاركة هم مار سويريوس الأنطاكي، ثيودوسيوس الإسكندري، وأنثيموس القسطنطيني، ودعمت في قصرها الخاص. كما كانت تعمل بهدوء وبجد واجتهاد لتهدئة يوستينيانوس عندما يثير المتعصبون الخلقيدونيون انفعالاته.

ووفقاً لمار ميخائيل، فقد خبأت ثيودورا قادة الأرثوذكس الشرقيين المنفيين وحمتهم، لكنها في الوقت نفسه شجعت النقاشات اللاهوتية التي كانت قيد التطور، والتي رعاها زوجها. وعندما أصبح يوستينيانوس، في معارضته للمؤمنين، يسلك سلوكاً متطرفاً للغاية، إلى درجة المرض، دعت ثيودورا سراً رجلاً سريانياً تقياً يدعى زعورا كي يشفيه. يقول مار ميخائيل إنه، بعد ذلك، توقف يوستينيانوس عن استعمال العنف المتطرف، لكنه لم يقم بأي سلام داخل الكنيسة. وعندما قام بطريرك الإسكندرية الخلقيدوني خلال ممارسته شؤون منصبه وعمله، باللجوء إلى وحشية غير مقبولة، أقنعت

ثيودورا زوجها بأن ينفيه. كذلك، عندما طلب ملك العرب حارث بن جبلة رعاةً أرثوذكس، تكفلت ثيودورا بإرسال ثيودور وأسقف سرياني أرثوذكسي اسمه يعقوب. يدعي مار ميخائيل، أنه عند موتها كان يوستينيانوس مفجوعا، وقد قدم الكثير من الذهب لراحة نفسها، بينما رفض الأرثوذكس الشرقيون أن تضعف معنوياتهم نتيجة موت حاميتهم.

إن الجزء الأكبر من رواية مار ميخائيل حول الإمبراطورة ثيودورا يتفق مع مصادر القرن السادس؛ وفي الحقيقة، هو مأخوذ إلى حد بعيد من الكتّاب السريان يوحنا الأفسسي. والكاتب الذي أكمل **حوليات** زكريا متيلِني. هذا مهم جداً، لأنه عدا يوحنا لدينا وصف لشخصية ثيودورا ينافس فعلياً وصف بروكوبيوس من حيث الطول، ومن حيث سبره أغوار الحياة الإمبراطورية لكن دون أن يتضمن أي أثر للنقد اللاذع كالذي انتهجه المؤرخ اليوناني. إلا إن مار ميخائيل هذا، عمل ثانيةً على الوصف الذي قدمه يوحنا، وذلك الذي حل محل زكريا وأعاد تشكيله. وكان قد قام بذلك أيضاً عدد من المؤرخين السريان بين القرن السادس والقرن الثاني عشر. كما سنرى، فإن إضفاء صورة جديدة، وإن بشكل روائي، على الحكم وعلى موقع ثيودورا فيه، قد يؤدي إلى تغيير هام في المفهوم التاريخي المعروف.

حتى أن مار ميخائيل ذهب أبعد مما قام به المؤرخون السريان حين وضع روايته حول حكم يوستينيانوس وثيودورا في إطار الرواية الغربية التي تدور حول طفولة ثيودورا البريئة في الشرق، والتي جاء فيها أنها تربت على يد كاهن أرثوذكسي سرياني كان عارض زواجها من يوستينيانوس إلا إذا سمح لها بالبقاء على أرثوذكسيتها، بضمانة تحت القسم. في حين تبدو رواية مار ميخائيل أنها أول مصدر مدونٌ تطرق إلى هذه الحادثة، إلا أنه تظهر بعد ذلك بقليل متغيرات وردت في (حوليات سنة 1234 م). في هذه الحالة، أصبحت عائلة ثيودورا من كالينيكوس (الرَّقَّة) وليس من منبج،

وازدادت كثيراً المسحة (الرومنطيقية) في الأسطورة؛ فلم تعد ثيودورا محض ابنة كاهن أرثوذكسي سرياني، بل أصبحت (فتاة بهية الطلعة) (يزينها جمال التواضع والجسد والروح). سمع بها يوستينيانوس بينما كان في حملة عسكرية في الشرق، وقد وقع في حبها من النظرة الأولى، وتوسل للزواج بها. وقد زوجها (أهلها) منه، إلا أنهم لم يكونوا راغبين في ذلك، لأن يوستينيانوس كان على مذهب الخلقيدونيين. ثم أخذها معه إلى العاصمة الإمبراطورية (القسطنطينية). وعندما أصبح ملكاً، صارت ثيودورا مصدر عون مهم للأرثوذكس (الشرقيين). تشهد هاتان الروايتان اللتان تعطيان ثيودورا حقوقاً مكتسبة أخرى على تقليد شعبي سرى بين السريان الأرثوذكس قبل زمن مار ميخائيل. لكن، لا شك في أن هاتين الروايتين قد ابتعدتا كثيراً عن الأحداث التاريخية التي نحن بصددها حتى ظهرتا بهذا الشكل. كانت هذه الرواية الأخيرة، رواية تليق بالإجلال والإكبار اللذين تميزت بهما (الملكة المؤمنة) في التقليد الأرثوذكسي السرياني. فقد منحت في هذه الرواية حقوقاً مكتسبة وأصولاً عائلية تليق بذكرى الحامية الأمينة والنصيرة المتفانية، والخادمة التي كرست نفسها للكنيسة الحقيقية. لقد حفظت هذه الرواية وترسخت في ذاكرة الأرثوذكس السريان حتى يومنا هذا.

ما تزال الدراسة المتأنية لتأريخات مار ميخائيل السرياني تتركز حول تحليل المصادر تحليلا نقدياً فكانت التساؤلات التالية: ممن وممّ تشكلت مصادر المعلومات التي استند إليها مار ميخائيل في كل جزء من أجزاء **تاريخ مار ميخائيل الكبير السرياني**؟ إلى أي درجة كان صادقاً في اتباعه القصص والتأريخات الأولى؟ إلى أي مدى تعامل مع المصادر بشكل نقدي؟ وأخيراً كيفية تبيين المواضع التي لا تتوافق مع الترتيب الزمني الصحيح لتسلسل الأحداث؟ ليس هدفي في هذه المقالة أن أدقق فيما إذا كان الشكل الذي أظهر فيه مار ميخائيل ثيودورا صحيحاً من الناحية

التاريخية. بل أنا مهتمة برواية مار ميخائيل كما هي؛ لأن رواية قصة ثيودورا على هذا الشكل إنما يعرض تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية السريانية بشكل جديد تماماً. فقد قدمت ذكرى ثيودورا لمار ميخائيل وسيلة لتذكر المجتمع السرياني الأرثوذكسي حين بدأ يبرز ضمن تقليد كنسي خاص به، ولإعادة تقويم انفصال الكنيسة الأرثوذكسية، ولإعادة تصور مأساة بل تجربة تاريخية بطولية وفقاً لاعتبارات تثبت ما آل إليه التاريخ أيام مار ميخائيل، عندما انفصلت الكنائس انفصالاً، يبدو أن لا رجوع عنه. من خلال ما وصلنا من روايات مختلفة عن ثيودورا، نلاحظ أنه يجري التداول من جديد في أمر التاريخ المتنازع عليه، للكنائس الأرثوذكسية الشرقية، لكن البحث يتركز حول ما يعنيه هذا التاريخ في التقليد الأرثوذكسي السرياني.

بمجرد أن يكون علم التأريخ المسيحي لجأ إلى فكرة الخيانة الجنسية كدليل على الهرطقة (أو الخيانة اللاهوتية)، فإن اللجوء أيضاً إلى الطهارة الجنسية، وخاصة إذا ما تمثلت في شخصية امرأة، دلالة كبيرة على الاستقامة الدينية. إن طريقة تقديم ثيودورا في رواية بروكوبيوس أو رواية مار ميخائيل السرياني تتبع منهجية بلاغية تجعل من شخصها مقياساً للذين ارتبطت بهم سواء أكان يوستينيانوس (عند بروكوبيوس) أم الكنيسة السريانية الأرثوذكسية (عند مار ميخائيل). في كلتا الروايتين، أصبحت هوية ثيودورا وخاصة هويتها الجنسية، مرآة لاستقامة مجتمعها. حيث غدا جسدها يمثل المجموعة أو (الجسم) الذي يتألف منه كل من تربطه بها علاقة، أي العائلة، والزوج، والأصدقاء والكنيسة. في رواية بروكوبيوس، تظهر ثيودورا على أنها خائنة وتفتقد للأخلاق تماماً كحكم زوجها، بينما تظهر عند مار ميخائيل على أنها طاهرة وبريئة تماماً كالكنيسة التي لم تدنسها الهرطقة. في كلتا الروايتين، شكل وصف شخصيتها، الذي أعطي بوضوح طابعاً أنثوياً (وجنسياً) مفهوماً أخلاقياً يعكس بكل وضوح موقف الكاتب منها.

ولكي نفهم أكثر ما الذي فعله مار ميخائيل في تقديمه لثيودورا، علينا أن ننظر في المصادر التي استقى منها، بالإضافة إلى الشواهد التأريخية السريانية التي تعود إلى ما بين القرنين السادس والثاني عشر. ما هو الوصف الذي تناقلته الروايات التأريخية السريانية عن شخصية ثيودورا؟ هل كان نقد بروكوبيوس لها فعالاً في الذاكرة التاريخية للشرق؟ ولماذا كانت ذكرى ثيودورا قابلة للتحوير إلى درجة خلق تاريخ جديد، تاريخ مختلف، أو بالأحرى نوعية مختلفة للذاكرة التاريخية الأرثوذكسية السريانية؟

## 2) المصادر السريانية:

بالطبع، يجب أن أبدأ بالوصف المعقد الذي قدمه يوحنا الأفسسي الكاتب الذي عاش في القرن السادس. ولد يوحنا في بداية القرن السادس في بلاد ما بين النهرين، وتربى في دير مار يوحنا الأورطي قرب مدينة آمد (ديار بكر). تعرض في بداية شبابه للاضطهاد الذي استهدف السريان الأرثوذكس، والذي بدأ في عام (519 م) بقيادة الإمبراطور يوستين الأول. خلال رحلاته في المنفى رسم يوحنا شماساً ثم كاهناً في الكنيسة الأرثوذكسية التي كانت تسعى للاستقرار ككنيسة منفصلة عن السلطات الكنسية التي اتبعت مجمع خلقيدون. وكالعديد من اللاجئين الهاربين من الاضطهاد، وصل يوحنا أخيراً إلى القسطنطينية حوالي عام (540 م). كانت ثيودورا قد حولت قصر هُرميسدَس إلى مجمع ضخم من الأديرة لإيواء الرهبان ورجال الدين الذين تم نفيهم من أراضيهم لأنهم رفضوا الخضوع للإرادة الإمبراطورية المطالبة بالوفاء لمجمع خلقيدون. إضافة إلى ذلك، دعمت الأديرة الأخرى. كانت القسطنطينية أهم مكان اجتمع فيه المعارضون لمجمع خلقيدون لأن يوستينيانوس استمر في دعمه للنقاشات والجدل اللاهوتي بين رؤساء الكنائس المنفصلة، كما سعى إلى حل سلمي، وإن لم يكن هناك من إمكانية فعلية للتوصل إلى حل وسط. نتيجة وجود

ثيودورا وحرصها، استطاع المجتمع الأرثوذكسي الشرقي أن يمارس شعائره، بل أيضاً أن يصقل منطقه اللاهوتي فيما استمر في العمل على أمل أن يحكّم يوستينيانوس رأيه ويغير سياساته.

أصبح يوحنا زعيماً بين مجموعة المنفيين في القسطنطينية، وخدم كرئيس دير في العديد من الأديرة التي تعتمد اللغة السريانية، كما كان ناطقاً باسم جماعته أمام البلاط الإمبراطوري. ثم أصبح مقرباً من ثيودورا ويوستنيانوس على حد سواء نتيجة زياراته المتكررة للقصر الإمبراطوري. في عام (542 م) ولسبب غامض، وقع اختيار يوستينيانوس عليه ليتولى وبرعاية إمبراطورية حملة لهداية الوثنيين والهراطقة في آسيا الوسطى. لقد كان يوحنا مبشراً متحمساً، لكنه بالتأكيد لم يكن يحمل لواء المذهب المرتكز على مجمع خلقيدون في عمله التبشيري. قاد يوحنا حملات تبشير ناجحة في المقاطعات الرومانية في آسيا وأقاليم ليديا وكاريا وفريجيا ثم عاد بعد ذلك إلى القسطنطينية حيث استقر حتى نهاية حياته العملية حوالي عام (558 م) رسمه البطريرك يعقوب أسقفاً صورياً على أفسس (فهو على ما يبدو لم يقطن هذا المكان أبداً). عمل يوحنا بجد حتى موته في حوالي عام (589 م) فلم تهن عزيمته في البحث عن الوحدة بين الأرثوذكس الشرقيين المنكوبين، ومحاولة إقناع يوستينيانوس ومن ثم خلفه يوستين الثاني في البحث عن مصالحة حقيقية مع مناوئي مجمع خلقيدون.

خلال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة، كتب يوحنا: **حياة القديسين الشرقيين** وهذا الكتاب مجموعة سير لثمانية وخمسين من الرجال والنساء الأتقياء الذين التقاهم، أو عرفهم معرفة جيدة، خلال أسفاره؛ كما كتب كتاباً شاملاً في ثلاثة أجزاء عنوانه: **التاريخ الكنسي** (ألف الجزء الأخير بينما كان مسجوناً في عهد يوستين الثاني، وسرب الكتاب من السجن على دفعات). نجد في هذين الكتابين الكثير من المعلومات التي تتناول يوستينيانوس وثيودورا، وقد اعتمدهما المؤرخون الذين

جاءوا فيما بعد، بمن فيهم مار ميخائيل السرياني، وتأتي هذه المعلومات على شكل معاينات للتصرفات المألوفة والأحداث داخل المدينة الإمبراطورية وبشكل خاص في كتابه: سِيَر. لم يركز يوحنا اهتمامه على ثيودورا ويوستنيانوس، وفي الفصول المخصصة للنساك الزاهدين الذين اجتمعوا هناك، لكنه أدخلهما في هذه الفصول تماماً كما كانا يدخلان قصر هورميزدا حيث سكن المنفيون؛ إذ كانوا كثيراً ما يظهرون بين المنفيين، وقلما يتفاعلون معهم بشكل مستمر، هكذا، يظهر الإمبراطور والإمبراطورة عند يوحنا في عدة أماكن، لكن كما يظهر ممثلان معروفان في دور بسيط. إذ يستمر يوحنا في التركيز على أشخاص آخرين. وبالتالي فإن الإمبراطور والإمبراطورة لا يظهران إلا في خلفية الرواية، ويكون ظهورهما مرتبطاً بالقديسين الذين كرس لهما الزوجان نفسيهما، تماماً كما فعل يوحنا.

أما فيما يخص ثيودورا فقد قدمها يوحنا تقديماً أدبياً معقداً وحسب روايته يقول إن ثيودورا توسطت لدى يوستنيانوس لصالح الذين كانوا ضحايا سياسة الاضطهاد الجديدة الموجهة ضد من رفض مجمع خلقيدون، كان ذلك قبل اعتلائهما العرش بفترة طويلة. في روايته حول الرفيقين، تومار وإستيفانوس، مرافقي أسقف مار مارون العمودي يقول إنه عندما بدأ الاضطهاد في عام (819 م) أرسل إستيفانوس إلى القسطنطينية ليرفع التماساً نيابةً عن الأسقف الذي كان منفاه في البتراء قاسياً للغاية. ولما وصل إستيفانوس عاصمة الإمبراطورية، وجد نفسه يتوجه إلى ثيودورا ابنة الماخور،[10] لكن التي كانت آنذاك شريفة رومانية ثم غدت إمبراطورة إلى جانب الإمبراطور يوستينيانوس. وبسبب تعاطفها السريع مع المضطهدين آنذاك، توسلت إلى زوجها، الذي كان قائد الجند،[11] كي يتوسط لدى عمه يوستين الأول للرأفة بالأسقف المنفي، حتى إنها توسلت إليه بالدموع. لاقى هذا الالتماس قبولاً، واستطاع الأسقف المنفي أن ينتقل إلى مصر برفقة رعيته. كان ذلك مثالاً مهماً أكدت من خلاله ثيودورا نيتها الصادقة للعمل

من أجل معارضي مجمع خليقيدون. وبالفعل، تجددت علاقتها باستيفانوس في السنوات التالية؛ أولاً، عقب موت الأسقف، عندما عاد إستيفانوس إليها طالباً الإذن بدفن الأسقف في وطنه الأم. كانت ثيودورا آنذاك إمبراطورة، فأمرت في الحال بتأمين سلامة الطرق وإقامة مراسم الجنازة في موطن الأسقف. فيما بعد، أرسلت إلى إستيفانوس رسالة شخصية تدعوه فيها جدياً للمجيء إلى العاصمة كي يكون إلى جانبها في القصر، لأنه يتمتع بالذكاء والبلاغة، إلى جانب كونه متحدثاً لبقاً. وفوق ذلك كله، لأنه عاش حياة طاهرة. وأيضاً لتنسكه. قبل إستيفانوس الدعوة واعتذر لصاحبه تومار مبرراً أنه قبل الذهاب كي لا يخيب ظن هذه المرأة. أقام إستيفانوس لفترة بين المجموعة التي استطاعت أن تستضيفها في القسطنطينية.

لقد حولت ثيودورا عار المنفى إلى تجربة جديرة بالثناء والتمجيد شهدتها كمسيحية. هذه هي الصورة التي أظهرها بها يوحنا. فهي لم تكتفِ بتوفير حياة آمنة للاجئين الذين اجتمعوا في المدينة الإمبراطورية، بل أيضاً، عملت بنشاط على تعزيز مجتمع أرثوذكسي تقي. لذلك، لم يقتصر نشاطها على استقبال المنفّيين الوافدين إلى المدينة، بل إنها كانت تبحث عنهم، وقد أحضرت شخصياً عدداً من كبار علماء اللاهوت، ورؤساء الكنائس، والرهبان الموقرين، والنساك المعروفين، والمستشارين الروحيين الحكماء. يعطينا يوحنا انطباعاً بأن ثيودورا جعلت قضاتها يدققون البحث في كل المقاطعات ليطلعوها أولاً بأول عمن اشتهر بتقواه، ونشره التعاليم الدينية، وكونه مثالاً لورع النساك. يريد بذلك يوحنا الإشارة إلى أن معظم المؤمنين الذين وصلوا إلى المدينة الإمبراطورية كانت شهرتهم قد سبقتهم إلى الإمبراطورة، وإلى أنها استقبلتهم كضيوف تتشرف الدولة بهم لا كمنفيّن معدومين. وقد خصصت بالضيافة رؤساء الكهنة وكرمتهم تكريماً يليق بمركزهم كرجال دين، وإن كان عليها أحياناً أن تكتم أماكن إقامتهم.

لكن، لاحظ كيف عرض يوحنا تطور هذه الناحية من العلاقات الوطيدة

والرعاية الإمبراطورية. في هذه الرواية التي تدور حول إستيفانوس، أشار يوحنا بوضوح إلى ماضي ثيودورا كغانية، لكنه لم يركز على هذه النقطة، ولم يتوسع في الحديث عنها ولا قدم تعليقات وأحكام عليها (نتذكر هنا الرأي الآخر حول ثيودورا، وبالطبع بروكوبيوس، الذي كانت لديه متعة خاصة في أن يصور بالتفصيل الممل شهوات ثيودورا المختلفة، ومواهبها، وطيش الشباب الذي انجرفت إليه في بداية حياتها) . وبدلاً من التركيز على هذه الناحية، افترض يوحنا أن ماضيها هو أمر معروف، لكنه لا يلوث أبداً نزاهة التقوى التي عرفت بها بعد ذلك. لا بل إن ثيودورا، ولكونها زوجة يوستنيانوس المقيمة في القسطنطينية والتي تحتل مركز الشريفة، كانت معروفة لدى معارضي مجمع خلقيدون على أنها صديقة وفية لهم.

في الواقع، لأن حجم الرعاية التي قدمتها ثيودورا للأرثوذكسيين الشرقيين أصبحت واضحة في روايات يوحنا، وفي ما اعتمده من شواهد (في العديد من المصادر اليونانية والسريانية التي تعود إلى القرن السادس) على أعمالها الخيرية واسعة النطاق والتي قامت بها مع يوستينيانوس خلال حكمهما، فإننا نرى بوضوح إلى أي مدى استطاعت ثيودورا أن تمثل في عصرها القدرة على التغيير. من خلال هذا المنظور لم يعد لماضيها السيئ أي أهمية سوى أنه مقياس يحدد مدى تعمقها بالمسيحية. بالتالي، فإن الماضي الذي يلجأ إليه أعداؤها (أمثال بروكوبيوس) للحط من شأنها كإمبراطورة، ومن خلاله للتشنيع على حكم يوستينيانوس، يلجأ إليه أنصارها كدليل قوي على عمق إيمانها: إن تغيرت فيعني هذا أنها تابت توبة نصوحاً، عاشت بعدها حياة مفعمة بالإيمان (لقد كان هذا النوع من العظات الدينية ومن سير المؤمنين شائعاً ومحبباً في ذلك الوقت).

يقدم يوحنا نشاطات ثيودورا من أجل الأرثوذكس الشرقيين كأفعال تدل على ورعها، وكبرهان على سلطتها الإمبراطورية، لأنها مارست سلطتها كإمبراطورة بحكم شخصيتها المستقلة، ولم يكن الأمر بحكم ارتباطها

بزوجها. يخبرنا يوحنا أنها عندما تلقت التماساً من سمعان، توسطت بكل رحابة صدر لدى ملكة الفرس لصالح المجتمع الأرثوذكسي الذي كان يعيش نوعاً ما في عدم استقرار في ظل الحكم الفارسي. وعندما قدم لها ملك العرب، حارث بن جبلة التماساً يخبرها فيه عن نقص في الكهنة الأرثوذكس في الأراضي الشرقية التي كانت نتيجة الخراب الذي ألحقته بها موجات الاضطهاد العنيفة، أمرت ثيودورا على الفور برسم يعقوب البرادعي وصاحبه ثيودور، وقدمت كل الوسائل التي من شأنها أن تسهل هذه المهمة كي يتمكنا من الخدمة كأساقفة حتى يسد النقص في رجال الدين وفي السلطات الكنسية للمجتمعات الشرقية برجال رسموا على المذهب الأرثوذكسي الشرقي. يخبرنا يوحنا أن إيمانها ترجم بنشاطات عملية خلال فترة الاضطهاد أدارتها وشجعتها ثيودورا الملكة المؤمنة. يحدد يوحنا هذه النشاطات من خلال المستشفيات، والمؤسسات الخيرية التي أسستها هذه الأخيرة، كما ذكر كل المراسم الاحتفالية التي رافقت كل نشاط لها ورعته.

نجح يوحنا في عرض هذه المآثر، على أنها أعمال قامت بها الإمبراطورة على أكمل وجه كبرهان على امتيازاتها بحكم موقعها، دون أن تتعدى بذلك حدود المسموح به. لكن هذا التقديم الدقيق لثيودورا لم يتوافق مع ما كتبه الذين عاصروا يوحنا، وبروكوبيوس واحد منهم. لقد رأى هذا الأخير أن أعمال ثيودورا تخطت حدود اللياقة والأدب. لم يقتصر موقفه الناقد لهذا الأمر على كتاب نوادر؛ ففي روايته حول الحرب مع الفرس، وصف بروكوبيوس نتائج (التعرض لغضبها). تؤكد هذه الصورة، مصادر مؤيدة لثيودورا. من الواضح أن ما رواه بروكوبيوس حول ثورة نيكا التي قامت في عام (532 م) والحدث المشهور الذي تخلل هذه الرواية، عندما تكلمت ثيودورا أمام مجلس الشيوخ، لم يُكتب نتيجة إعجاب بأعمالها. لا بل أن هذه الصورة غير الاعتيادية لامرأة تخطب .أمام أعلى محفل سياسي في الإمبراطورية، تعطي صورة مشوهة عن شخصيتها القوية، وفي الوقت نفسه

تظهر يوستينيانوس على أنه ضعيف الشخصية. حتى مؤيدو ثيودورا شعروا بالانزعاج الذي شعر به بروكوبيوس حيال هذا الموضوع. فمار سويريوس الأنطاكي، المشهور على أنه كاتب الملكة، حتى عندما لا يكون في القسطنطينية، ثار غضبه بسبب ما رآه من تدخل للملكة في الشؤون اللاهوتية التي لا تعرفها معرفة عميقة. بالطبع كان حجم نشاطها لصالح الأرثوذكس الشرقيين مذهلاً، لكن ليس إلى حد أن يضعها في مواجهة مع يوستينيانوس. إلاّ أن رعايتها للأرثوذكس الشرقيين لم تضع حداً للاضطهاد، ولا مكنت البطاركة المنفيين من التحرك بحرية. فقصر هورميزدا كان في الواقع سجناً على شكل بيت للاجئين. يرى بعض الباحثون، أن ثيودورا أحاطت برعايتها الأرثوذكس الشرقيين، وذلك دلالة على تعاطف ثيودورا الصادق مع ما يهدف إليه يوستينيانوس من وئام بين الكنائس، وإن لم تكن توافقه على الأساليب ولا على رؤاه اللاهوتية.

قدم يوحنا شخصية ثيودورا الإمبراطورة بطريقة مختلفة. أعني بذلك أنه حتى عندما أشار إلى صداقته المميزة للإمبراطور والإمبراطورة، وحتى عندما عرض نشاطات ثيودورا الخيرية. ظل وصفه لهذه الشخصية الغامة رسمياً، محترماً، يليق بمركزها كإمبراطورة. لاحظ هنا ما قاله في المقابل بروكوبيوس، الذي ادعى أنه قدم في نوادر الشخصية الحقيقية لثيودورا، تماماً كما تظهر في حياتها الشخصية، فكتب عن شهواتها وعاداتها في الحياة التي لا يعرفها أحد، وصداقاتها، والمصادر لأعمالها الخفية، وتدخلها في الحياة الخاصة (والجنسية) لمن حولها، وتفاهة اهتماماتها مقارنةً بأهمية شؤون الدولة.

تقديراً للاحترام الكبير الذي قدمه يوحنا لثيودورا، اخترت مثلين مما كتبه يوحنا حول صدام مباشر حصل بين الإمبراطور والإمبراطورة من جهة ورجال دين وقفوا ضدهما من جهة أخرى.

جرت المواجهة الأولى حين أجبر زعورا العمودي على النزول عن عموده إلى يد مضطهدين خلقيدونيين رحلوا إلى القسطنطينية في ثورة غاضبة من التقوى ليرفضوا الظلم وكفر السياسات الإمبراطورية.

فاستقبله يوستينيانوس استقبالاً حاشداً بحضور أساقفة وشيوخ، في محاولةٍ منه في التخفيف من حدة الغضب الناتجة عن وصول رجال الدين السريان إلى المدينة، لم يتأثر زعورا، بل وبخ يوستينيانوس بقسوة في خطاب صريح وفظ،[12] وأعطاه درساً في الدين. يروي يوحنا، أن يوستينيانوس هو الذي فقد السيطرة على نفسه، إذ انتابته نوبة غضب وعلا صوته بالقدح والشتائم، بينما ذهب زعورا دون أن تمس كرامته. وأصيب يوستينيانوس بمرض شديد. وما لبث أن أصبح غير أهل للحكم بسبب الهذيان. وعلى الفور تصرفت ثيودورا، التي كانت على درجة من الذكاء، فأخفت الإمبراطور، وأرسلت في طلب زعورا متوسلة إليه المجيء العاجل كي يصلي من أجل يوستينيانوس، ليشفى ويحل عليه السلام في الكنيسة. استجاب زعورا لطلب الإمبراطورة وشفي يوستينيانوس، لكنه وقف في القسطنطينية موقف الكاهن العدائي. فلم يكن أكثر دبلوماسية في المدينة مما كان عليه في القصر، وسبّب العمودي الكثير من المشاكل، فأجبرت في النهاية ثيودورا على نقله من القسطنطينية إلى أماكن أكثر أماناً في ثراقيا كي تتفادى الشعب. في هذه الأثناء، أخذ يوستينيانوس يتصرف في خوف من رجل الدين هذا، فقلل من عنف الاضطهاد، لكنه في النهاية لم يغير سياسته. في هذه الرواية، نرى قوة شخصية ثيودورا وإصرارها من خلال تقواها الصادقة وورعها، فتظهر عندها قوة الإرادة على أنها قوة الإيمان الصحيح. في المقابل، يظهر يوستينيانوس على أنه شخصية متقلبة، ضعيفة الإرادة وغير عقلانية، لكن حتى في هذه النقطة تعاطف يوحنا مع يوستينيانوس عندما وصف شخصيته، فأظهره على أنه في السياسات التي يتبعها سجين مكتبه الإمبراطوري الخاص إلى حد بعيد.

عرض يوحنا الصدام الذي حصل مع زعورا وكأنه تأكيد صادق لتفوّق سلطة هذا الأخير روحياً وأخلاقياً في علاقته بالعرش الإمبراطوري. رأى يوحنا أن ثيودورا اعترفت بهذه السلطة كما يجدر بها، بينما أخطأ يوستينيانوس عندما رفض الاعتراف بمصدر هذه السلطة: تفاني زعورا الكامل لله. إلا أن يوحنا وجد صعوبة أكبر في تقبل ما جرى في الحادثة الثانية، عندما تهجم رجل الدين[13] على البلاط الإمبراطوري بعد إبعاده عن أراضي آمد خلال فترة الاضطهاد. كان الأسقف أقل حنكة وترفعاً من زعورا في تصرفاته، إذ أثار غضب البلاط وشتم يوستينيانوس وثيودورا بشتائم عنيفة لدرجة أن يوحنا لم يقوَ على وصف الصدام لأنه يخجل أن يكتب عن حادثة مماثلة تعرض لها الإمبراطور والإمبراطورة. هنا يشعر القارئ فعلياً بتفاني يوحنا من أجل يوستينيانوس وثيودورا، تفانياً أساسه الاحترام لمركزيهما والولاء لتقواهما الدينية. لقد عانى يوحنا تأنيب الضمير لأنه لم يشك أبداً في تقوى الأسقف ولا في قضيته المحقة، على الرغم من لجوء هذا الأخير إلى أسلوب رخيص في التعبير عنها. لذلك، كتب يوحنا مطولاً حول الرد المتواضع للإمبراطور وللإمبراطورة على الأسقف، وهذا بحد ذاته دليل على تقواهما، إذ تلقى الزوجان ما قاله الأسقف بكل تواضع ولم يكن ردهم قاسياً. لا بل إن يوستينيانوس، عرض خدماته على مجموعة الكهنة التي يرأسها الأسقف، في المدينة، وطلبت منه ثيودورا أن يلتحق بالمجموعة المقربة منها، والتي تسكن في قصرها، كي يقدم تعاليم روحية لصالحها. لكن الأسقف لم يحفل بهما، وأقام في صومعته وقام بنشاطاته بين الفقراء الذين يعيشون في الشوارع. في الحقيقة، لاحقته ثيودورا طويلاً في محاولات لجعله من أتباعها. من جهته، رفض الأسقف مثل هذه العروض لكونها ملطخة نوعاً ما بالفساد الدنيوي. وعندما مات هذا الأخير بعد معاناة مع المرض خلال فترة طاعون الدبلي الذي ضرب مدينة القسطنطينية في عام (542 م) أقام له

يوستينيانوس وثيودورا ـ حسب أقوال يوحنا ـ حفلاً تأبينياً عاماً على نفقتهما الخاصة.

لم يقدم يوحنا ثيودورا كشخصية عامة، لها نفوذ يتخطى حدود المعقول أو كإمبراطورة تتدخل في قضايا الحكم. بل قدمها دائماً على أنها إنسانة حافظت بشكل مثالي على كرامتها وتقواها، وقدمت القيادة الإمبراطورية على أنها تستحق بجدارة التأييد الكبير. وقد برهن من خلال ما جرى مع زعورا ومارِ الناسك إيمانها المثالي على خلاف يوستينيانوس المتقلب. عندما كان يوستينيانوس يغضب، كانت تهدئه بكل تواضع، طالبة منه أن يتقبل[14] رجال الدين وكأن كلامهم كلام الله. كما سعت كي تؤمن لهؤلاء الرهبان الوسائل الضرورية ليعاودوا ممارساتهم الرهبانية وتأسيس مجموعاتهم الكهنوتية من أجل المحتاجين، وأقامت إضافة إلى ذلك احتفالات عامة تكريماً لأعمالهم المقدسة. يقول يوحنا، إنها غالباً ما كانت تأخذ يوستينيانوس معها لزيارة (المجتمع المؤمن) المؤلف من النساك الأتقياء، للصلاة معهم والحصول على بركتهم. في الواقع، أظهرت ثيودورا على أنها مرشدة يوستينيانوس الروحية، وهذا الدور يبدد التناقض في كونهما ينتميان إلى مذهبين دينيين مختلفين. فبنظر يوحنا، لم يكن من اختلاف في الإيمان بين الإمبراطور والإمبراطورة، بل أنهما تشاركا في التقوى ذاته. لكن من وجهة نظره يكمن التناقض والاختلاف في شخصية يوستينيانوس، الإمبراطور الذي يجل بصدق الأرثوذكس الشرقيين لكنه في الوقت عينه يؤيد اضطهادهم.

### 3) تضارب الذكريات:

يبتعد يوحنا عن كل مصادر القرن السادس فيما قدمه حول مشاركة يوستينيانوس وثيودورا التقوى الدينية نفسها. بينما رأى بروكوبيوس في انتماء كل منهما إلى مذهب مختلف مؤامرة محسوبة كي (يفرقوا

ويسودوا). فضلاً عن ذلك اعتبر بروكوبيوس أن المعتقد الأرثوذكسي الشرقي ما هو إلاّ حيلة سياسية وقرار أخلاقي مناسب لإنسانة تتمتع بمثل هذه الشخصية الجديرة بالازدراء. يضيف مؤرخ خلقيدوني آخر عاش في أواخر القرن السادس واسمه إيفاغريُوس سكولاستِكوس، أنه ليس واضحاً ما إذا كان الزوجان قد اتفقا على سياستهما الدينية: «من خلال التفهم المتبادل أو لأن ذلك» يعبر عن مشاعرهما الحقيقية.

إلاّ أنه، في النص نفسه مدح كثيراً لطافة ثيودورا وسخاءها تجاه جميع رعاياها. في الواقع، يتفق هذا المؤرخ ومؤرخون آخرونْ أكثر تعاطفاً مع ثيودورا والخطيب يوحنا ملالاس[15] الذي كتب باسم زكريا الفصيح ويوحنا النيقوي[16] على رأي يقول بأن ثيودورا كانت ضمير يوستينيانوس. مع ذلك، قدم كل هؤلاء الكتاب - باستثناء يوحنا النيقوي - ثيودورا على أنها إمبراطورة سعت وراء مهمات لا تناسب امرأة، وإنها مارستها بأنانية وبملء إرادتها. إن وصف يوحنا شخصية ثيودورا بأسلوب أدبي مميز وتركيزه على ورعها في ممارسة الدين بشكل يومي وعلى وقارها التقي كان وصفاً لإمبراطورة لا يمكن التشكيك أبداً في استقامتها. هكذا، وفقاً لمنطق الوصف الذي أعطاه يوحنا فإن ثيودورا لم تعارض سياسة زوجها ولم تسىء استعمال سلطاتها لأنها مستقيمة في حياتها.

يتذكر المؤرخون السريان الذين جاءوا بعد ذلك ثيودورا على أنها حامية المؤمنين في زمن يفتقد التقوى. لكن هذه التأريخات تغاضت عن العلاقة المتينة التي جمعت يوستينيانوس وثيودورا كإمبراطور وإمبراطورة وكأناس أتقياء ورعين. فلم تذكر **حوليات يعقوب الرهاوي** سوى موت ثيودورا بينما ورد في حوليات عام (819 م) ما يلي: في السنة التي ماتت خلالها ثيودورا، بدأ يوستينيانوس باضطهاد المسيحيين المعارضين لمجمع خلقيدون. بقي كتاب حوليات زغنين لديونيسوس التلمحري كما هو في القرن التاسع وكذلك أجزاء من كتاب التاريخ الكنسي ليوحنا الأفسسي، خصوصاً رواية

يوحنا حول الاضطهاد الذي تعرض له الأرثوذكس الشرقيون ورعاية ثيودورا لهم في غمرة هذه الحالة. لكن هذه الحوليات وضعت في طور تطور علم التأريخ الذي لم يعد آنذاك مرتبطاً بالمؤرخين اليونان الخلقيدونيين في الإمبراطورية البيزنطية، بالتالي لم يبقَ فيها أثر للمصادر اليونانية المتعلقة بيوستينيانوس وثيودورا. بينما كتب يوحنا الأفسسي وبروكوبيوس حول هذه الشخصيات في فترة كثر فيها الجدل العنيف بين من انتقد يوستينيانوس وثيودورا ومن أيدهما، فكان كل من الطرفين يصور الحكم استناداً إلى موقفه. بالتالي، وردت الروايات حولهما في سياق اختلفت تفسيراته وتعارضت فيه الولاءات. إن هذا السياق الذي صور بأشكال مختلفة يفتقد إلى التأريخات السريانية التي تعود إلى القرون الوسطى والمتعلقة بذكرى يوستينيانوس وثيودورا.

هكذا نصل إلى رواية مار ميخائيل السرياني. رغم اعتماد مار ميخائيل الكبير على يوحنا الأفسسي، إلاّ أنه لم يأتِ أبداً على ذكر طفولة ثيودورا سيئة السمعة. يعرض مار ميخائيل الأعمال التي قامت بها ثيودورا لصالح الأرثوذكس الشرقيين وكأنها دلالة على إخلاصها وليس كبرهان على قوة اهتدائها. فضلاً عن ذلك، يتجاهل مار ميخائيل وصف يوحنا لحياة التقوى التي تشارك فيها الزوجان وزياراتهما المستمرة (للقديسين المؤمنين). ويكرر مار ميخائيل بالتفصيل رواية الفصل الذي تحدث فيه يوحنا عن زعورا العامودي. إذا ما أخذنا هذا الفصل على حدة، من دون النظر في الفصول الأخرى، نجد أنه يؤكد الوصف الذي يصوغه مار ميخائيل بشكل موسع حول يوستينيانوس العنيد والذي يشوب شخصيته الكثير من النواقص، وثيودورا المخلصة الصادقة وبالتالي الإمبراطورة العاقلة، في الواقع، تظهر ثيودورا في رواية مار ميخائيل على أنها مقموعة ولكنها مثال للإمبراطورة الزوجة. يعود ذلك إلى أن مار ميخائيل تجاهل التفاصيل والروايات التي تصورها كشخصية لها تأثير كبير ومسيطرة كما نجد في مصادر القرن

السادس. يظهرها إذاً كأنها شبيهة بالكنيسة السريانية الأرثوذكسية ويقدمها لأبناء عصره بشكل خاص جداً. فيقول إنها كانت طفلة مؤمنة، ابنة كاهن مؤمن، إنسانة لا تعرف الضلال أبداً على الرغم من آثام زوجها. فأصبح أيضاً يوستينيانوس في رواية مار ميخائيل شبيه الكنيسة الخلقيدونية كما يراها هذا الأخير: قاسية، عنيدة، منغلقة على تعاليمها وفوق ذلك كله مضلة.

على ما أعتقد، عدّل مار ميخائيل وصف شخصيات يوستينيانوس وثيودورا في الكتاب التاسع من تأريخاته تماماً كما حصل للكنيسة الخلقيدونية والكنيسة الأرثوذكسية السريانية، فشكل لها هوية بعد فترة من انفصال الكنيستين في القرن السادس. لأن الزمن وحده يوضح الأمور ويسمح بتحديد الفوارق الدقيقة (و"الإثنية") للهوية الكنسية التي تنعكس في وصف مار ميخائيل.

إن مصادر القرن السادس التي اعتمدها مار ميخائيل هي مصادر اجتزئ منها السياق الجدلي، وتميزت بنبرة مختلفة عن تلك النبرة التي كانت قد كتبت بها، فتغير بالتالي المضمون. لقد صنع مار ميخائيل رسماً جديداً لثيودورا نتيجة الإضافات القليلة ولكن فائقة الأهمية التي أعطتها حقوقاً مكتسبة جديدة غيرت في النهاية صورتها. فلم تعد ثيودورا في هذا الوصف محض إنسانة يجلها الأرثوذكس السريانيون، بل أصبحت محسوبة عليهم، قديسة منهم ولهم.

# ماوية: ملكة العرب[1]

من بين عظيمات النساء اللواتي عرفتهن العصور القديمة ممّن لسن بحاجة إلى مقرظّين يروون قصصهن أو يتغنون بشجاعتهن، نذكر من هؤلاء النساء سميراميس وأرتيميزيا وكليوبترا وزنوبيا، فجميعهن كن ملكات تميزن بالسلطة والقوة والدهاء. وقد ماثلهن في الموهبة والإنجازات امرأة أخرى يبدو أنها لم تحظ كالأخريات بذرية تخلفها، على الرغم من أن مآثرها الجريئة كانت يوماً موضوعاً تداولته قصائد من الشعر معروفة. هذه القصائد، نظمها شعراء عرب قدماء في فترة يسميها المسلمون الجاهلية، أي عصر ما قبل الإسلام . وبطلة هذه القصائد كانت مناضلة عربية مسيحية. ولسنا بحاجة للتساؤل عن سبب اختفاء ذكر الشعراء الذين تغنوا بأمجادها بعد فترة وجيزة من انتصارات الرسول محمد. ولم يكن البيزنطيون أفضل من غيرهم في تكريمها، على الرغم من أنها وقومها قد أسدوا لهم خدمة جلّى بعد معركة أدرنة. مؤرخو كنيستها وحدهم هم الذين حفظوا ذكرها، علماً أن أحداً من المؤرخين لم يعتبرها جديرة بدراسة شاملة. إلا أن الملكة ماوية، ملكة العرب[2] على عهد الإمبراطور فالنس في القرن الرابع، تستحق الاهتمام، ليس فقط لشخصيتها، بل أيضاً لما تطلعنا عليه سيرتها حول الشعب الذي حكمته. ومع أن ماوية هذه لم تكن أقل أهمية من زنوبيا، إلا أنها لم تترك أية آثار مثيرة كهياكل تدمر تذكرنا بأمجادها، ذلك لأن قومها كانوا عرباً بداة.

أتمنى أن يقبل البروفيسور فيتينغوف[3] تاريخ ماوية كعربون تقدير، وأنا

أكرس نفسي لهذا الموضوع بشكل خاص، لأنني متلهف لتصحيح الخطأ الذي ارتكبته بحق ماوية منذ سنوات، حين أشرت إليها في مقالة حول أطراف بلاد العرب وسياسة البيزنطيين الأوائل حيالها. فقد كتبت، في إشارة إلى عواقب ثورتها ضد فالنس، أن اعتناقها في نهاية الأمر للآريوسية، والذي كان نتيجة لورع ناسك تقي اسمه موسى، هو قصة مألوفة لدى مؤرخي الكنيسة. وحددت عام (373 م) على أنه تاريخ هذا التغير، وتاريخ نهاية الثورة؛ لكن يبدو لي اليوم أن كل ذلك كان غلطاً.

دعوني أستعرض بعض الآراء التي تبدو لي أنها هي أيضاً تحتاج إلى تعديلات جذرية، لأن الملكة ماوية، في الإجمال، عانت الكثير على يد مؤرخيها. فيطالعنا كتاب بيغانيول،[4] أن ماوية قد غزت فلسطين والجزيرة العربية، فما كان من القائد الروماني فكتور إلا أن تزوج ابنتها لتحقيق السلام بينهما. في هذه الأثناء، حظي العرب بأسقف مصري. كما ورد في كتاب بيغانيول: كانت ماوية فتاة مسيحية جميلة أسرها العرب وجعلوا منها أمَة. أما في رواية **موسوعة باولي فيزوفا** فقد جاء ما يلي: كانت من أسرة رومانية، وأضحت، بسبب جمالها، زوج أحد شيوخ العرب. قادت ماوية عام (372 م) بعد وفاة زوجها، حملة مدمّرة على الأقاليم الشرقية، وتوصلت أخيراً إلى تحقيق سلام مشروط بحصولها على أسقف من اختيارها. يضيف أنسلين[5] أنها زوجت ابنتها فكتور، قائد أحد الجيوش الرومانية[6] ويعتقد أن اسمها مشتق من ماريا. أما جان روجيه[7] في مقدمة طبعته الممتازة لكتابه،[8] فيرجع الاسم السامي لماوية إلى معاوية، ويضيف القول: إنها كانت أمَة مسيحية تزوجها شيخ عربي وتسلمت المُلك بعد وفاته. ونص الفصل الخاص بماوية في سجل الأفراد[9] الذين عاشوا في الفترة الأخيرة للإمبراطورية الرومانية على أنها بعد وفاة زوجها، قد أصبحت ملكة، وشنت حرباً مظفّرة على الرومان في فلسطين وفينيقيا انتهت ما بين عامي (373 و378 م) تقريباً إلى صلح، بعد

أن زوجت ابنتها فكتور الرابع، وضمنت سيامة الناسك موسى أسقفاً لشعبها.

لنبدأ بالمصادر، بادئ ذي بدء، فقد ظهرت روايات حول ماوية في الفصل السادس من كتاب التاريخ الكنسي الحادي عشر لروفينيوس.[10] ثم وردت في كتاب التاريخ الكنسي لسقراط (4:36) معلومات روفينيوس نفسها وردت في صيغة أكثر تفصيلاً، ويمكن أن نضيف إلى معلومات سقراط روايات أكثر إسهاباً في كتابات سوزومينوس[11] التاريخية (6:38). أما ثيودوريت[12] فيقدم بأسلوبه المميز تقريراً مقتضباً عن إنجازات ماوية، يبدو واضحاً أنه مرتبط بشكل أو بآخر بالروايات الأخرى. كما كتب كل من ثيودوروس أناغنوستس[13] وثيوفانِس[14] وجورج الراهب عن ماوية، في عصور لاحقة، ما يشبه كتابات روفينيوس عنها. بالتالي، فمن الجليّ أن نصوص روفينيوس تستحق الأولوية في أي جهد لتصنيف هذه المصادر. إلا أن نصوص سقراط وسوزومينوس تتضمن تفاصيل مهمة وموثوق بها لم يشر إليها روفينيوس. إضافة إلى ذلك، ذكر المؤرخون البيزنطيون المتأخرون تفاصيل (أقل مصداقية من تلك التي أوردها سقراط وسوزومينوس) وغابت عن كل مؤرخي القرن الخامس.

قلما نستغرب إضافة الخيال إلى الموروث، أو بشكل آخر تحريف الحقائق مع مرور الزمن. لكن حتى في المراحل الأولى التي تم خلالها نقل مآثر ماوية، لا بدّ أنه قد توافرت معلومات أخرى أكثر مما بين أيدينا اليوم، فروايات سقراط تتضمن معلومات أكثر من روايات روفينيوس، بما في ذلك التاريخ الدقيق لثورة ماوية، والدليل الوحيد المذكور في الروايات على زواج ابنتها من ضابط يدعى فكتور. وفي ما يخص الثورة، نجد في كتابات سوزومينوس تفاصيل تفوق تلك التي أوردها سقراط. والسؤال يطرح نفسه عما إذا كان قد توافر لدى كل هؤلاء المؤرخين رواية شاملة حول ماوية. مع أن أحداً لم يتطرق إلى المشكلة الشائكة للمصادر الكنسية من خلال دراسة

ماوية في السابق، فإن أعمالاً جديدة حول طبيعة كتب التاريخ الأخيرة لروفينيوس، جاءت لحسن الحظ، في الموقع المناسب.

لقد وضع روفينيوس، كما ذكر هو نفسه، نهاية لترجمة **التاريخ الكنسي** لأوسيبيوس[15] في الكتاب التاسع من نصه اللاتيني. أما بالنسبة إلى الكتابين اللذين ختم بهما عمله، فقد اعتمد روفينيوس على ما استطاع التحقق منه عند الآخرين، بالإضافة إلى اعتماده على ذاكرته الخاصة: «في الحقيقة أنني سجلت الكتابين العاشر والحادي عشر اعتماداً على أحاديث الأولين، وكذلك من المعلومات التي حفظتها في ذاكرتي. بهذه الطريقة، استطاع روفينيوس أن يجمع في التاريخ الذي دونه ما بدأه بترجمة أوسيبيوس حتى موت ثيودوسيوس.[16] في الحقيقة أن ما يتضمنه الكتابان العاشر والحادي عشر لروفينيوس، يشابه إلى حد بعيد مجموعة نصوص يونانية تماثلهما في اللغة والمضمون، إلى درجة يمكن اعتبار الكتابين والنصوص اليونانية مصدراً واحداً. وهذا الأمر معروف منذ أمد بعيد. عندما نتوصل إلى تحديد المصدر، كما في كتاب سِنتَغْمَا[17] لغِلاسيوس السزيكي[18] يتبين لنا بوضوح أن كاتبها الأساسي هو أسقف من القرن الرابع يدعى أيضاً غيلاسيوس، وهو من قيسارية في فلسطين. كان فوتيوس[19] مطلعاً على الرأي القائل بأن تاريخ غيلاسيوس يتضمن الكثير من المعلومات التي غابت عن روفينيوس. لذا كان ممكناً لفريدهِلم فِنكِلمَن[20] أن يبرهن في دراسة ممتازة حول غيلاسيوس القيصري نشرت عام (1966 م) على أن روفينيوس لجأ في «الكتاب العاشر» إلى ترجمة وتلخيص مؤلفات غيلاسيوس اليونانية بعد انتهائه من ترجمة أوسيبيوس. بكل بساطة. يفسر روفينيوس سبب استخدامه بعض المراجع الشخصية التي لم ترد في التراث اليوناني، على أنه اعتمد أحياناً على ذاكرته الخاصة . يبدو أن ما تبقى من تقليد ماريوم والذي قال إنه استقى منه، ليس سوى التاريخ الكنسي الذي وضعه غيلاسيوس القيسري.

إلا أن فنكلمن لم يستطع أن يتحاشى مشكلة كانت قد واجهته في الكتاب الحادي عشر لروفينيوس، حيث ورد في الكتاب (4:11) تقرير حول زيارة قام بها إلى صحراء نِتْرِيا،[21] حيث يقال إن الرهبان في هذه المنطقة يمضون أوقاتهم مع الملائكة. وقد ورد ما يشابه هذا الكلام حرفياً في المأثور اليوناني. ولأنه يصعب التصديق بأن غيلاسيوس وروفينيوس كليهما قاما بالرحلة نفسها، استخلص فِنكِلمَن أن اعتماد روفينيوس على مؤرخ قيسارية، قد توقف عند هذه النقطة. ويبدو غريباً نوعاً ما الافتراض بأن هذا الاعتماد يجب أن يتوقف تماماً، حيث يواجه المرء التناقض الفعلي الأول (والوحيد). أما بالنسبة إلى الكتاب الحادي عشر، فيبدو أن فِنكِلمَن قد كشف جديداً في النسخة اليونانية، وبالتحديد ترجمة حرفية لملاحظات روفينيوس الخاصة، وبعبارة أخرى دليلاً على النقل من اللاتينية إلى اليونانية وليس العكس (على عكس الأدلة المتعلقة بالكتاب العاشر) والموروثات المتعلقة بماوية تدعم هذا البرهان.

وقد وردت رواية روفينيوس عن ماوية في الكتاب (11:6) ويمكن الاطلاع على الروايات الموازية لها في نص جورج الراهب وثيوفانِس.[22] أما النص اليوناني، فهو صيغة مختصرة للنص اللاتيني؛ لكنه إضافة إلى ذلك، يتضمن بعض المعلومات التي غابت عن الأخير. وحيث لاحظنا أن النص اليوناني يتداخل مع النص اللاتيني، فإن ذلك يدل على أنه ترجمة حرفية له دون أدنى شك. إلا أن التفاصيل التي لم يشملها النص اليوناني لم تغب عن مؤرخي أواخر القرن الخامس. في حين أن الأمر غير ذلك بالنسبة إلى التفاصيل التي أضيفت إلى النص اليوناني. هذا يعني أن ما ذكر هو اتهام خطير، وتلميح إلى أن الموروث البيزنطي يقوم على ترجمة مختصرة لروفينيوس، أضيف إليها أو بالأحرى، زينت ببعض الأخبار الخيالية بعد القرن الخامس. هذه النقطة هي أهم مما يمكن أن يتصوره المرء في بداية الأمر. إذ أن هذه الزيادات البيزنطية إنما هي تفاصيل مستحبة، كونها تدل

على أن ماوية كانت امرأة مسيحية من أصل روماني كان قد أسرها شيخ عربي وقع في حبها آنذاك.

قبل الاستغراق والتمعن أكثر فأكثر في ما يمكن أن نسميه قصة ماوية الأسطورية، علينا أولاً أن نستعرض المفاهيم الضمنية لدراسة فِنكِلمَن حول العلاقة بين التاريخ الكنسي الذي دونه غيلاسيوس وذلك الذي دونه روفينيوس. وتبرز هنا نقطة مهمة بوجه خاص، وهي أن التاريخ الذي كتبه غيلاسيوس، لم يكن محض ترجمة لكتابات روفينيوس، كما كان سائداً، بل على الأصح كان عملاً قام به منفرداً في أواخر القرن الرابع، كتكملة لما قام به أوسيبيوس الذي اعتمد عليه روفينيوس نفسه عندما ألف كتبه الأخيرة من **أحاديث الآباء الأولين**.[23] وبالتالي، علينا أن ننظر إلى مؤرخي التاريخ الكنسي في القرن الخامس، وبالتحديد إلى سقراط وسوزومينوس على أنهم مدينون بما لديهم من نقاط مشتركة مع روفينيوس، إلى غيلاسيوس. كما أن التفاصيل الإضافية التي حافظ عليها أحد هذين المؤرخين اليونانيين، وأحياناً كلاهما، يمكن اعتبارها أيضاً عائدة إلى غيلاسيوس. على أية حال، هذا هو التفسير الأكثر عقلانية للتشابه الحاصل بين مؤرخي الكنيسة في القرن الخامس على اختلافهم. إذاً، يمكن أن ينطبق الأمر ذاته على ثيودوريت، رغم أن أسلوبه الخاص جداً يجعل التشابه أقل وضوحاً. باختصار، من المنطقي الوثوق بالافتراض الذي يسلم جدلاً بأن ما ضاع من التاريخ الذي دونه غيلاسيوس القيصري قد تضمن رواية ماوية الكاملة التي انعكست بدرجات متفاوتة في أعمال المؤرخين المتخصصين بتاريخ الكنيسة الذين جاءوا بعده مباشرة.

إن أول ما أضيف من نسج الخيال إلى رواية ماوية الأصلية يتعلق بأصلها وبدايات حكمها. فكان ثيودورس أناغنوستس[24] السبّاق، على ما يبدو، إلى إضافة تفاصيل مهمة، في مطلع القرن السادس، إلى رواية غيلاسيوس ومن جاء بعده، حيث ذكر أن ماوية كانت مسيحية من أصل روماني،

وقعت في أسر ملك عربي أعجب بجمالها ثم خلفته مع مرور الزمن على عرش مملكته. وكان غنتَر كُرشْيان هَنْزِن،[25] وهو محقق معاصر لأعمال ثيودورس، كان هذا الأخير على حق عندما أدرك أن هذه الرواية قد أضافها ثيودوروس بينما تفترض الروايات الأولى بشكل واضح، أن ماوية كانت ملكة عربية من أصل عربي؛ حيث قال روفينيوس ذلك، وقال سقراط ومن بعده سوزومينوس إنها كانت زوج ملك توفي منذ فترة غير بعيدة. لسنا متأكدين مما إذا كانت الملكة ماوية مسيحية حينما قامت بثورتها، لكننا نفترض أنها وشعبها لم يكونوا مسيحيين. أما روفينيوس وسقراط فكانا غامضين بما فيه الكفاية حيال الرأي القائل بأن ماوية وقومها كانوا قد اعتنقوا المسيحية منذ أمد بعيد، بينما يلمح سوزومينوس أو يتبين من خلال مصدره، أن السبب الأول الذي جعل هؤلاء العرب يعتنقون المسيحية يعود إلى تسوية ثورتهم. ويضيف سوزومينس أن الثورة تشكل بداية المسيحية عند العرب، وأن موسى وهو المفضل لدى ماوية، كان أسقفهم الأول. من جهته، يعلن ثيودوريت أن ماوية قد استنارت بعد ثورتها على روما؛ مما يجعل الاحتمال وارداً جداً بأن ماوية كانت عربية الأصل، وثنية العبادة حتى عرفت موسى الناسك، وهذا مناقض تماماً للقصة التي أتى بها ثيودوروس. وعما إذا كانت ماوية جميلة أو لا، فهذه مسألة لا نمتلك عناصر الإجابة عنها، لكن الشواهد كلها تتفق على أنها كانت زوجة ملك عربي. وكزنوبيا التي سبقتها بقرن من الزمن، أصبحت ماوية ملكة بعد وفاة زوجها.

يجدر بنا التذكير في هذه المرحلة بأن النسخة اليونانية لكتاب روفينيوس الحادي عشر، كما هو محفوظ في النص الأخير الذي قدمه الراهب جورج، و هي نسخة قريبة في العديد من النقاط من النسخة اللاتينية، قد تضمنت الوقائع حول أصول ماوية الرومانية، وبداية نصرانيتها، وأسرها ومظاهر جمالها. وتتطابق إلى حد بعيد مع نسختي جورج اليونانية وثيودوروس. من هنا، لا يمكن أن نجد تدخلاً أكثر وضوحاً مما هو في نص روفينيوس المترجم.

بما أن بطولات ماوية في صباها قد أغفلت تماما في حوليات التاريخ، كما يسود الاعتقاد، فإنه لم يبق لدينا سوى إثبات شهادة لم يطعن أحد بصحتها، وهي أن ماوية أصبحت ملكة العرب بعد وفاة زوجها، وأنها ثارت مع شعبها ضد السلطات الإمبراطورية. لقد أصبح من الضروري الآن أن نطرح السؤال حول هوية قومها، وحول طبيعة علاقتها السابقة بالرومان. بعبارة أخرى، من هؤلاء الثوار؟ وما أهداف وتوجهات ثورتهم؟

تتفق كل المصادر على اعتبار ماوية وقومها عرباً، و كان يطلق عليهم في القرون الغابرة اسم (شكِنتِيه)[26] أي (عرب [يعيشون] تحت الخيم) وهو ما يؤكده بشكل قاطع بيانان واضحان لأميانوس مرسيللينوس (22:15،2) و(23:6،13). لذلك، يعتبر هذا المصطلح[27] الطريقة القديمة المتعارف عليها في الإشارة إلى العرب الرحّل. وبما أن حياة البداوة تتخذ أشكالاً متعددة، فمن الأرجح أن الكلمة تنطبق في الوقت عينه على الشعوب شبه البدوية وعلى الشعوب دائمة الترحال. لكنّ أصل الكلمة ما يزال موضوع جدال. إلا أن عالماً شاباً اسمه ديفيد غراف نشر مؤخراً مقالين مهمين أقنعاني شخصياً، إذ قدّم فيهما براهين ضد المزج بين الكلمة تلك[28] وكلمات ساميّة أخرى للدلالة على (الشرق) أو الخلط بينها وبين اسم مكان لا أهمية تذكر له يعرف باسم (سِراكا).[29] كانت ملاحظة غراف دقيقة عندما وجد أن في الكتابات المنقوشة على معبد في الروافة باللغتين النبطية واليونانية، والتي اطلع الناس عليها منذ بضع سنوات قد استعملت عبارة (ثمود شِركت) السامية للدلالة على اتحاد ثمود المعروف في اليونانية بصيغة «أمة، شعب، قوم ثمود». إن أهمية البدو السياسية في أواخر العصور القديمة نابعة بالتحديد من كونهم تجمعات واسعة، على الرغم من عدم تماسك قبائلهم؛ ويشكل اللخميون والغساسنة أفضل مثال على هذه القبائل. لذلك، يقترح ديفيد غراف أن التسمية المعتمدة لدى هؤلاء البدو للإشارة إلى هذه القبائل [شركت] أدت إلى بروز كلمة (سَرَسِن) الشائعة. أعتقد أنه أخيراً قد توصل

إلى حلّ اللغز القديم؛ ليس فقط لأن كلمة (سَرَسِن) ظهرت تماماً عندما تم الاتصال الأول بين أهم هذه القبائل والإمبراطورية البيزنطية الناشئة، بل أيضاً لأننا (في الواقع) لاحظنا أنه كلما أشار اليونان والرومان إلى العرب، كانوا يعنون بذلك التجمعات السياسية الكبيرة وليس فقط العرب الذين يعيشون تحت الخيام، بل التجمعات الضخمة لمثل هؤلاء العرب في نزل مركزي. من المؤكد أن النزل قد ينتقل من مكان إلى آخر، لكنه في كل الأحوال يظل يشكل مركز السلطة؛ وأشهر مثلين لهذا النوع مما يشبه البداوة في العصور القديمة المتأخرة، هما قبيلتا الغساسنة واللخميين. فمضارب الأولى كانت جَبَلَة في القرن السادس، ومضارب الثانية كانت في الحيرة، واسم المكان ذاته يعني المضارب.

يبدو أن ماوية خلفت زوجها على رأس اتحاد بدوي يشبه ذلك التي أتينا على ذكره. ومع أنها وزوجها عُرفا بالملك والملكة في المصادر اليونانية واللاتينية، إلا أنهما في الحقيقة كانا الأسلاف السياسيين المباشرين لشيوخ القبائل[30] الذين أتوا بعدهم في القرون اللاحقة. وقد تأكد مؤخراً، مع اكتشاف مخطوطات عربية جديدة، صحة ما توارثه العرب عن هجرات قبائل بدوية خرجت من شبه جزيرة العرب منذ زمن بعيد يعود إلى النصف الأول من القرن الثالث، في حين ظلت هذه الأقاويل، لفترة طويلة مشكوكاً بصحتها. أما اليوم فقد أصبحنا متأكدين تماماً من هجرة التنوخيين إلى خارج الجزيرة العربية تحت ضغوطات السلالة الساسانية الجديدة في فارس، وتنقلهم في جنوبي سورية، في منطقة حوران. تركت هذه القبائل آثارها من خلال نقوش بلغتين دلت على أن شيخها كان يدعى (باسيليُوس) باليونانية ومالك بالسامية. كانت اللغة السامية السائدة آنذاك في المنطقة هي اللغة النبطية التي عادت وبرزت في أوائل القرن الرابع من خلال النقوش الرائعة لملك عربي آخر يدعى امرأ القيس الملقب بملك كل العرب. وقد شن هذا القائد حملات واسعة النطاق وصلت به إلى أقصى الجنوب حتى نجران في

الجزيرة، وظلت ذكراه محفوظة في نص عربي دوّن بالأحرف النبطية، إذ كانت العربية لغة القبيلة المحكية.

إذا فكرنا ملياً بالوجود التنوخي في جنوبي سورية بدءاً من منتصف القرن الثالث، الذي يقابله في الوقت عينه وجود ملك واسع النفوذ كامرئ القيس في بداية القرن الرابع، سيتكون لدينا وجهة نظر أفضل بكثير مما كان في اعتقادنا عن العرب غير الرحل، الضاربين في المملكة المعادية في تدمر وعن ملكتهم زنوبيا. وقد سجل التأريخ الرسمي العربي نزاعات حصلت بين أحد الملوك التنوخيين وزنوبيا، ويزعم أن هذا الملك قد ساعد قوات أورليان في التغلب على ثورتها. حيث سجلت نقوش في حوران وجود هذا الملك جذيمة أو (جديمت) باللغة النبطية و(غديماثوس) في اليونانية. كان امرؤ القيس بشكل ما، خليفة لهذا الرجل الذي بلغت شهرته عند العرب شهرة زنوبيا عند الرومان. رغم أننا، وللأسف لا نثق بنص امرئ القيس المنقوش في ما يخص بعض النقاط البالغة الأهمية، إلا أننا ننظر إليه وإلى قومه من زاوية علاقاتهم الدبلوماسية بالإمبراطوريتين الفارسية والرومانية على حد سواء. قد نرى في ماوية خليفة لامرئ القيس وملكة على الشعب العربي القريب من البداوة في جنوب سورية، ثم في الجزيرة بعد زوال تدمر، وذلك استناداً إلى موقع عملياتها (المحاذي لحدود فلسطين ببلاد العرب) كما يقول روفينيوس. واستناداً إلى المعنى المحتمل لكلمة (سَرَسَن) التي أطلقتها المصادر اليونانية والرومانية على قومها.

بما أنه أصبح اليوم واضحاً لدينا أن الشعوب العربية، شبه البدوية قد شكلت وحدات سياسية أو كونفدراليات بدءاً بالثموديين تقريباً، أي في القرن الثاني، فإنه لم يعد مستغرباً، كما كان في السابق، أن نرى أدلة تشير إلى وجود، نوع من العلاقات الدبلوماسية القديمة بين القوى الأساسية في الأزمنة المتأخرة للعالم القديم، ونعني بذلك فارس وروما والقبائل البدوية. من هنا، يعود مفهوم العلاقات الدبلوماسية والتحالفات التي قامت في

القرنين الخامس والسادس (خاصةً) مع سيطرة الغساسنة واللخميين، إلى القرن الرابع وربما إلى القرن الثالث (مع جذيمة). لقد تحدث سقراط وسوزومينوس وثيودوريت بوضوح وبإجماع عن علاقات شعب ماوية بروما فقالوا إنها كانت (اتحادية).[31] ويضيف سوزومينوس، أن ثورة ماوية أدت إلى انتهاك هذه المعاهدة. فضلاً عن ذلك، فقد عاد السلام ليسود بين الطرفين، فأرسلت ماوية قوة لحماية القسطنطينية في عام (378 م). يعلق سقراط وسوزومينوس على ذلك بوضوح معتبرين أنها تصرفت بهذه الطريقة لأن العرب عادوا وجددوا المعاهدة. ثم بعد عدة سنوات، عندما نشبت الخلافات بين العرب، انتُهكت المعاهدة ثانية. ويشير باكاتُس[32] في خطابه سنة (389 م) إلى إخلال الثوار العرب بالمعاهدة.

كانت ماوية إذاً ملكة قبيلة من العرب شبه البدو كان أسلافهم قد انتقلوا إلى الصحراء وإلى مناطق جردية جنوبي سورية في القرن الثالث. ومن حوران، المنطقة شبه الدائمة لمضاربهم المركزية المتنقلة، شنوا حرباً ضد أقربائهم غير الرحّل في تدمر. وقبل ماوية وزوجها بجيلين، شهدت سيرة امرئ القيس على قوة هذا الشعب.

بالطبع، تنقلت شعوب أخرى في ذلك العصر سواء في الصحراء أم في البحر، وهددت استقرار المنطقة، وفي الواقع، كان ينتظر بعضها مستقبل باهر، كبني صالح. وفقاً لما أورده المؤرخون العرب، فقد أزاح بنو صالح التنوخيين بالإضافة إلى بني غسان، الذين عرفوا عند أميانوس،[33] والذين كان يقدر لهم الوصول إلى شأن عظيم في القرن السادس. لكن ماوية انقلبت ضد روما وأخلت بالمعاهدة التي عقدها العرب، بما أنها كانت القوة الأساسية على الحدود الصحراوية الشرقية، فكان على السلطات الرومانية أن تأخذ تصرفها هذا على محمل الجد.

ثم علينا أن نتساءل متى حصلت هذه الثورة؟ وإذا حرص سجل

الأشخاص[34] في الفترة المتأخرة للإمبراطورية الرومانية على عدم الوضوح في تأريخ الثورة، مؤرخاً إياها بين عامي (373 و378 م) فهذا يدل، على الأقل، على تعدد الآراء حيث تمكن الجميع من التعبير عن آرائهم. فيربط روفينيوس والمؤرخون اليونان الثورة بأسقفية لوقيوس،[35] الخليفة الآريوسي لأثناسيوس[36] في الإسكندرية. وسبب هذا الربط واضح، فقد رفض الناسك موسى الذي أرادته ماوية أسقفاً لشعبها، أن تتم سيامته على يد لوقيوس. نستنتج من ذلك أن لوقيوس كان في الإسكندرية. وبما أن أثناسيوس توفي في أيار من عام (373 م) فلا شك أن هذا الحدث المتعلق بموسى قد حصل قبل هذا التاريخ. لم يقدم روفينيوس أية أدلة زمنية أخرى على عكس المؤرخين اليونان في القرن الخامس، وهم يجمعون على ذلك في أقوالهم التي نفترض أنهم أخذوها عن غيلاسيوس. وتجدر الإشارة إلى أن ما قالوه لا يتناقض مع روفينيوس، بل يضيف إلى ما كتبه. وقد وجد هؤلاء.المؤرخون أن ثورة ماوية قد حصلت مع انسحاب فالنس من أنطاكية، أي في ربيع عام (378 م).

بالطبع، قامت ماوية بهذه الثورة ظناً منها أن حصانة الشرق قد ضعفت مع رحيل الإمبراطور. مما لا شك فيه، أنه في وقت لاحق من السنة ذاتها وبعد معركة أدرنة، تحالف العرب مرة أخرى مع الرومان وأرسلوا قوات إلى القسطنطينية. لذا لا يمكننا سوى الافتراض بأن حملة التهديم والنهب التي قامت بها ماوية ولقاءها موسى الناسك قد حصلا في السنة ذاتها، وليس ثمة ما يتعارض وهذا الافتراض.

في لمحة على المشاكل التي كان يواجهها فالنس في إقليم ثراقيا يصبح من السهل فهم لماذا كان هذا المحارب الآريوسي يتوق إلى إحلال السلام بشكل سريع، ولو كلفه ذلك الاعتراف بأسقف أرثوذكسي. وكما سنرى فإن كل المصادر واضحة بالنسبة إلى هاتين النقطتين. رغم ذلك، فمعظم الذين كتبوا عن ماوية يرجعون ثورتها إلى بداية سبعينيات القرن الرابع، ونهاية هذه

الثورة إلى بداية أسقفية لوقيوس، أي إلى سنة (373 م). يؤسفني القول إن هذا الموقف شديد الاستجابة لما دونه فالِسيُوس حول نص سقراط المتعلق بهذا الموضوع، والمحفوظ في الكتاب عظيم المنفعة: **مجمع تعاليم آباء الكنيسة** من تأليف مِين[37]. كان لدى فالِسيُوس انطباع بأن سقراط اعتمد في روايته على روفينيوس، وبالتالي فقد اعتبر أن تأريخ سقراط لا قيمة له، ولا يشكل سوى تفسير خاطئ لترتيب روفينيوس الزمني للأحداث: أولاً، لم يذكر روفينيوس شيئاً عن أي تاريخ، باستثناء الإشارة إلى لوقيوس في الإسكندرية. الأهم من ذلك، هو أنه لم يعد يجدي الاحتكام إلى روفينيوس في أمر من الأمور على أنه المصدر الرئيسي للمؤرخين اليونانيين في القرن الخامس، فكما رأينا، يمكن العودة إليهم للكشف عن معلومات إضافية كانت متوافرة لروفينيوس من خلال أعمال غيلاسيوس، إلا أنه لم يستغلها.

لذلك، فان حجة فالِسيُوس من خلال نقد المصادر لا قيمة لها، حتى أن حجته الثانية والداعمة هي أقل إقناعاً. فهو يرى وفقاً لما أورده سقراط أن ابنة ماوية تزوجت فكتور، قائد قوات الجنود الرومان الذي أصبح قائداً للخيالة بعد اتفاق السلام، وبالتالي، فيجب أن تؤرخ الثورة في أبعد تاريخ ممكن، وإلا فسيكون فكتور قد غدا عجوزاً ليفكر في الزواج. وبرأي فالِسيُوس كان فكتور بحلول عام (378 م) في عمر يمكنه من التفكير في الزواج. إلا أن فكتور لم يكن شاباً أيضاً عام (373 م) لأنه كان يخدم تحت قيادة قسطنطين الثاني. كما كان شخصية بارزة في حملة يوليان الشرقية. وفي اعتقاد فالِسيُوس أن استعداد فكتور للزواج ممكن أن يتغير جذرياً بين عامي (373 و 378 م) لأمر مثير للدهشة.

بالعودة إلى الاحتمال الذي يحدد تاريخ ثورة ماوية في ربيع عام (378 م) مع انسحاب والنس من أنطاكية. وصف سوزومينوس بشكل شامل هذا الاجتياح الكاسح الذي أحدثه السرسين، ولم تتعارض روايته تلك مع أية رواية أخرى. فقد احتشد العرب، وماوية على رأسهم، في كل الأراضي المسكونة

الممتدة من جنوب سورية حتى تخوم مصر، تماماً كما فعلت زنوبيا قبل ذلك بقرن. واستاء الرومان من هذا الاعتداء بشكل خاص، لأنه كان بقيادة امرأة. كان من الصعب اعتبار هذا التمرد حرباً، لأنه كما ذكر سوزومينوس كان بقيادة امرأة. أما ثيودوريت فذكر، بطريقة غير مباشرة، أن ماوية ربما لم تراع طبيعتها، إذ كانت تتصرف كالرجال. ثم أصبح الوضع أكثر خطورة، الأمر الذي اضطر الرومان للسعي إلى إيجاد حل سلمي للنزاع. (من المحتمل أن تكون الضغوطات البربرية في الشمال قد أثرت لصالح ماوية). في هذه المرحلة، وبإجماع كل المصادر، اشترطت ماوية مقابل السلام رسم الناسك موسى، الذي يقال إنه من أصل عربي، أسقفاً لشعبها. من الواضح أن غيلاسيوس هو الذي روى أن فالِنس شخصياً أعطى موافقته على هذا المطلب. كما أكد كل من روفينيوس، وسوزومينوس، وثيودوريت (وبوضوح) على أن تدخل فالِنس يشكل ما يمكن تسميته قراراً من السلطات العليا. فأبعد موسى عن عزلته وجيء به إلى الإسكندرية، حيث رفض رفضاً قاطعاً أن يرسمه لوقيوس الآريوسي. ودار حوار بينهما حول هذا الموضوع الذي شكل نواة قضية ماوية. لم تظهر أرثوذكسية موسى بوضوح من خلال تهجمه على لوقيوس فحسب، بل أيضاً لأنه أخذ من ثم إلى الأساقفة الأرثوذكس في المنفى (إلى مصر على الأرجح) ليقوموا بسيامته. وتجمع الروايات كلها على هذه النقطة، وروفينيوس أكد أرثوذكسية موسى عندما وصف أعمال الأسقف الجديد بالكلمات التالية: «استمر في عدم انتهاك العقيدة الأرثوذكسية». وشدد ثيودوريت على الفكرة نفسها عندما وظف التعبيرات نفسها عن أعمال موسى حيث تعني المفردة الموظفة الكاثوليكية أو الأرثوذكسية.

بالتأكيد، فإن هذا يدل على أن ماوية كانت أيضاً مسيحية أرثوذكسية، كما يدل على أن والنس، كان يتسامح عند الضرورة مع الأرثوذكسية على الرغم من تعصبه للآريوسية. أما بالنسبة إلى مذهب موسى، فنعتقد أن أحداً لم يكن على علم بديانة هذا الأسقف الذي اختارته ماوية، لأنه قدم في

بداية الأمر إلى لوقيوس ليقوم بسيامته. وإن لم يكن كذلك، فقد اكتشفت السلطات عاجلاً هذا الأمر وتسامحت معه كي تحافظ على السلام. ويعزز الناحية العقائدية لاستقرار الملكة زواج ابنتها من فكتور، الضابط المتميز، لأن هذا الأخير كان أرثوذكسياً متمسكاً بدينه في القرن الرابع. كان فكتور من أصل سرمَتي،[38] وقد شارك في مهمات واسعة النطاق في الشرق، كما كان من الذين لم يتدخل فالنس في معتقداتهم الدينية. ولا نستبعد أن يكون قد مارس دوراً فاعلاً في مقاومة الرومان لثورة ماوية في عام (378 م) وكان له دور في تنصر ماوية. ومما لا شك فيه، أن ظروفاً خاصة هي التي أدت إلى زواج يرفضه عادة أي عربي في مثل وضع ماوية. ولا مجال للاعتقاد بأن الرومان قد فرضوا هذا الزواج، لأن ماوية قامت هي بنفسها بوضع بنود السلام بعد انتصارات شعبها العسكرية، وعلى الأرجح أن أساس هذا الزواج المدهش، بين عسكري روماني طاعن في السن وابنة ملكة عربية مظفرة، هو العقيدة الدينية المشتركة. هذا القران مع ما يسمى (الأرستقراطية) البدوية المحلية يتوافق والسياسة الرومانية للأقاليم والحدود. لكن، أذكّر أن هذا الزواج لا يتوافق أبداً مع السياسة البدوية اليوم ولم يكن كذلك في ما مضى.

وكما لاحظنا سابقاً، فقد تجددت المعاهدة بعد انتهاء الحرب، هذه المعاهدة التي ربطت العرب ورومان بيزنطة. وربما أكثر تفاصيل تاريخ العرب في القرن الرابع شهرة، وبالطبع أكثرها فظاعة، هي تلك المتعلقة بالعون الذي أرسلته ماوية إلى القسطنطينية تطبيقاً لبنود التحالف. وقد أفاد سقراط (1:5) وسوزومينوس على حد سواء أن ماوية أرسلت العرب للدفاع عن المدينة ضد الغوط بعد معركة أدرنة، فكانت النتيجة أن انسحب هؤلاء البرابرة بسرعة حسب ما جاء عند أميانوس مرسيللينوس في نهاية كتاباته التاريخية (31:16، 5 ـ 6). وعلى الرغم من أن أميانوس لم يسم ماوية باسمها، إلا أنه وصف التأثير المذهل للقوات التي أرسلتها (فرقة من القوات

العربية). كان منظر العرب فريداً من نوعه، لم يشهد مثله من قبل، إذ كانوا شبه عراة، يغطي رؤوسهم شعر طويل وتتعالى من أفواههم صرخات مخيفة. وكانوا يرفعون خناجرهم ويخترقون صفوف الغوط، وكلما قتل عدو من الأعداء، وضع العربي شفتيه على حلقه وامتص دمه، فتراجع البرابرة. لا أستبعد أن تتضمن هذه الرواية بعض المبالغات، لكن يؤكد أميانوس ومؤرخو الكنيسة أن العرب ذهبوا إلى القسطنطينية، وهذا أمر لا مجال للتشكيك فيه.

إلا أن هذا التحالف الروماني العربي الذي كتب له نجاح كبير في عام (378 م) لم يدم لفترة طويلة بعد ذلك. وفي مديح ألقاه باكاتوس في عام (389 م) الذي كنا قد أشرنا إليه، عدّد هذا الأخير لثيودوسيوس العقوبات التي أنزلت بالعرب الثوار لخرقهم المعاهدة. وبما أنه قد ذكر ما ورد أعلاه في فترة ما بين هدنة ثيودوسيوس والغوط في عام (382 م) وبروز السفارة الفارسية في القسطنطينية في عام (384 م) مع إعلان ارتقاء شابور الثالث عرش فارس، فإن المحققين يشيرون إلى أن ثورة العرب المذكورة هنا، وقعت منطقياً في عام (383 م). بالطبع لن يشير باكاتوس إلى ثورة عام (378 م) فيما هو يتحدث إلى ثيودوسيوس عن أحداث جرت في عهده. والإشارة بوضوح إلى العرب الذين كانوا متحالفين معهم، إنما هي إشارة إلى قوم ماوية دون شك. وهذا آخر ما وردنا عن العرب وعن حكم ملكتهم المتميز. ونتيجة نقص المصادر البيزنطية التي يمكن الاعتماد عليها، فإن تأريخ عدة أجيال من القبائل الصحراوية يبقى غامضاً.

لكن عثر في جنوبي سورية على نقوش[39] تعود إلى عام (425 م) ويزعم محققا هذه النقوش[40] أن ماوية أخرى قد انحدرت من الملكة. هذه السيدة التي عاشت في عام (425 م) كانت قدوة في مزايا المرأة الفاضلة والورعة، إذ كانت مسؤولة عن بناء صرح القديس توما. إن اسم هذه المرأة التي عاشت في القرن الخامس، وإيمانها وصفاتها الحميدة يذكر

بالملكة، لكن أي ربط مع هذه الأخيرة يعتبر تسرعاً. فلم يكن اسم ماوية نادراً للغاية، كما أن المسيحية كانت تنتشر بين العرب في نهاية الربع الأول من القرن الخامس.

لقد أثارت هذه النقوش التي تعود إلى عام (425 م) تعليقات جديدة حول اسم ماوية وحول صيت هذه الملكة فيما بعد عند العرب. فهذا الاسم الذي يكتب في المصادر الكلاسيكية بأشكال متعددة، مثل ماوية وماويا ومايا وحتى ماوية، هو في الحقيقة (ماويّة) والاسم العربي لها ليس معاوية الذي هو اسم رجل.[41] إن ماويّة اسم عربي للنساء، شائع كثيراً، ويمكن العودة إليه في فهارس كتب معظم المؤرخين العرب. غير أنه ليس ثمة أية إشارة حتى الآن في الكتابات العربية الكلاسيكية إلى ملكة على عهد فالنس اسمها ماوية. وتحمل الاسم هذا عدد من الملكات لا تطابق أي منها الملكة المسيحية التي نعنيها. وبالطبع كما ذكرنا في البداية، ليس مدهشاً أن يكون المؤرخون المسلمون قد تجاهلوا مآثرها.

وسواء أظهر شبح ماوية، الملكة العربية، كتاب المغازي للواقدي أم لم يظهر فيه، يبقى أمر وجود هذه الملكة وأهمية هذا الوجود في عهد فالِنس مسألة مفروغاً منها.

يفيدنا حكم ماوية في فهم السياسة الرومانية والبيزنطية حيال الحدود الشرقية الصحراوية. كما أن المعاهدة التي عقدها قوم ماوية مع الروم وأُخِلَّ بها، ثم جددها وأخل بها ثانية، تشكل جزءاً من تاريخ جديد لم نتمكن من كتابته سوى مؤخراً، وهو حول الأحلاف العربية في القرنين الثالث والرابع، التي تعتبر أجداد الغسانيين واللخميين الأكثر شهرة. ويعرّفنا تاريخ ماوية على أول أسقف عربي لمجموعة من العرب المسيحيين.

والأهم من كل ذلك هي ماوية، التي تشد كل اهتمامنا لأنها تستحق مكانة حرمتها بين النساء العظيمات في العصور القديمة. إذ تدل قوة

شخصيتها وشجاعتها في الحروب أنها لا تقل أهمية أبداً عن زنوبيا. كذلك، فإن قبول شعبها بقيادتها يدل على أن حكم النساء لم يكن مستغرباً عند العرب قبل الإسلام، كما هو اليوم. كما نستنتج ذلك أيضاً من خلال قصائد السموءل. في الواقع يقول كاتب عرض العالم وشعوبه عن العرب إن شعبهم تحكمه النساء: «ويقولون إن نساء يحكمنهم».

من الواضح أن ذلك ليس إلا محض كلام، إلا أنه يستحق منا الدراسة المتأنية إذ أنه يستبعد أن يشير هذا الكلام مباشرة إلى ماوية لأن عرض العالم وشعوبه كتب حوالي عام (359 م). فلا يمكن أن تكون ماوية ملكة آنذاك، ولا يمكن أن نفسر ما قيل على أنه يشير إلى زنوبيا التي عاشت قبل هذا التاريخ بقرن من الزمن، لأن التدمريين لم يكونوا رُحّلاً ولم يعتبروا قط من العرب أو من العرب سكّان الخيام.

قد يدفعنا الضوء الذي سلطناه على ماوية إلى الاعتقاد بأن بطلات صحراويات أخريات قد يظهرن إذا ما نشرنا مخطوطات أخرى ونصوص عربية تاريخية وجغرافية لم تنشر بعد وتعود إلى بداية الإسلام. وفي جميع الأحوال، لقد أغنى ما عرفناه عن ماوية تاريخ روما، والمسيحية والعرب ما قبل الإسلام.

# ثبت المراجع

## GENERAL BIBLIOGRAPHY

(in chronological order)

**(a) General Introductions to Hagiography**

Delehaye, H. "L'Orient." Chap. 5 in *Les origines du culte des martyrs*. Subsidia Hagiographica 20. 2d ed. Bruxelles, 1933.

___: *The Legends of the Saints*. Translated from the 4th French ed., Subsidia Hagiographica 18A, Bruxelles, 1955 by D. Attwater. London and New York, 1962.

___: *Les passions des martyrs et les genres littéraires*. Subsidia Hagiographica 13B. 2d ed. Bruxelles, 1966.

Peeters, P. *Orient et byzance: le tréfonds oriental de l'hagiographie byzantine*. Subsidia Hagiographica 26. Bruxelles, 1950.

Aigrain, *R. L'hagiographie: ses sources, ses méthodes, son histoire*. Paris, 1953.

Vööbus, A. *History of Asceticism in the Syrian Orient. CSCO* 184/Sub. 14 and 197/Sub. 17 Louvain, 1958-60.

Halkin, F. "L'hagiographie byzantine au service de l'histoire." Thirteenth *International Congress of Byzantine Studies, Oxford 1966, Main Papers* 11 (Oxford, 1966): 1-10.

Patlagean, E. "A Byzance: Ancienne hagiographie et histoire sociale." *Annales: e.s.c.* 23 (1968): 106-26; repr. in idem, *Structure sociale, famille, chrétienté à byzance: IVe-XIe siècle*. London, 1981; ET in S. Wilson, ed. *Saints and their Cults*. Cambridge, England, 1983, 101-21.

Brown, P. "The Rise and Function of the Holy Man in Late Antiquity," *JRS* 61 (1971): 80-101; repr. with revised notes in P. Brown, *Society and the Holy in Late Antiquity*, 103-52. Berkeley and Los Angeles, 1982.

Gajano, S. B. *Agiografia altomedievale*. Bologna, 1976. (This is a valuable collection of essays, with a useful bibliographical section [pp. 261-300] [p 300 on Santità femminilel].)

Hackel, S., ed. *The Byzantine Saint*. SSTS 5. London, 1981.

van Ommeslaeghe, F. "The Acta Sanctorum and Bollandist Methodology." In *The Byzantine Saint*, edited by S. Hackel, 155-63. London, 1981.

Hagiographie, *Cultures et Sociétés, IV-XIIe siècles, Actes du Colloque organisé àNanterre età Paris (2-5 mai 1979)*. Paris, 1981. (Mainly on the West.)

Brown, P. "The Saint as Exemplar in Late Antiquity," *Representations I*, no. 2 (1983): 1-25.

Wilson, S., ed. *Saints and Their Cults: Studies in Religious Sociology, Folklore and, History*. Cambridge, 1983 (This source is useful for its annotated bibliography, PP. 309-417, and in particular, sec. 10, 11, and 16.)

**(b) On Women and Sanctity in Late Antiquity**

Dunbar, A. B. C. *Dictionary of Saintly Women*. 2 vols. London, 1904-5.

Delcourt, M. "Le complexe de Diane dans l'hagiographie chrétienne," *Revue de l'h istoire des Religions* 153 (1958): 1-33.

___: "Female Saints in Masculine Clothing." In *Hermaphrodite: Myths and Rituals of the Bisexual Figure in Classical Antiquity*, translated by J. Nicholson, 84-102. London, 1961.

Fiey, J.-M. "La cénobitisme féminin ancien dans les églises syriennes orientales et occidentale," *L'Orient Syrien 10* (1965): 281-306.

Meeks, W. "The Image of the Androgyne: Some Uses of a Symbol in Earliest Christianity," *History of Religions* 13 (1974): 165-208.

Ruether, R. R. "Misogynism and Virginal Feminism in the Fathers of the Church." In *Religion and Sexism: Images of Women in the Jewish and Christian Traditions*, edited by R. R. Ruether, 150-83. New York, 1974.

Patlagean, E. "L'histoire de la femme déguisée en moine et l'évolution de la saintetė féminine à byzance," *Studi Medievali* 3, no. 17 (1976): 597-623.

Ruether, R. R. "Mothers of the Church: Ascetic Women in the Late Patristic Age," *In Women of Spirit: Female Leadership in the Jewish and Christian Traditions*, edited by E. McLaughlin and R. R. Ruether, 71-98. New York, 1979-

Clark, E. *Jerome, Chrysostom and Friends*. 2d ed. New York, 1982.

Cameron, A., and A. Kuhrt, eds. *Images of Women in Antiquity*. London, 1983.

Schussler-Fiorenza, E. *In Memory of Her: A Feminist Theological Reconstruction of Christian Origins*. New York, 1983.

Clark, E. *Women in the Early Church*. Vol. 13 of *Messages of the Fathers of the Church*. Wilmington, Del., 1983.

**SPECIAL BIBLIOGRAPHIES:**

**SOURCES USED AND SECONDARY LITERATURE**

**I. Mary, Niece of Abraham of Qidun**

Sources

*BHO* 16-17. Translated from T. J. Lamy. *Sancti Ephraem Syri Hymni et Sermones*. VOL 4, cols. 1-84. Malines, 1902. Lamy printed the text of British Library Add. 14644, of the fifth to sixth century, where the Life is anonymous; he also gave the variants of some later manuscripts, where the Life is attributed to Ephrem (the earliest to do so is Add. 12160 of the sixth century); Lamy mistakenly accepted the attribution. (Lamy had previously printed the Syriac text in *AB* 10 [1891]: 10-49, and this is the source of Bedjan's edition in AMS 6, 465-99.) The Life was very popular in both Greek (*BHG* 5-8) and Latin; Helen Waddell's translation on pp. 285-32 in *The Desert Fathers* (London, 1936) was made from the Latin.

The Lament of Mary is translated from British Library Add. 17141, of the eighth to ninth century, and Harvard syr. 31, of the twelfth century (the Syriac text does not feature in the printed editions of the Syrian Orthodox *Fenqitho*, although several manuscripts include it sometime during Lent).

**Secondary Literature**

Lüdtke, W. "Die koptische Salomelegende und das Leben des Einsiedlers Abraham," *Zeitschrift für wissenschaftliche Theologie* neue Folge 14 (1906): 61-66. (See P. Peeters in AB 26 (1907): 468-69.)

de Stoop, E. "Un mot sur les sources des Actes d'Abraamios de Qiduna," *Le Musée Belge* 15 (1911): 297-312. (See P. Peeters in AB 32 (1913): 78-79) Wilmart, A. "Le redactions latines de la vie d'Abraham l'ermite," *Revue Bénédictine* 50 (1938): 222-45.

Raes, A., in *BS.I* (1960): 113-15.

Vööbus, *A. History of Asceticism in the Syrian Orient 2 (CSCO* 197/Subs. 17, 1960), 51-56.

Schmidt, M. "Influence de saint Ephrem sur la littérature latine et allemande du début du moyen-age," *Parole de l'Orient* 4 (1973): 325-41, esp.325-32 (on Hrosthwitha's drama "Abraham").

**2 . Pelagia**

**Sources**

*BHO* 919. Translated from J. Gildemeister, Acta sanctae Pelagiae syriace. Bonn, 1879, which is based on British Library Add. 1465 1 of 850. Bedjan reprinted this edition in *AMS* 6, 616-49. Variants to Gildemeister's text to be found in Sinai syr. 30 of 778 (written over the text of the Old Syriac Gospels) are given by A. Smith Lewis, Select Narratives of Holy Women (Studia Sinaitica 9) 1: 306-25. The Life is also to be found in Damascus Patriarchate 12/18, a vast hagiographical manuscript perhaps copied in 1184/5 by no less a person than the Patriarch Michael, author of the famous Chronicle. The Syriac is translated from a Greek original, to which it is the earliest witness. The Life proved extremely popular and is preserved in a large number of different languages; it is

the subject of an important composite volume, *Pélagie la Pénitente* (see the following section on secondary literature), in which A. Guillaumont gives a careful French translation of Gildemeister's text, recording the variants of the other two manuscripts. Helen Waddell's translation on pp. 261-81 in *The Desert Fathers* (London, 1936) was made from the Latin.

**Secondary Literature**


Usener, *H. Legenden der heiligen Pelagia, 3-16*. Bonn, 1879. (Greek text) de Stoop, E. "La vie de Théophane et de Pansemne," *Le Musée Belge* 15 (1911):313- 29 (influenced by Life of Pelagia).

Delehaye, H. *The Legends of the Saints* 150- 55. London, 1962.

Sauget, J.-M., in *BS* 10 (1968): 432-37.

Pavlovskis, Z. "The Life of St. Pelagia the Harlot: Hagiographical Adaptation of Pagan Romance," *Classical Folia 30 (1976): 138-49.*

Séminaire d'Histoire des Textes (Paris), "Les vies latines de Ste Pélagie," *Recherches Atigustiniennes* 12 (1977): 3-29 (on manuscripts and editions).

___: *Pélagie la Pénitente, Metamorphoses d'une légende, vol. I, Les textes et leur histoire*. Paris, 1981. Vol. 2, *La survie dans les littératures européennes*. Paris, 1984.

Guillaumont, A. "La version syriaque." *In Pélagie la Pénitente, vol.* I, 287-315.

Petitmangin, P. "La diffusion de la 'Pénitence de Pélagie': Résultats d'une recherche collective." In Hagiographie, cultures et sociétés IVe-XIIe siécles, 33-47. Etudes Augustiniennes, 1981.


**3. Persian Martyrs**

**General Background**


Labourt, J. *Le Christianisme dans l'Empire Perse sous la Dynastie Sassanide. Paris, 1904.*

Christensen, A. "Les Chrétiens de l'Iran." Chap. 6 in *L'Iran sous les Sassanides.* 2d ed. Copenhagen, 1944.

Devos, P. "Les martyrs persans À travers leurs actes syriaques." In *Atti del Convegno sul Tema: La Persia e il Mondo Greco-Romano*, 213-25. Accademia Nazionale dei Lincei, Rome; Quaderno 76, 1966.

Wiessner, G. *Untersuchungen zur syrischen Literaturgeschichte I: Zur Mārtyrerüberlieferung aus der Christenverfolgung Schapurs II* (Abhandlungen der Akademie der Wissenschaften in Göttingen, phil.-hist. Klasse, series 111, vol. 67, 1967).

Fiey, J.-M. *Jalons pour une histoire de l'église en Iraq (CSCO* 310, Subsidia 36, 1970).

Young, W. G. *Patriarch, Shah and Caliph.* Rawalpindi, 1974.

Brock, S. P. "A Martyr at the Sasanid Court under Vahran II: Candida," *AB* 96 (1978): 167-81. (Or, see S. P. Brock, chap. 9 in *Syriac Perspectives* [London,

1984].)
___: "Christians in the Sasanid Empire." *Studies in Church History* 18 (1982): 1-19. (Or, see S. P. Brock, chap. 6 in *Syriac Perspectives* [London, 1984].)

**3 A. Martha**

**Sources**

*BHO* 698. Translated from *AMS* 2, 233-41. Bedjan used a manuscript of 1869 belonging to Abbeloos (now Berlin or. oct. 1256-57), copied from the now lost manuscript Diyarbekir 96, of the eleventh to twelfth century (cf. A. Scher, *Journal Asiatique 10, no. 10 (1907): 398-401). Martha is mentioned in passing (but not by name) in Sozomen, Ecclesiastical History 2,* 11, a short section on her father.

**Secondary Literature**

Braun, *O. Ausgewählte Akten persischer Märtyrer*, 76-82. Kempten and Munich 1915. (German translation)

Wiessner, G. *Untersuchungen zur syrischen Literaturgeschichte I: Zur Märtyrenüberlieferung aus der Christenverfolgung Schapurs II* (Abhandlungen der Akaderme der Wissenschaften in Göttingen, phil.-hist. Klasse, series 111, vol. 67, 1967), pp. 94-105.

**3 B. Tarbo**

**Sources**

*BHO 1149*. Translated from *AMS* 2, 254-60. Bedjan's edition was based on the earlier edition by Assemani *(ASM* 1, 54-59) and two nineteenth-century manuscripts, Berlin Sachau 222 (of 1881) and or. oct. 1256-57 (of 1869; for this manuscript see under Martha); Assemani's edition was based on Vat. syr. 160 and 161 (both tenth century?). The martyrdom is transmitted (along with several other martyrdoms under Shapur 11) in a number of manuscripts, both East and West Syrian; the oldest of these is a fifth- to sixth-century fragment in the British Library, Add. 14654.

There are Greek and Sogdian translations, the former *(BHG* 1511) edited by Delehaye, the latter by Sims-Williams; in Greek her name has been corrupted to Pherbuthe. A short account of her martyrdom is also given by Sozomen (who calls her Tarbula) in his *Ecclesiastical History* 2, 12.

**Secondary Literature**

Delehaye, H.*Les versions grecques des Actes des martyrs persans sous Sapor II, in PO 2* (1905): 219-22.

Braun, O. *Ausgewählte Akten persischer Mürtyrer*, 89-92. Kempten and Munich, 19 15. (German translation)

Wiessner, G. *Untersuchungen zur syrischen Literaturgeschichte I: Zur Mürtyrerüberlieferung aus der Christenverfoigung Schapurs* II (Abhandlungen der Akademie der Wissenschaften in Göttingen, phil.-hist. Klasse, series 111, vol.

67, 1967), pp. 144-48.

Pigulevskaya, N. "Syrischer Texte und griechische übersetzung der Märtyrer-Akten der heiligen Tarbo." In *Beitrage zur Alten Geschichte und deren Nachleben: Festschrift für F. Altheim*, edited by R. Stiehl and H. E. Stier, 96-100. Berlin, 1970.

Sims-Williams, N. *The Christian Sogdian Manuscript C 2* (Berliner Turfantexte XII, Berlin, 1985), pp. 137-53, 140-44.

**3 C-D. Martyrs of Karka d-Beth Slokh (Kerkuk)**

**Sources (C)**

Translated from *AMS* 2, 288-89. Bedjan used Assemani's edition (*ASM* 1, 101) and the two Berlin manuscripts (see under Tarbo).

**Sources (D)**

*BHO* 705. Translated from the sixth-century history of Karka d-Beth Slokh, *AMS* 2, 513-14. Bedjan used the same two Berlin manuscripts.

Secondary Literature

Hoffmann, G. *Auszüge aus syrischen Akten persischer Märtyrer* (Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes, vol. 7, fasc. 3, 1880; repr. 1966), 43-60 (German summary of the history).

Fiey, J.-M. "Vers la réhabilitation de l'histoire de Karka de Beth Slok," *AB* 82 (1964): 199-222.

Gignoux, P. "Elements de prosopographie de quelques mobads sasanides," *Journal Asiatique* 270 (1982): 257-69.

**3 E. Thekla and Companions**

**Sources**

*BHO* 1157. Translated from *AMS* 2, 308-13. Bedjan again used As-semani's edition (*ASM* 1, 123-27) and the two Berlin manuscripts.

**Secondary Literature**

Braun, *O. Ausgewählte Akten persischer Märtyrer*, 106-9. Kempten and Munich, 1915. (German translation)

Peeters, P. "Le Passionnaire d'Adiabéne," AB 43 (1925): 261-304.

**3 F. Anahid**

**Sources**

*BHO* 47. Translated from *AMS* 2, 565-71, 583-603. Bedjan's edition is based on two nineteenth-century manuscripts, both East Syrian, of which only one now survives, Berlin or. oct. 1256-57, of 1869 (on this manuscript see under Martha). There is also a West Syrian Life of Pethion in British Library Add. 12174, of 1197 (ed. J. Corluy in *AB* 7 [1888]: 5-44), but this does not contain the section on Anahid. A fragmentary Sogdian translation of the whole Pethion cycle (including Anahid) has recently been reedited and translated by N. Sims-Williams.

**Secondary Literature**

Nöldeke, T. "Syrische Polemik gegen die persische Religion." In *Festgruss an R. von Roth*, 34-38. Stuttgart, 1893.

Maries, L. *Le de Deo d'Eznik*, 41-47. Paris, 1924.

Bidez, J. and F. Cumont. *Les Mages hellénisés*, 2, 107-11, Paris, 1938.

Zaehner, *R. Zurvan*, 63-65, 434-36. Oxford, 1955.

Sims-Williams, N. *The Christian Sogdian Manuscript C* 2 (Berliner Turfantexte XII, Berlin, 1985), pp. 31-68, 33-41.

**4. The Women Martyrs of Najran**

**Sources**

The translations are madefrom two sources. For Section A, "From Simeon of Beth Arsham's Second Letter," the translation is from I. Shahid, *The Martyrs of Najran* (Subsidia Hagiographica 49, 1971), vii-xi, xvii-xxvii. For Section B, "From the Book of the Ḥimyarites," the translation is from A. Moberg, *The Book of the Himyarites* (Lund, 1924), chap. 21 (=pp. 31-36 of the Syriac text). Shahid's edition is taken from Damascus Patriarchate ms 12/18 of A.D. 1184/5, and Moberg's from a manuscript in a private collection dated April A.D. 932. (The First Letter (=*BHO* 99-103), not represented in the translations here, was edited by I. Guidi, *La lettera di Simeone vescovo di Beth-Arsham sopra i martiri omeriti, in Atti della R. Accademia dei Lincei*, ser. 3, Memorie, 7, 1881, 471-515 (reprinted in his *Raccolta di scritti I (Rome*, 1945), 1-60); an English translation by A. Jeffery can be found in *The Muslim World* 36 (1946): 204-16.)

**Secondary Literature**

A full discussion of the background and the various problems connected with the Najran martyrdoms is to be found in I. Shahid's *The Martyrs of Najran*. The following may also be singled out:

Smith, S. "Events in Arabia in the Sixth Century A.D." *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 16 (1954): 425-68.

Ryckmans, J. *La persécution des chrétiens himyarites au sixième siècle*. Uitgaven Nederlands hist.-arch. Instituut te Istanbul, vol. 1, 1956.

Pigulevskaya, N. V. "Les rapports sociauxà Nedjran au debut du VIe siécle." *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 3 (1960): 113-30; 4(1961): 1-14.

Kawar (=Shahid), I. "Byzantino-Arabica: The Conference of Ramla, AD 524" *Journal of Near Eastern Studies* 23 (1964): 115-31.

Ryckmans, J. "Le christianisme en Arabie du Sud préislamique." In *L'Oriente cristiano nella storia della civiltà*, 413-54. Rome, 1964.

Trimingham, J. S. *Christianity among the Arabs in Pre-Islamic Times*, 294-307. London and New York, 1979.

Shahid, I. "Byzantium in South,Arabia." *Dumbarton Oaks papers* 33 (1979): 25-94.

Huxley, G. L. "On the Greek Martyrium of the Negranites." *Proceedings of the Royal Irish Academy*, 80 C, 3 (1 980): 41-55.

**5. From John of Ephesus, Lives of the Eastern Saints**

**Sources**

*BHO* 689 and 1109. Translated from E. W. Brooks, *Lives of the Eastern Saints*, in *Patrologia Orientalis* 17 (1923): 166-86 (chap. 12), and 18 (1924): 541-58 (chap. 27). Brooks's edition is based on British Library Add. 14647 of 688 and six other manuscripts of the ninth to thirteenth centuries.

**Secondary Literature**

Brown, P. "Eastern and Western Christendom in Late Antiquity: A Parting of the Ways." *The Orthodox Churches and the West, Studies in Church History* 13 (1976): 1-24; repr. in P. Brown, *Society and the Holy in Late Antiquity*, 166-95. Berkeley, 1982.

___: "Town, Village and Holy Man: The Case of Syria." *Assimilation et résistance á la culture gréco-romaine dans le monde ancien*, edited by D. M. Pippidi, 213-20. Bucharest, 1976; repr. in *Society and the Holy in Late Antiquity*, 153-65. Berkeley, 1982.

Ashbrook, S. "Asceticism in Adversity: An Early Byzantine experience." *Byzantine and Modern Greek Studies* 6 (1980): 1-11.

Ashbrook Harvey, S. "The Politicization of the Byzantine Saint." In *The Byzantine Saint, SSTS* 5, edited by S. Hackel, 37-42. London, 1981.

___: *Asceticism and Society in the Sixth Century Byzantine East: A Study in John of Ephesus' Lives of the Eastern Saints*. Forthcoming.

**On the religious background, see:**

Wigram, W. A. *The Separation of the Monophysites*. London, 1923; repr. New York, 1978.

Frend, W. H. C. Chap.7 in *The Rise of the Monophysite Movement*. Cambridge, England, 1972.

Chesnut, R. *Three Monophysite Christologies*. Oxford, 1976. (On Severus, Philoxenus, and Jacob of Serugh)

**6. Anastasia**

**Sources**

*BHO* 242. Translated from F. Nau's edition of the Syriac in *Revue de l'Orient Chrétien* 5 (1900): 391-401, based on Paris syr. 234 of the thirteenth century. For the present translation, use has also been made of British Library Add. 14649 of the ninth century (whose text is in fact very similar). The original Greek (*BHG* 79-80) was edited by L. Clugnet in *Revue de l'Orient Chrétien 5* (1900): 51-59 (three versions corresponding to sec. 5-9 of the Syriac) and 67-70 (corresponding to sec.1-4 of the Syriac). Clugnet republished the texts as a separate volume, *Vie et récits de l'abbé Daniel le Scétiote* (Paris, 1901): Syriac text on pp. 68-77.

**Secondary Literature**

Clugnet, L. "Anastasie la patricienne." *DHGE* 2 (1904): cols. 1485-86. van Cauwenbergh, P. *Etude sur les moines d'Egypte*, 12-29. Paris, 1914.

Garitte, G. "Daniel de Scété." *DHGE* 14 (1960): cols.70-72.

Fusconi, G. M., in *BS* I (1961): 1039-40.

**7. Febronia**

**Sources**

*BHO* 302. Translated from *AMS* 5, 573-615. Bedjan's edition rests on British Library Add. 14647 of 688, with some variants from Add. 14649, of the ninth century. Add. 14647 is the earliest of a number of Syriac manuscripts containing the martyrdom; the majority of these are West Syrian, but at least one, Add. 7200, is East Syrian. In the notes to the translation occasional reference (especially in the matter of names) is made to the Greek text (perhaps a translation from Syriac), published in *Acta Sanctonim* lunii 5: 14-35 (25 June; *BHG* 659), and to the Armenian *(BHO 303)*, edited in *Varkc ew Vkayabanutiwnk srboc*. Vol. 2, 409-29. Venice, 1874. The martyrdom also enjoyed popularity in Latin; furthermore, it provided the model for several other hagiographical texts in Greek.

**Secondary Literature**

Simon, J. "Note sur l'original de la Passion de Ste Fébronie." AB 42 (1924): 69-76.

Devos, P. "L'oeuvre hagiographique de Guarimpotus, hagiographe napolitain, III, La passion de Ste Fébronie BHL 2843." *AB* 76 (1958): 164-70.

Halkin, F. "La passion grecque des saintes Libye, Eutropie et Léonis, martyres à Nisibe." *AB* 76 (1958): 293-315.

Devos, P. "Ste Anastasie la vierge et la source de sa passion." *AB* 80 (1962):.33-47.

Sauget, J.-M., in *BS* 5 (1964): 508-9.

Aubert, R., in *DHGE* 16 (1967): cols. 791-93.

**8. Shirin**

**Sources**

Translated from A. de Halleux, ed. *Martyrius (Sahdona), Oeuvres spirituelles I, Livre de Perfection*, I. iii. 64, 69-79. (= CSCO 200, Scriptores Syri 86, 44-48.)

**UPDATED BIBLIOGRAPHY ON WOMEN IN SYRIAC CHRISTIANITY**

Brock, Sebastian R, "The Holy Spirit as Feminine in Early Syriac Literature:" in J. Martin Soskice, ed.,. *After Eve: Women, Theology and the Christian Tradition* (London: Collins, 1990): 73-88.

___: "'Come, Compassionate Mother. Come, Holy Spirit: 'A Forgotten Aspect of Early Eastern Christian Imagery," *Aram* [Oxford] 3 (1991): 249-257.

___: "'The Daughter of Ma'nyo': A Holy Woman of Arbela," in *In Memoriam J. -M. fiey, Annales du Dèpartment des Lxttres Arabes* (Universite Saint Joseph) 6B (1991/2,) [1996]: 121-128.

___: "Reading Between the Lines: Sarah and the Sacrifice of Isaac (Gen. 22):" in L. Archer, S. Fischler and M. Wykes, eds., *Women in Ancient Societies* (London: Roudedge, 1994): 167-180.

___: *Bride of Light. Hymns on Mary from the Syriac Churches*, Moran Etho Series 6 (Kottayam: SEERI, 1994) [Translations].

___: "Deaconesses in the Syriac Tradition," in Prasanna Vazheeparampil, ed., *Woman in Prism and Focus: Her Profile in Major World Religions and in Christian* Traditions (Rome: Mar Thoma Yogam, 1996): 205-217 [includes translation of ordination services].

Sr. Cleopatra, "Woman as Evangelizer: With Particular Reference to the Indian Syro-Malobar Context:" in Prasanna Vazheeparampil, ed., *Woman in Prism and Focus: Her Profile in Major World Religions and in Christian Traditions* (Rome: Mar Thoma Yogam, 1996): 180-204.

Devos, P., "La jeune martyre perse sainte Shirin (+ 559)" *Analecta Bollandiana 112 (1994): 4-31.*

Evans, J. S. A., "The Holy Women of the Monophysites," *Jahrbuch der österreichischen byzantinischen Cesellschaft* (Wien) 32/2 (1982): 525-527.

Habbi, J., "East Syrian Women Saints and their Contribution to Spiritual Theology," in A. Thottakara, ed., *East Syrian Spirituality* (Bangalore: Dharmaram, 1990): 99-126.

Harvey, Susan Ashbrook, "Women in Early Byzantine Hagiography: Reversing the Story," in Lynda L. Coon, Katherine J. Haldane, and Elisabeth W Sommer, eds., *'That Gentle Strength:' Historical Perspectives on Women its Christianity* (Charlottesville: University Press of Virginia, 1990): 36-59.

___: *Asceticism and Society in Crisis: John of Ephesus and the 'Lives of the Eastern Saints'* (Berkeley: University of California Press, 1990), Ch. 6, "Some Implications: the Case of Women," 108 -133.

___: "Feminine Imagery for the Divine: the Holy Spirit, the, Odes of Solomon, and Early Syriac Tradition:" *St. Vladimir's Theological Quarterly* 37 (1993): 111-139.

___: "Women in the Syriac Tradition:" in Prasanna Vazheeparampil, ed., *Woman in Prism and Focus: Her Profile in Major World Religions and in Christian Traditions* (Rome: Mar Thoma Yogam, 1996): 69-80.

___ : "'There Were Also Many Women There': Women and the Foundation of the Church:" in George S. Corey, Peter E. Gillquist, Anne Glynn Mackoul, Jean Sam, and Paul Schneirla, eds., *The First One Hundred Years: A Centennial Anthology Celebrating Antiochian Orthodoxy in North America* (Englewood, NJ.: Antakya Press, 1995): 141-167.

___: "Sacred Bonding: Mothers and Daughters in Early Syriac Hagiography," *Journal of Early Christian Studies* 4 (1996): 27-56.

Kunnachery, Kuriakose, *Deaconesses in the Church*, Syrian Churches Series 10 (Kottayam: SEERI, 1987).

Palmer, Andrew N., "Sisters, fiancées, Wives and Mothers of Syrian Holy Men:" in René Lavenant, ed., *V Symposium Syriacum, Orientalia Christiana Analecta 236 (Rome, 1990): 207-214.*

Payngot, C., "Women Among the St. Thomas Christians," in Prasanna Vazheeparampil, ed., *Woman in Prism and Focus: Her Profile in Major World Religions and in Christian Traditions* (Rome: Mar Thoma Yogam, 1996) 175-187.

Richardson, J. A., "Ruth According to Ephraim the Syrian:" in A. Brenner, ed., *A Feminist Companion to Ruth* (Sheffield: Sheffield Academic Press, 1993): 170-177.

Salachas, D., "Women in the Church: Female Monastic Life in Oriental Canon Law of the First Centuries:" in Prasanna Vazheeparampil, ed., *Woman in Prism and Focus: Her Profile in Major World Religions and in Christian Traditions* (Rome: Mar Thoma Yogam, 1996): 247-264.

Torjesen, Karen Jo, "The Role ofWomen in the Early Greek and Syriac Churches:" *The Harp: A Journal of Syriac and Oriental Studies* [KottaYam] 4 (1991): 135-144.

Witakowski, Witold, "Mart(y) Shmuni, the Mother of the Maccabean Martyrs in Syriac Tradition:" in René Lavenant, ed., *VI Symposium Syriacum, Orientalia Christiana Analecta* 247 (1994): 153-168.

**Select Bibliography on the Empress Theodora**

Allen, Pauline, "Contemporary Portraits of the Byzantine Empress Theodora (A.D. 527-548)," in *Stereotypes of Women in Power: Historical Perspectives and Revisionist Views*, eds. Barbara Garlick, Suzanne Dixon, and Pauline Allen (Westport, CT: Greenwood Press, 1992) 93-103.

Browning, Robert, *Justinian and Theodora*, rev. ed. (London: Thames and Hudson, 1987).

Cameron, Averil, *Procopius and the Sixth Century* (Berkeley: University of California Press, 1985).

*Chronicon anonymum ad annum Christi 1234 pertinens*, ed. and trans. J.-B. Chabot, Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium 81/Scr. Syr. 36, 82/37, and 109/56 (Paris 1916-20; Louvain, 1937); and by A. Abouna and J.-M. Fiey, Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium 354/Scr. Syr. 154 (Louvain, 1974).

Daube, D., "The Marriage of Justinian and Theodora. Legal and Theological Issues," *Catholic University Law Review* 16 (1968) 380-99.

Diehl, Charles, *Thoédora: Impèratrice de Byzance* (Paris: E. de Boccard, 1937).

Duchesne, L. , "Les Protégès de Théodora," *Mélanges d'archéologie et d'histoire* 35 (1915) 57-79.

Fisher, Elizabeth A., "Theodora and Antonina in the *Historia Arcana*: History and/or Fiction?", in *Women in the Ancient World: the Arethusa Papers*, eds. John Peradotto and J. P. Sullivan (Albany: State University of New York Press, 1984) 287-313.

Fischler, Susan, "Social Stereotypes and Historical Analysis: The Case of the Imperial Women at Rome," in *Women in Ancient Societies: 'An Illusion of the Night'*, eds. LÕonie J. Archer, Susan Fischler, and Maria Wyke (New York: Routledge, 1994) 115-33.

Harvey, S. A., *Asceticism and Society in Crisis: John of Ephesus and "The Lives of the Eastern Saints*," (Berkeley: University of California Press, 1990).

John of Ephesus, *Lives of the Eastern Saints*, ed. and trans. E. W. Brooks, *Patrologia Orientalis* vols. 17-19 (Paris, 1923-5).

Michael the Syrian, *Chronique de Michel le Syrien*, ed. and trans. J.-B. Chabot (Paris, 1899-1905; repr. Bruxelles: Culture et Civilisation, 1963) 3 Vols.

Pazdernik, Charles, "Our Most Pious Consort Given us by God: Dissident Reactions to the Partnership of Justinian and Theodora, AD 525-549," *Classical Antiquity* 13 (1994) 256-81

Procopius, *Works*, ed. and trans. H. B. Dewing and G. Downey, Loeb Classical Library (Cambridge: Harvard University Press, repr. 1961) 7 Vols.

van Ginkel, Jan J., *John of Ephesus: a Monophysite Historian in Sixth-Century Byzantium*, Ph.D. dissertation, Rijksuniversiteit, Groningen (1995).

Vinson, Martha, "The Christianization of Slander: Some Preliminary Observations," in *Novum Millenium: Festschrift for Paul Speck*, eds. Sarolta Takacs and Claudia Sode (Brookfield, VT: Ashgate Publishing, 1999).

## ABBREVIATIONS

AB *Analecta Bollandiana.*

AMS P. Bedjan, *Acta Martyrum et Sanctorum* (Paris and Leipzig, 1890-97; repr. Hildersheÿm, *1968), 7* vols.

ASM S. E. Assernani, *Acta Sanctorum Martyrum* (Rome, 1748; repr. Farnborough, 1970), 2 vols.

BHG F. Halkin (ed.), *Bibliotheca Hagiographica Graeca* (3d cd., Bruxelles, 1957).

BHO P. Peeters (ed.), *Bibliotheca Hagiographica Orientalis* (Bruxelles, 1910).

*BS Bibliotheca Sanctorum* (Instituto Giovanni XXIII nella pontificla Universita Lateranense, Rorne, (1961-69) 12 vols.

CSCO *Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium.*

DHGE *Dictionnaire d'Histoire et de Géographie ecclesiastiques* (Paris, 1912-).

ET English translation.

*Fiey, AC* J.-M. Fiey, *Assyrie chrétienne* (Beirut, 1965-68), 3 vols.

Fiey, communautés J.-M. Ficy, *Communautés syriaques en Iran et Iraq des origines à 1552* (London, 1979).

JRS *Journal of Roman Studies.*

OCA *Orientalia Christiana Analecta.*

PO *Patrologia Orientalis* (Paris, 1907-).

SCH *Studies in Church History.*

SLNPNF *A Select Library of Nicene and Post-Nicene Fathers.*

SSTS *Studies Supplementary to Sobornost.*

TU *Texte und Untersuchungen zur Geschichte der altchristlichen Literatur.*

# الهوامش

* * *

## مقدمة النسخة الإنجليزية

1 - النسخة الإنجليزية الأصلية تحوي الكثير من الهوامش والتعليقات على مختلف النصوص المترجمة إلى تلك اللغة. ونظراً لعدم توافر ترجمات لتلك الكتب ارتأينا، بعد استشارة المؤلفين وأخذ إذنهم، قصر الإشارة إلى المراجع في هذه النسخة العربية على تلك التي رأينا أنها ستساعد القارئ العربي في فهم النص.

2 - Pelagia.

3 - مملكة وقعت حدودها في منطقة شمال غربي نهري دجلة والفرات، وكانت عاصمتها أديسّا (أرفة) (الناشر).

4 - Marcionites.

5 - Valentinians.

6 - Messalians.

7 - Mannichaeans.

8 - (إنجيل متى 27: 45، 51 وإنجيل مرقس 15: 33 وإنجيل لوقا 23: 44-45).

* * *

## 1) مريم ابنة أخي إبراهيم القيدوني

1 - نسبة إلى قرية (قيدون) الواقعة قرب الرها (اديسا).

2 - Theodoret's Historia Religiosa 17.

3 - Historia Lausiaca.

4 - Tavern.

5 - Leontios of Neapolis.

6 - بقية القسم هذا تم حذفه لأنه لا علاقة له بمريم.

7 - المرثية مكتوبة وفق تسلسل الأحرف الأبجدية كالمزمور رقم (119) علماً بأن الأبجدية السريانية مشكلة من (25) حرفاً.

8 - قارن إنجيل متى (18: 12-13) وإنجيل لوقا (15: 7).

9 - إنجيل متى (10: 38 و16: 24).
10 - إنجيل لوقا (23: 40-43).
11 - كولوسي (2:14).
12 - إنجيل مرقس (12: 42).

* * *

## 2) بلاجيا

1 - Usener.
2 - Tabennesi.
3 - Thebaid.

4 - إنجيل يوحنا (2: 1-11).
5 - أي (الجوهرة) بالعربية، وباليونانية مرغونيثو.
6 - إنجيل مرقس (15: 10).
7 - إنجيل لوقا (10: 42).

* * *

## 3) شهيدات فارسيات

1 - Syncretistic Religion.
2 - Pusai, Posi.
3 - Karkad. Ledan.
4 - Narsai Tahmashabur.

5 - إقليم يقع إلى الشرق من بيت جرماي بالقرب من الحدود العراقية - الإيرانية، ويتمركز حول مدينة حلوان.
6 - المكرّسات.
7 - هذا حدث في مدينة كرخ د - لدن في إقليم خوزستان بإيران.
8 - سفر التكوين (22: 7).
9 - إنجيل لوقا (12: 49).
10 - كان أحد الموقعين على وثيقة سينودس يهب الله الأول عام (420 م).
11 - (قديشو أو قديشتو): هذه الألفاظ تستعمل بالمعنى الفني، وفي الأدب السرياني القديم هم الذين يمتنعون عن الجماع في الزواج.
12 - من أجل هذا الدافع، انظر سوزانا (1: 8-9).
13 - سفر الخروج (20: 3-4).
14 - سفر اللاويين (27:20).
15 - Mobed.
16 - أنظر رقم (5).
17 - سفر المزامير (3:124).
18 - لأن كرخ د - لدن في الجبال.
19 - يبدو أن اسم الشهيدة الخامسة غير معروف.
20 - تقع تقريباً على مسافة (12) كم في الجنوب الغربي من أربيلا (أربيل المعاصرة في ضواحي نهر دجلة في شمالي العراق).

21 - حافظ المسيحيون المحليون على الشريعة اليهودية في هذا الشأن مؤكدين أن الدم ينزف من الحيوانات المذبوحة.

22 - (أعمال 1: 18).

23 - (غلاطية 27:3).

24 - إنجيل يوحنا (44:8).

25 - إنجيل لوقا (19: 12 -20).

26 - سفر التثنية (16: 19).

27 - ربما كان ذلك اسمها عند التعميد.

28 - ملاحظة المحقق: (وتلي استشهاد أدورهورميزد، وتُستأنف قصة أناهيد في الصفحة (583) من الكتاب السرياني).

29 - منصب إداري عند الفرس.

30 - لقب ديني.

31 - يترجمه وليامز (وليس بواسطة شخص آخر).

32 - ربط بين المزمور (136: 3) و(1 تيموثي 6: 17).

33 - سفر المزامير (138: 1-3).

34 - أعمال (17: 28).

35 - إنجيل متى (10: 33).

36 - سفر المزامير (62: 2-3 و118: 14).

## 4) شهيدات نجران

1 - الواقعة في وسط فلسطين المحتلة (الناشر).

2 - Abraham son of Euphrasios.

3 - تقع قرب حلب.

4 - (الحارث؟) (الناشر).

5 - مقالة في وصف كتاب الشهداء الحميريين للمثلث الرحمات العلامة البطريرك أفرام الأول برصوم (1948 م). (المجلة البطريركية، العدد 24، نيسان 1982).

6 - Trwby.

7 - ملاحظة الناشر (الإنجليزي) والمحرر - تقص الرسالة بعد هذه الحادثة استشهاد الحارث وطفل عمره ثلاث سنوات ثم استشهاد النساء الشريفات).

8 - في كتاب الحِمْيَريين تدعو رَهُم السيد المسيح بالعريس السماوي الذي خُطبَ له جميع المتعبدين في القداسة، حسب التقليد السرياني.

9 - من الفصل (21).

* * *

## 5) من (سِيَر القديسين الشرقيين)

1 - كتبها يوحنا الأفسسي.

2 - أعمال (9: 36).

3 - (ديار بكر) في تركيا.

4 - تقع بالقرب من ديار بكر.

5 - غلاطية (3: 28).

6 - Minae.

7 - لوقا (15: 17).
8 - إنجيل لوقا (16: 19 - 31).
9 - أعمال (9: 36).
10 - إنجيل متى (25: 29).
11 - أمثال (15: 15).
12 - إنجيل متى (21: 13).
13 - كورنثوس (1: 29).

14 - وشوشان تعنى سوسن أو بوركتو = بركة. و(شوشان) نبات ذو رائحة طيبة وكذلك (بوركتو) نبات طيب الرائحة كما ورد في قاموس اللباب، وقد سميت الرها أيضاً (مباركتو) أي المدينة المباركة.

* * *

## 6) أنستاسيا

1 - Lausiaca Palladiu Historia (39).

2 - سفر الملوك الثاني (20:2).

* * *

## 7) فبْرونيا

1 - إنجيل لوقا (36:2).

2 - Eutropia.
3 - Comes.

* * *

## 8) شيرين

1 - يقول البطريرك أفرام الأول في كتابه اللؤلؤ المنثور، الطبعة الخامسة . دار ماردين - حلب، أن سهدونا كان أسقف ماحوزا أرنون، والراهب بيجان نشر هذا الكتاب عام (903 و909 م) (ف. ب).

2 - Beata.

3 - سفر التكوين (3: 15).

4 - الأقسام (65-68) ليس ذات علاقة بمادة الكتاب.

5 - سفر القضاة (5: 24-27). في النسخة السريانية، يظهر يائيل بصفة (عنائل)، أي (الرب استجاب).

6 - يوحنا (2: 15).
7 - فيلبي (3: 8).
8 - إنجيل متى (27: 19) و2 كورنثوس (6: 6).
9 - دانيال (1: 15).
10 - رومية (12: 12).

* * *

## ثيودورا (الملكة المؤمنة)

1 - سوزان هارفي كتبت هذ البحث بتاريخ 3 كانون الثاني (2000 م) خصيصاً للطبعة العربية، وهو محصلة محاضرة كانت ألقتها يوم 4 تشرين الأول (1999 م) في المؤتمر الدولي لذكرى مرور ثمانمئة عام على وفاة مار ميخائيل الكبير بطريرك أنطاكية للسريان (1199-1999 م) الذي انعقد في الصرح البطريركي للسريان الأرثوذكس بمعرة صيدنايا في سورية.

هوامش المقالة كاملة ستظهر في:

Hugoye: Journal of Syrian Studies (2000).
http://syrcom.cua.edu.hugoye

2 - Romanos Melodos.

3 - History of Wars.

4 - Buildings.

5 - Anecdota or Secret History.

6 - Severus.

7 - Justin.

8 - Chronicle.

9 - هذه مفردة سريانية وتعني (أقسِمُ).

10 - Porneion.

11 - يستخدم يوحنا كلمة (Stratelales).

12 - Parrhesia.

13 - Mare of the Solitary.

14 - Parrehesia.

15 - John Malalas, Rhetor.

16 - John of Nikiou.

* * *

## ماوية: ملكة العرب

1 - Glen W. Bowersock, Mavia, Queen of the Saracens, Kölner Historische Abhandlungen; Band 28 (1980). Bohlau Verlag Koln Wien 1980, pp, 477-493.

لأن الناشر لم يتمكن من التعرف على صاحب حقوق النشر، فقد منحنا المؤلف الأستاذ غلن بورسك إبان زيارته إلى سورية في مطلع العام الحالي الإذن بنشر ترجمتنا للمقالة وإلحاقها بالكتاب. كما حصلنا من الناشر الأمريكي (مطبعة جامعة كاليفورنيا) ومن الدكتورة سوزان هارفي والأستاذ سِبَستيَن بُرُك على موافقتهم جميعاً على إضافة الملحق هذا وتعديل اسم الكتاب.

2 - Saracens.

3 - Vittingoff.

4 - Piganiol, l'Empire Chrtien.

5 - Ensslin.

6 - The magister militum.

7 - Jean roug.

8 - Expositio lotius mundi et gentium.

9 - Prosopography.

10 - Rufinus.

11 - Sozomen.

12 - Theodoret.

13 - Theodorus Anagnostes.

14 - Theophanes.

15 - Eusebius.

16 - Theodosius.

17 - Syntagma.

18 - Gelasius of Caesarea.

19 - Photius.

20 - Friedhelm Winkelmann.

21 - Nitria.

22 - Theophanes.

23 - ex maiorum traditionibus.

24 - Theodorus Anagnostes.

25 - Gnther Christian Hansen.

26 - Skanitae.

27 - Saracens.

28 - Saracen.

29 - Saraka.

30 - phylarch.

31 - Foederati.

32 - Pacatus.

33 - Assanitae (24.2.4).

34 - Prosopography.

35 - Lucius.

36 - Athanasius.

37 - جاك - بول مين (188 - 1875 م): قسيس كاثوليكي من فرنسا. كان في طليعة ناشري الكتابات اللاهوتية في القرن التاسع عشر (الناشر).

38 - من الأقوام الرعاة ذوات الأصول الإيرانية التي هاجرت من وسط آسيا إلى جبال الأورال في الفترة الممتدة من القرن السادس إلى الرابع قبل الميلاد، واستقرت أخيراً في منطقة البلقان.

39 - AE 1947. 193.

40 - Mouterde. Poidebard.

41 - (H. Wuthnow, Die Semitischen Menschennamen griechischen Inschriften und Papyri des vorderen Orientes, 1930, 75 and 155). يعد من الغلط اعتبار (wy) الجذر السامي للكلمة اليونانية (Mavia). فقد ورد خطأ أن معاوية هو الأصل السامي للاسم. فالأساس هو (موي). بالتالي، فقد أصاب إنسلين (Ensslin) عندما اعتبر في موسوعة (RE) أن ماويَّة هو الشكل السامي للاسم، رغم أننا لسنا مضطرين لاعتباره تحريفاً لكلمة ماريًا (وهو غلط يسهل ارتكابه في العربية نتيجة التشابه بي حرفي 'W' و 'R').

* * *

# يصدر عن قَدْمُس للنشر والتوزيع

**ماركو بولو: هل وصل إلى الصين؟** تأليف: فرنسس وود، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (صدر).

**لبنان القديم.** تأليف: كارلهاينز برنهردت، ترجمة: ميشيل كيلو، مراجعة: زياد منى (صدر).

**النهايات ـ الهوس القيامي الألفي.** تأليف: ديتر تسمرلنغ، ترجمة: ميشيل كيلو؛ مراجعة: زياد منى (صدر).

**تلفيق اسرءيل التوراتية ـ طمس التاريخ الفلسطيني.** تأليف: كيث وايتلام، ترجمة: ممدوح عدوان؛ مراجعة: زياد منى (صدر).

**المسيحية والعرب.** تأليف: نقولا زيادة (صدر).

**قديسات وملكات من المشرق السرياني وجزيرة العرب.** تأليف: سِبَستيان بروك وسوزان هارفي، ترجمة: فريدة بولس؛ راجعه المطران مار غريغوريوس يوحنا إبراهيم.

**النظرية السياسية بين اليونان والإسلام.** تأليف الدكتور عبد الوهاب مروان (تحت الطبع).

**الشعر العربي المغنى ـ دراسة تحليلية لموسيقى الشعر.** تأليف: المقدم الدكتور إيليا فرانسيس (تحت الطبع).

**خالد وعمر ـ بحث نقدي في المصادر عن التأريخ الإسلامي المبكر.** تأليف: كلاوس كلير، ترجمة: محمد جديد (تحت الطبع).

**بحثاً عن إله ووطن ـ بين الاستكشاف وعلم الآثار والصراع الخفي على فلسطين بين عامي (1799 ـ 1917 م).** تأليف: نيل أ. سلبرمن، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

**الفتوحات العربية الإسلامية الأولى وبيزنطة.** تأليف: وولتر كغي، ترجمة: نقولا زيادة (قريباً).

**شاركتُ في الخديعة.** تأليف: سلوى النعيمي (تحت الطبع).

**طب العيون عند العرب: تاريخ وأعلام.** تأليف: نشأت الحمارنة (تحت الطبع).

**الكتاب في التاريخ: كيف يلفق الكُتّاب ماضياً.** تأليف: توماس طمسون (قريباً).

**الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني: نقد أخلاقي.** تأليف: مايكل بريَر، ترجمة: أحمد الجمل (قريباً).

**بنية المسلسل الدرامي التلفزيوني (نحو درامية جديدة).** تأليف قيس الزبيدي (قريباً).

**الظاهر بيبرس.** تأليف: بيتر ثوراو - (قريباً).

**الحرب البحرية والسياسة البحرية بين الإسلام والغرب.** تأليف: إ. آيكوف (قريباً).

**الحمّام في العصر العربي - الإسلامي الوسيط: دراسة ثقافية تاريخية.** تأليف: هاينز غرتسفلد (قريباً).

**هزيمة المسيحية، خطاب "العودة"، واليهود.** تأليف: د. أولستر (قريباً).

**الطوائف المسيحية في فلسطين من الحكم البيزنطي إلى الفتح الإسلامي: دراسة تاريخية وآثارية.** تأليف: روبرت شِك (قريباً).

**غوته والعالم العربي.** تأليف: كاتارينا مُمزِن (قريباً).

**المولوخ - نظرة نقدية لتاريخ الولايات المتحدة.** تأليف: كارلهاينز دِشنَر (قريباً).

**البحث عن إسرءيل التوراتية.** تأليف: فيليب ديفس (قريباً).

**إفريقية واكتشاف أمريكا.** تأليف: ليو فينَر. (قريباً).

**الفتوحات الإسلامية الأولى.** تأليف: فرِد دونَر (قريباً).

**حكايات آرامية من معلولا** (قريباً).

**الغرب والإسلام - صورة العرب في الغرب وتشكلها في العصر الوسيط المبكر.** تأليف: إكهارت روتر (قريباً).

**حكومات المسلمين.** تأليف: عزيز العظمة (قريباً).

**هامش الإثارة الجنسية - قراءة في خطاب الغرب عن الشرق كآخر.** تأليف: إرفين كميل شِك (قريباً).

**مكتبة قَدمُس**: مجموعة كتيبات تحوي ترجمة دراسات وأبحاث نشر أكثرها في دوريات متخصصة، تتعلق ببلادنا وقضايانا التاريخية والمعاصرة، منها التالي ذكرها:

**أباطرة وشيوخ رومان من المشرق العربي**. تأليف: غلِن بَوَرسوك، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

**(أشور) و(سورية) مترادفتان**. تأليف: ريتشارد فراي، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

**الألفية والمستوطنات الزراعية في الأرض المقدسة في القرن التاسع عشر**. تأليف: ر. كارك، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

**أورشليم داود: التلفيق والحقيقة**. تأليف: مارغريت شتاينر، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

**«عودة» اليهود في الفكر البروتستانتي الإنجليزي (1790 - 1840 م)**. تأليف: ماير فرِيته، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

**فيليب العربي والمسيحية**. تأليف: هانز بولزنَدَر، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

**كنعان، فينيقيا، أرجوان**. تأليف: ميخائيل أسطور، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

**معركة القادسية**. تأليف: س. م. يوسف. ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

**معركة اليرموك - إعادة تركيب**. تأليف: ج. جندارا. ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

**معركة هليوبوليس**. تأليف: ألفرِد بتلَر. ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

**تطورات فنون الحرب الإسلامية: الفتوحات الأولى**. تأليف: ج. جندارا. ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

**حول نقش «بيت دود [داود]»**. تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (تحت الطبع).

**دور الجمل والخيل في الفتوحات العربية المبكرة**. تأليف: د. ر. هِلّ، ترجمة: ميسون الحجيري؛

مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

**كمال الصليبي في حوار عن بني إسرائيل وعسير وعيسى بن مريم ويسوع المسيح** (قريباً).

**جغرافية سفر التكوين 14 في عسير.** تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (قريباً).

**مشكلة (داود وجليات).** تأليف: كمال الصليبي، ترجمة زياد منى (قريباً).

**الفرار من «أورشليم».** تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (قريباً).

**ملاحظات جغرافية ولغوية على التوراة.** تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (قريباً).

**الإبيونيون وورقة بن نوفل والإسلام.** تأليف: زياد منى (قريباً).

**مقاطع متطابقة من العهد القديم والشعر العربي.** تأليف: فراي هر فون غال، ترجمة: زياد منى (قريباً).

**النبي محمد وهرقل.** تأليف: أ. شارف (قريباً).

**«بيت داود [دود]» مبني على الرمال.** تأليف: فيليب ديفس، ترجمة: زياد منى (قريباً).

**بين المنهجية والجنون ـ عن توظيف التوراة مرجعاً تاريخياً.** تأليف: فيليب ديفس، ترجمة: زياد منى (قريباً).

**(نَفَق سِلوان) هلنستي.** تأليف: فيليب ديفس: ترجمة زياد منى (قريباً).

**الإسلام في الكتابات البيزنطية.** تأليف: فولفغانغ آيشنَر (قريباً).

**الحركات الدينية في شمالي جزيرة العرب قبل الإسلام.** أ. شبرنغر (قريباً).

**البحث عن الحلقة المفقودة: الآثار والرأي العام في لبنان.** هِلغا سِيدِن (قريباً).

**موقف العرب من بيزنطة ـ الرسمي، الشعبي، العلمي.** تأليف: أحمد شبول (قريباً).

**هل "عبرية" التوراة لغة؟** تأليف: إرنست أكسل كناوف؛ مراجعة: زياد منى (قريباً).

University of California. Press
Berkeley and Los Angeles, California
University of California Press, Ltd.
London, England
First Paperback Printing 1998

Printed in the United States of America
1 2 3 4 5 6 7 8 9
Library of Congress Catalouging-in-Publication Data
Holy women of the Syrian Orient.
(The Transformation of the classical heritage; 13) Bibliography: p. Includes index. Contents: Mary, the niece of Abraham of Qidun Pelagia, of Antioch-Persian martyrs-[etc.] i. Christian saints-Near East-Biography-Early works to 1800. 2. Women in Christianity - History Early church, ca. 30-600-Early works to 1800. 3. Syriac Christians-Near East-Biography-Early works to 1800. I. Brock, Sebastian P. 11. Harvey, Susan Ashbrook. 111. Series.
BR1713.H625 1987 75.6 '01' 088042 [B] 86 - 11313
ISBN 0-520-21366-1 (pbk: alk. paper)
The paper used in this publication meets the minimum requirements of American National Standard for Information Sciences-Permanence of Paper for Printed Library Materials, ANSI Z39.48-1984 (c)

تنطلق الديانات السماوية في نظرتها إلى المرأة من عملية الخلق. فالله تعالى خلق الإنسان على صورته ذكراً وأنثى خلقهم. ولكن المرأة مرّت في عصور وظروف تباينت فيها نظرة المجتمع إليها، وفي أغلب الأحيان تحكّم الرجل بالمرأة. ونما هذا التحكم إلى حد الاستبداد والتعسف. فنادت أوساط أخرى لتغيير أوضاع المرأة في مختلف مجالات الحياة. وأدت هذه المناداة إلى الدعوة لتحرير المرأة. وتبنى هذا الفكر الرجل والمرأة على السواء... وحصلت قناعة بأن إنماء المجتمع لا يتحقق إلا بمساواة المرأة بالرجل في الكرامة والعيش اللائق والحرية والعمل.

مار غريغوريوس يوحنا إبراهيم